

الكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب

اتجاهات النفسية
في
العصر الراهن

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الدكتور عبد المجيد عبد السلام المحتسب

اتجاهات التفكير

في

العصر الزاخر

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

الطبعة الثالثة - منقحة

١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

منشورات مكتبة النهضة الإسلامية

هاتف ٣٣٥٨٤ - ص.ب ١٣١٦٣

شارع سقف السيل

عمان - الاردن

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان - تلفون ٢٧٧٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً .

والحمد لله الذي له ما في السموات والارض ، وله الحمد في الآخرة ، وهو الحكيم الخبير .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وخيرته من خلقه ، خاتم النبيين ، وأشرف المرسلين .

ورضى الله عن أصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فموضوع هذا البحث « اتجاهات التفسير في العصر الحديث » . وهو موضوع كنت أشعر منذ أعوام خلت بميل الى معرفة أبعاده والوقوف على المستقيم والمعوج من هذه الاتجاهات .

ولقد كثر المفسرون في عصرنا . وفي كل عام يخرج تفسير للقرآن الكريم ينحو نحواً معيناً ، والمسلم يقرأ في هذا التفسير أو ذاك ، ولا يكاد يتمثل صورة واضحة لاتجاهات التفسير إلا اذا كان القارىء مستنيراً .

ولهذا كانت الحاجة ماسة الى رصد اتجاهات التفسير في العصر الحديث ،

ودراسة هذه الاتجاهات دراسة عميقة مستنيرة، ومعرفة الأصيل منها، والتنبيه الى الانحراف الذي طرأ على بعضها .

وقد رأيت أن أقسم هذا البحث الى كتابين ، أدرس بعض هذه الاتجاهات في الكتاب الأول ، وفي الكتاب الثاني أدرس سائرها .

ورأيت أيضاً أن يكون الجزء الأول من هذا البحث في تمهيد وفصول ثلاثة ، ففي التمهيد كان لا بد لي من أن أتحدث عن أوضاع المسلمين العامة بصورة موجزة منذ أوائل القرن التاسع عشر الى الربع الأول من القرن العشرين .

والفصل الأول كان دراسة للاتجاه السلفي في التفسير . وهو اتجاه أصيل يمتد من عهد السلف الصالح من المفسرين القدامى رحمهم الله .

ولقد اخترت ثلاثة تفاسير مشهورة تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً إن لم يكن دقيقاً فهو قريب من الدقة . وهذه التفاسير هي : محاسن التأويل للقاسمي ، والتفسير الحديث لمحمد عزّة درّوزة ، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب .

ورأيت أن أفرد الفصل الثاني لدراسة اتجاه الشيخ محمد عبده في التفسير . وهو اتجاه عقلي توفيق يوفق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية .

ولا بد من الحديث عن أولئك الذين ترسموا خطوات محمد عبده في التفسير ، ومنهم : الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ محمد مصطفى المراغي ، وعبد العزيز جاويش ، والشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، وعبد الكريم الخطيب ، ومحمد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان .

ورأيت أنه لا بد من الإشارة الى بعض من تأثروا باتجاه محمد عبده في غير ميدان التفسير ، وهو ميدان الفكر والبحوث الأدبية والإسلامية .

وفي الفصل الثالث كان لا بد من دراسة الاتجاه العالمي في تفسير القرآن

الكريم . وحق تكون الدراسة شاملة مستوعبة تتبعت جذوره القديمة ،
ودرسته في إبان رواجه القوي في العصر الحديث . وكان لا بد من تقديم
صورة واضحة عن إنكار القدماء ثم المحدثين لهذا الاتجاه ومن تسجيل
موقفي منه .

ولا أعلم ، حق الآن ، أحداً نهض بدراسة هذا الموضوع في بحث خاص
قائم برأسه ، مما دفعني الى القيام به .

ويجب عليّ وأنا في هذا المقام أن أذكر الجهد الرائع الذي قام به الأستاذ
محمد حسين الذهبي ، ففي الجزء الثالث من كتابه « التفسير والمفسرون »
دراسة عامة عن التفسير وألوانه في العصر الحديث . فجزاه الله عن الإسلام
والمسلمين خيراً .

ويعلم الله أنني بذلت الجهد ما استطعت ، ولم أقصر في الرجوع الى
المراجع التي توضح هذه الاتجاهات توضيحاً مرضياً .

ولا أزعم أن عملي هذا يخلو من الشوائب والهفوات والثغرات ، فالكمال
لله وحده .

وإني لأرجو أن أكون موفقاً في دراسة هذا الموضوع . والله من وراء القصد ،
وهو وليّ التوفيق .

عبد المجيد عبد السلام المحتسب

تمهيد

أوضاع المسلمين العامة منذ أوائل القرن التاسع عشر :

سيطرت الدولة العثمانية على معظم العالم الإسلامي في القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي . وفي القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي تم للدولة العثمانية ضم البلاد العربية إليها ، وامتد سلطانها امتداداً كبيراً .

ويدخل في نطاق الوحدة السياسية الكبرى للدولة العثمانية شبه جزيرة الأناضول والعراق والشام ومصر والحجاز واليمن وبعض النفوذ على الساحل الشرقي لإفريقيا .

وكانت الدولة العثمانية تعنى بقوة السلطان وتنظيم الجيش وأبهة الحكم والاشتغال بالفتوحات . وقد أهملت اللغة العربية مع أنها ضرورية لفهم الإسلام وشرط من شروط الاجتهاد . ولم تُعْنِ بأمر الإسلام من حيث الفكر ومن حيث التشريع ، فانخفض مستواها الفكري والتشريعي .

وبسبب ذلك كانت الدولة قوية قوة ظاهرة ، ولكنها في الحقيقة ضعيفة ضعفاً بيناً بفعل الضعف الفكري والتشريعي . إلا أن هذا الضعف لم تلاحظه الدولة حينئذ لأنها كانت في عنفوان مجدها ، وفي أوج عظمتها ، وفي منتهى قوتها العسكرية ^(١) .

(١) انظر الدولة الإسلامية ص ١٣٢ .

ولقد عاش الشرق الأوسط ، كما يسميه الغرب ، خلال العصر العثماني الأول (نهاية القرن الثامن عشر الميلادي) في عزلة سياسية واقتصادية وحضارية .

فلم يصل الشرق الأوسط عنصر واحد من العناصر المكونة للحضارة الغربية والمدنية الغربية التي كانت تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر .

وأكد هذه العزلة شعور من الشك والريبة في البلاد الإسلامية إزاء الفرنجة . وهو شعور نما واستقر منذ الحروب الصليبية (١) .

وبدأ شعور المسلمين بالحاجة إلى النقل عن الغرب في أوائل القرن التاسع عشر حين أحست الدولة العثمانية بالضعف وهي دولة الإسلام الأولى يومذاك أمام دول الغرب الفتية . فأخذ السلطان سليم الثالث في بناء نهضة حربية تقوم على تنظيم الجيش حسب النظم الأوروبية الحديثة ، وإنشاء مدارس للحربية والبحرية واستقدام بعض المهندسين والعسكريين من السويد وفرنسا والمجر وإنجلترا للاستعانة بهم في إنشاء الصناعات الحربية ، وتدريب فرق الجيش على النظم والأسلحة الجديدة وإدارة مدرسة الطوبجية .

وكان إنشاء أول فرقة نظامية في الجيش العثماني سنة ١٧٩٦ م . ثم توقفت هذه المحاولة بعض الوقت عقب عزل السلطان سليم الثالث سنة ١٨٠٧ م ، ولم تستأنف هذه المحاولة إلا بعد أن نجح خلفه السلطان محمود الثاني في القضاء على الانكشارية سنة ١٨٢٦ م .

وفي ذلك الوقت أو بعده بقليل كان محمد علي باشا يسلك الطريق نفسه محاولاً بناء نهضة حربية عقب تنصيبه والياً على مصر سنة ١٨٠٥ م ، فأخذ في إنشاء جيش حديث مدرب على النظام الأوروبي ، ودفعه ذلك إلى سلسلة

(١) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ١٤٠ وما بعدها .

من الإنشاءات في ميادين التعليم والهندسة والطب لسد احتياجات ذلك الجيش الحديث، مستعيناً على ذلك باستخدام ضباط ومهندسين وأطباء من الأوروبيين و بإرسال بعثات من الطلبة الى أوروبا .

ولم تلبث تونس أن اتجهت هذه الوجهة نفسها حين أحست بحاجتها الى حماية نفسها من النفوذ الأجنبي المتزايد ، فأنشأت جيشاً نظامياً ، وافتتح أحمد باشا باي الأول مدرسة للعلوم الحربية لتخريج ضباط وطنيين لهذا الجيش ، كان يديرها أحد الإيطاليين . وكان يقوم بالتدريس فيها مدرسون من الانجليز والفرنسيين والإيطاليين ، ثم كان خير الدين باشا أول مدير وطني لها .

وأدخلت أسرة القاجار ، التي حكمت ايران في القرن التاسع عشر ، النظم العسكرية الأوروبية على جيشها وفتحت من أجل ذلك كلية للعلوم والفنون سنة ١٨٥٢ م تسمى « دار الفنون » قامت على أساس غربي وكانت اساتذتها من الأوروبيين ^(١) .

كان اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصوراً في الجانب المادي الآلي منها ، ولم يكن يستهدف أصحابه الا وصل المسلمين بأسباب القوة ، لكي يكونوا أئذاً لأعدائهم . فإصلاح الجيش في تركيا جاء عقب هزائنها المتتالية أمام الجيوش الروسية التي أعاد بطرس الأكبر تنظيمها وتسليحها على النمط الأوروبي .

والإنشاءات الحربية الجديدة في مصر جاءت عقب هزيمتها أمام جيوش نابليون التي أدهشت المسلمين بفنونها العسكرية الجديدة .

وتنظيم الجيش في تونس وإنشاء مدرسة العلوم الحربية جاء عقب احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .

وإدخال النظم العسكرية الأوروبية في الجيش الإيراني جاءت عقب ازدياد الضغط السياسي والاقتصادي من جانب روسيا وبريطانيا .

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٢ وما بعدها .

ولكن تسربت مع النظم الحربية الجديدة نظريات سياسية وعناصر حضارية وثقافية غربية. فقد استلزمت الاصلاحات العسكرية الجديدة اصلاحاً في نظم التعليم وفي برامجها، واستلزمت استقدام خبراء ومدرسين من الاجانب، كما استلزمت ارسال بعوث علمية الى مختلف المعاهد الاوروبية .

على أن بعض الحكام المسلمين كان يعمل على أن تصبح بلاده جزءاً من الغرب ، فالسلطان محمود الثاني الذي قضى على الانكشارية كان يترسم خطى الحضارة الغربية في كل شيء ، فاستبدل الطربوش الرومي بالعمامة ، وتزيا بالزي الاوروبي ، وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي لكل موظفي الدولة العسكريين منهم والمدنيين ، ثم جاء ابنه عبد المجيد فسار على منوال أبيه ، وأصدر عقب توليته المنشور المعروف باسم (فرمان الكليخانة) في سنة ١٢٥٥هـ ، ١٨٣٩ م الذي رسم فيه طريق الإصلاح الجديد وبين قواعده وفي مقدمتها الحرية الشخصية ، والحرية الفكرية ، وتسوية غير المسلمين بالمسلمين ، والذي كان بداية للعصر المسمى بعصر التنظيمات . وفيه توالى صدور القوانين واللوائح المقتبسة من الحضارة الغربية ، فأنشئت المصارف ، وتعاقدت الدولة معها على قروض نظير أرباح ، وأدخلت نظم إصلاحية على السجون (حسب ما تقتضيه الإنسانية والعدالة) ، وسمح لغير المسلمين أن يلتحقوا بالخدمة العسكرية . ثم صدرت آخر الامر (مجلة الاحكام العدلية) في سنة ١٢٦٩ م ليعمل بها في المحاكم النظامية التي أنشأها السلطان عبد العزيز وقتذاك .

وفي ذلك الوقت كان الخديوي إسماعيل يسير سيرته في إدخال الحضارة الغربية وترسم خطاها (١) .

وهؤلاء المبعوثون الذين أرسل أكثرهم الى فرنسا كانوا يقرؤون الكتب الفرنسية ، ويشاهدون الحياة الفرنسية في أحفل العصور بالصراع الفكري الذي يصحب الثورات ، وكانت فرنسا تعيش في أعقاب الثورة الفرنسية وما

(١) انظر الاسلام والحضارة الغربية : ص ١٤ - ١٦

صاحبها وتلاها من قلق فكري لم يبلغ نهاية مداه . وقد احتل هؤلاء المبعوثون من بعد مكان الصدارة والقيادة في مختلف الميادين وبدؤوا يترجمون منذ سنة ١٨٣٠ م وينشرون كتباً في غير ما تخصصوا فيه من فنون . ومع المعلمين الذين استقدمهم محمد علي باشا للمدارس ، ومع الفرنسيين منهم بخاصة ، جاءت أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو الذين وجدت مؤلفاتهم في مكتبة إحدى المدارس المصرية في سنة ١٨١٦ م . ولم يكن في تقدير محمد علي أن يتعلم مبعوثوه أكثر من الخبرات التي بعثوا لتحصيلها في تنظيم الجيش والرقى بالصناعة والزراعة والاقتصاد والتنظيم الإداري .

وتأثر أعضاء البعثات بما شاهدوه في المجتمع الأوروبي واضح فيما كتبوه أثناء إقامتهم في أوروبا أو بعد عودتهم منها .

ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثال في عضوين من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين ، أحدهما مصري أقام في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ - ١٨٣١) وهو رفاعة الطهطاوي ، والآخر تونسي أقام في باريس أربع سنوات من (١٨٥٢ - ١٨٥٦) وهو خير الدين التونسي .

وترجع أهمية هذين الرجلين إلى أنها بكتاباتها وآرائها قد جلبا هذه البذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية .

للمرة الأولى نجد في ديار الإسلام كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض ، يراد اتخاذاً وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكوّنا وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين وللمرة الأولى نجد اهتماماً بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد . وللمرة الأولى نجد عند كل من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها حجر الزاوية في نهضة أية

أمة وفي تقدمها . ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدونة فقهية واضحة محدودة في صورة مواد قانونية على نمط المدونات القانونية الأوروبية .

ولأول مرة تُنقل إلى المسلمين النظريات الثورية التي تريد أن تناقش الأحكام الحساب فيما عليهم من واجبات ، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق .

ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات ، عرضاً يبدو مجرداً من التعليق في بعض الأحيان ، ومشوباً بالإعجاب والتساؤل عن امكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى .

ونرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عن المرأة ، لا شك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوروبية مثل تعليم الفتيات ، وتعدد الزوجات ، وتحديد الطلاق ، واختلاط الجنسين . وهذه الموضوعات والأفكار تبدو في كتب الطهطاوي « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » و « مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية » و « المرشد الأمين للبنات والبنين » . وفي كتاب خير الدين التونسي . « أقوى المسالك في معرفة أحوال الممالك » (١) .

ثم كان الغزو الثقافي من الغرب لبلاد المسلمين يحمل حضارة تناقض حضارة الإسلام ، ويوم المسلمين أنه أخذها منهم ، ويأتيهم بأنظمة تناقض نظام الإسلام ويوم المسلمين أنها تتفق مع أحكام الإسلام .

وانتشرت الجمعيات التبشيرية في كثير من البلاد الإسلامية . وانضمت حركة الاستشراق مع حركة التبشير لتكونا معول هدم للإسلام وتنصير المسلمين . وقد أدرك المبشرون والمستشرقون استحالة ارتداد المسلم عن دينه ، فقد رسموا خططهم وبنوا آمالهم على زعزعة عقيدة المسلم وتشكيكه بدينه ، وخلق فجوة بين المسلمين وأصولهم العريقة ، فيسهل بذلك القضاء على كياناتهم الإسلامية الشامخ (٢) .

(١) انظر الإسلام والحضارة الغربية : ص ١٩ وما بعدها .

(٢) انظر جذور البلاء : ص ٢٠٥ ،

والمعركة بين المبشرين وبين الأديان غير النصرانية ليست معركة دين، بل هي معركة في سبيل السيطرة السياسية والاقتصادية . حتى أن البروتستانت مثلاً لا يكتفون بأن يظل المسيحي أرثوذكسياً ، بل يجب أن يصبح مسيحياً بروتستانتياً . إن هوى الكاثوليك مع فرنسا ، وهوى الأرثوذكس مع روسيا ، فإذا انتقل هذان إلى البروتستانتية أصبحوا مع أمريكا في الدرجة الأولى ومع إنجلترا في الدرجة الثانية (١) .

وانسجمت الخطط الاستعمارية في الحرب ضد الإسلام وديار الإسلام مع قوى التبشير الكاثوليكي بقيادة الكرسي البابوي في روما ، وقوى التبشير البروتستانتى بقيادة اليهودية العالمية وتوجيهها . البروتستانت يسخرون أنفسهم ونشاطهم لخدمة اليهود - وقد شنوا حملة مركزة على الإسلام بقيادة جريدة (راية صهيون) التابعة لطائفة الإنجليكان البروتستانت (٢) .

وكان قيام إبراهيم باشا بتطبيق برنامج للتعليم الابتدائي في سوريا - مستوحى من برنامج التعليم الموجود في مصر المأخوذ عن برامج التعليم في فرنسا - فرصة لهؤلاء المبشرين ، فاغتنموها وساهموا في الحركة التعليمية من وجهة النظر التبشيرية . وكان محمد علي يقف من الإرساليات التبشيرية موقفاً متساهلاً . ومن الجدير ذكره أن محمد علي باشا كان ماسونياً .

وهكذا انتهز المبشرون هذه الفرصة السانحة ووضعوا أساس ما دعوه كنيسة صهيون أول كنيسة بروتستانتية في الدولة العثمانية . ولكن فال المبشرين قد خاب ، فإن محمد علي انسحب عام ١٨٤٠ من الشام ، فعاد الانكسار إلى موقفهم الشديد من الإرساليات التبشيرية .

وكانت الدولة العثمانية ترتاب في حركات التبشير ، ولا غرو فالمبشر يسبق الجيش إلى كل مكان . وكانت الدولة ترتاب بالمبشرين البروتستانت خاصة ،

(١) أنظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية : ص ٤٥ .

(٢) أنظر جذور البلاء : ص ٢٠٤ .

لأن هؤلاء كانوا يتوارون وراء العلم البريطاني في الأكثر ، أو يتوارون وراء العلم الأمريكي ، وبالمبشرين اليسوعيين لأنهم يعملون للسياسة الفرنسية أيضاً . وهكذا أصبح التبشير بين المسلمين في الدولة العثمانية كلها مستحيلاً للرقابة الشديدة التي فرضتها الحكومة على المبشرين . ولذلك كان المبشرون كلما وجدوا مراقبة وسهراً من الدولة العثمانية لجأوا الى قناصلهم ، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجنب في الظاهر أيضاً .

وقد استطاع المبشرون بنشاطهم هذا أن يوغروا الصدور بين رعايا الدولة الإسلامية باسم الحرية الدينية . وأوجدوا بين المسلمين والنصارى والدروز نشاطاً دينياً يتصل بالعقيدة . وحين انسحب ابراهيم باشا سنة ١٨٤٠ م من بلاد الشام إنتشر القلق والاضطراب فيها ، واغتم الموفودون الاجانب لا سيما رجال البعثات التبشيرية ضعف نفوذ الدولة العثمانية في البلاد ، وحينئذ أخذوا يشعلون نار الفتنة ، وما مر عام واحد وحلت سنة ١٨٤١ م حتى وقعت اضطرابات خطيرة في جبل لبنان بين النصارى والدروز استفحل شرها ، حتى اضطرت الدولة العثمانية بضغط من الدول الأوروبية الى وضع نظام يقسم لبنان الى قسمين ، يسود النصارى في قسم منه ، والدروز في القسم الآخر^(١) .

وكانت سوريا ميداناً للسباق بين البروتستانت الاميركيين وبين اليسوعيين ذوي اللون الفرنسي . ويظهر أن اليسوعيين بدأوا يتسربون الى سوريا منذ القرن الثامن عشر حينما أنشأوا مدرسة عينطورة في مقاطعة كسروان في جبل لبنان في عام ١٧٣٤ م ثم تخلوا عنها للرهبان اللعازريين .

وكذلك كان للمبشرين غاية أخرى من التعليم العالي ، هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد وفي الجيل الناشئ في بلاد المسلمين .

وعلى هذا الاساس أوجد المبشرون البروتستانت كلية في بيروت عام

(١) انظر كتاب الدولة الاسلامية : ص ١٤٣ .

١٨٩٢م وجعلوا على رأسها المبشر دانيال بلس، هذه الكلية أصبحت فيما بعد: الكلية السورية الإنجيلية، ثم هي الجامعة الأمريكية في بيروت. ولم يكتفوا ببيروت، بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر. وهكذا أصبح للمبشرين الأمريكيين الكلية الأمريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول أيضاً.

ولم يكن رأي المبشرين الفرنسيين مخالفاً لذلك، فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور، وهي مدينة من المدن الإسلامية الكبرى في الهند وعاصمة مقاطعة البنجاب في باكستان اليوم.

ثم أقام اليسوعيون جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت (١).

وروسيا القيصرية تنبعت إلى أن في الدولة العثمانية طائفة أرثوذكسية، فأرادت أولاً أن تسيطر على البطارقة والأساقفة الأرثوذكس وتتخذهم وسيلة إلى تحقيق أطماعها السياسية في الدولة العثمانية. وهكذا أخذ الروس يشترون الأراضي في فلسطين خاصة ويقيمون عليها الأبنية ويتدخلون ساعة يستطيعون في الأمور الدينية والسياسية.

وجدير بالملاحظة أن اليهود كانوا وراء حركة الاستشراق والتبشير. فُصموثيل زويمر الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من أدنبرة في أقصى الغرب إلى لكنو في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طوال ستين عاماً انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢م، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه، وذلك بأن طلب حاكماً يلقنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره، وبهذا الصدد يقول الأستاذ عبد الله التل: «أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المذهل، ولا تبوح به، حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية، وحتى

(١) انظر التبشير والاستعمار في البلاد العربية: ص ٧٩، ٨٠، ١١١.

لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثاً ، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية »^(١).

وليس من قبيل المصادفة أن نجد أكبر المستشرقين منذ أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هو اليهودي جولدتسهر الذي كرس حياته للطعن في الإسلام ونبي الإسلام وقرآن الإسلام بأسلوب علمي مقنّع تنبعث منه أحقاد اليهود ومكرهم وخبثهم^(٢).

وكان معظم الجمعيات التبشيرية إنجليزية وفرنسية وأمريكية. فتغلغل النفوذ الفرنسي والبريطاني عن طريقها ، وأصبحت هذه الجمعيات مع الزمن هي الموجهة للحركات القومية. وأصبحت هي المسيطرة على توجيه المتعلمين من المسلمين أو توجيه القومية العربية والقومية التركية الطورانية لغرضين رئيسيين :

الاول: فصل العرب عن الدولة العثمانية المسلمة للإجهاز على دولة الإسلام ، وأطلقوا عليها اسم تركيا لإثارة النعرة العنصرية .

والثاني : ابعاد المسلمين عن الرابطة الحقيقية التي لم يكونوا يعرفون سواها وهي رابطة الإسلام . وقد انتهوا من الغرض الاول ، وبقي الثاني قائماً . ولذلك سيظل التوجيه الى القومية عند الترك والعرب والفرس وغيرهم هو الإسفين الذي يفرق وحدة المسلمين ويعميهم عن مبدئهم^(٣).

وفي هذه الاثناء اتخذت أعمال التبشير مظهراً آخر لم يكن موجوداً من قبل ، فلم يكتفوا بحركة المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات ، بل تعدوا ذلك الى تأسيس الجمعيات تحت رعاية الإرسالية الأمريكية ، في سنة ١٨٤٧ م أسست جمعية الفنون والعلوم ، وكان أعضاؤها ناصيف اليازجي وبطرس

(١) جذور البلاء : ص ٢٢٨ .

(٢) انظر جذور البلاء : ص ١٩٨ .

(٣) انظر الدولة الاسلامية : ص ١٣٩ وما بعدها .

البستاني من نصارى لبنان . ولم يدخل في الجمعية من المسلمين ولا من الدروز أي عضو مطلقاً . وماتت الجمعية بعد خمس سنوات من تأسيسها . واسبس اليسوعيون الجمعية الشرقية تحت رعاية الاب اليسوعي الفرنسي هنري دوبرونير ، وكان أعضاؤها كلهم من النصارى ولكنها لم تعيش طويلاً . ثم الجمعية العلمية السورية ، ظهرت بالمظهر العربي واستبعد دخول الاجانب فيها . وقد دخلها بعض المسلمين مثل حسين بيهم ، ومن الدروز محمد ارسلان ، وانضم اليها من كل طائفة من نصارى العرب . وكان من برنامجها التوفيق بين الطوائف وبعث القومية العربية في النفوس . ثم تألفت في بيروت الجمعية السرية ، فأخذت تبث فكرة القومية العربية . وقام بتأسيسها خمسة من النصارى من الذين تلقوا العلم في الكلية البروتستانتية في بيروت وكانت تدعو للقومية العربية والعروبة وتثير العداء للدولة العثمانية وتسميها التركية (١) .

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن جل الجمعيات السرية في العالم تدار من قبل اليهودية العالمية - فاليهود وحدهم هم الذين يعملون في الظلام متسترين . وباغي الخير لا يحتاج الى التستر والتخفي والسرية . وهذا واضح في الحركة الماسونية التي هي جمعية سرية أو جهاز ضخمة لخدمة اليهودية العالمية .

ونستطيع أن نقول إن الإسلام قد انحسر خلال عصور الانحطاط الفكري عن الساحة العامة ، وحالت بين مفاهيمه الاجتماعية السامية ومعالمه الرئيسية وبين الأمة حواجز كثيفة من الجهل والتشويه والشوائب الغريبة عنه ، وتقلص في نفوس المسلمين وضُمُر حتى عاد ديناً بالمعنى الأوروبي أي مجموعة عقائد تتعلق بما وراء هذه الدنيا ومجموع شعائر تعبدية . وهذا ما يسمى بفصل الدين عن الحياة . وبهذا الصدد يقول الدكتور محمد البهي :

« وقد نشأ في التفكير الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتجاهان : أحدهما للمألة الاستعمار الغربي في تقريب الاسلام من المسيحية أو

(١) أنظر الدولة الاسلامية : ص ١٤٥ وما بعدها .

في تبديله الى توجيه ديني يرضى عنه المستعمر (حركة السيد أحمد خان في الهند التي سماها تجديداً ، وحركة ميرزا غلام أحمد) .

والثاني لمقاومة هذا التقريب أو هذا التبديل مع الدعوة الى احتفاظ المسلمين بإسلامهم كما يصوره القرآن والسنة والى إعادة تماسك الجماعة الاسلامية والسعي الى استقلالها وعدم انصهار المسلمين في غيرهم . وبانتهاء القرن التاسع عشر ثم تبلور هذين الاتجاهين ، وعُرفت أسسهما في العالم الاسلامي وأصبح لكل منهما أتباع وأنصار ^(١) .

وأود أن أنبه إلى نقطتين :

الأولى : قول الدكتور محمد البهي : « في تقريب الإسلام من المسيحية » . فالتعبير الدقيق كما أراه يجب أن يكون ، « التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية » لأن النصرانية في ذاتها ليست نظاماً شاملاً يحدد علاقات الإنسان بربه وبنفسه وبغيره من البشر . وهي دعوة إلى التسامح وفعل الخير والمحبة . وقد نسخ القرآن الأديان السابقة . والحضارة الغربية تقوم على الفكر الرأسمالي الذي يقوم بدوره على فكرة فصل الدين عن الحياة .

والثانية : إن محمد عبده وتلاميذه في مصر من أولئك الذين قاموا بالتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . وسنعرض لهذه النقطة بالذات في موضع من هذا البحث .

وجدير بالذكر أن الغرب الصليبي أدرك عن خبرة وتجربة أنه اذا قامت دولة قوية في الشرق الأدنى والأوسط فمعناه التوسع الى الغرب لنشر الاسلام وازالة الحواجز التي تقف أمامه ، عرفوا ذلك في فتح الأندلس ومعركة بلاط الشهداء ، وفي فتح صقلية وغيرها ، وعرفوا ذلك في أيام الدولة العثمانية في عهد محمد الفاتح الذي فتح القسطنطينية ، وحين استولت الدولة على البلقان

(١) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ص ٤ وما بعدها .

والجزء الجنوبي الشرقي منها مما أثار الرعب في جميع دول أوروبا من الدولة العثمانية بوصفها دولة إسلامية . وصار مستقراً عند الجميع أن الجيش الإسلامي لا يُقهر ، وأنه لا قبل لأحد بمواجهة المسلمين . وظهرت المسألة الشرقية للوجود . وكان معناها حينئذ اتقاء الخطر من زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الفاتح في القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي ومن خلفه من السلاطين ، ذلك الزحف الذي استمر إلى أواخر القرن الحادي عشر الهجري على يد سليمان القانوني ، وتركز تركزاً قوياً حتى أواسط القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي .

وكان النفوذ الأوروبي السياسي في الشرق الأوسط والهند في أوائل القرن الثامن عشر لا يزال ضئيلاً ، فقد كانت الدولة العثمانية والفارسية والمغولية لا تزال على جانب يذكر من القوة . ومع أن دول أوروبا الغربية كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في التقدم الصناعي وسبقت الشرق الراكد في ميدان المهارة الفنية وجودة المنتجات الصناعية فإن تجارتها في هذه الأصقاع كانوا لا يزالون يعيشون في كنف حكامها وموظفيها الشرقيين ورعايتهم .

فلما ظهرت آثار الانقلاب الصناعي الذي ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر وظهرت الاختراعات المتعددة كان لذلك في مجموعه الأثر الفعال في تقوية أوروبا وفي تقدمها الفكري والمادي . فتغير مفهوم المسألة الشرقية ، فلم تعد مسألة اتقاء الأخطار الإسلامية على أوروبا ، وإنما صارت الإبقاء على الدولة العثمانية أو تقسيمها حيث اختلفت عليها الدول تبعاً لاختلافها في المصلحة^(١) . وكان الحكم في الدولة العثمانية يحتقرون الأوروبيين المقيمين بينهم ، وبهذا الصدد يقول جورج كيرك : « وهم ، حكام الدولة العثمانية ، لا يزالون يعتبرون الأجانب من الأوروبيين المقيمين بينهم دونهم بمراحل لا تقدر . وحتى في عام ١٨٣٠ م ترك أحد السفراء الأجانب جالساً على مقعد بفناء القصر السلطاني

(١) أنظر الدولة الإسلامية : ص ١٣٣ - ١٣٥ .

ينتظر تفضل كبير الوزراء بالإذن في المقابلة ، وأخيراً سمح له بالمشول بين يدي السلطان على أنه المتبرر الجائع العاري الذي اجتراً على التمسح بجبته في الباب العالي ، (١) .

وفي عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٨) واجهت الدولة خطراً داخلياً يتمثل في ظهور الحركات القومية وبالذات حركة الاتحاد والترقي ، وهي التي يسمونها حركة الاحرار في تركيا الذين كان من رأيهم أن الأمل الوحيد في إنقاذ الدولة العثمانية هو إصلاح نظام الحكم فيها وذلك بتزويد الدولة بدستور على غرار دساتير الدول الأوروبية الحديثة . وكان زعيم هذه الحركة مدحت باشا الذي يسمى أبا الأتراك الاحرار .

ونجحت الحركة بادیء الأمر بوضع دستور ، ولكن السلطان عبد الحميد قضى على الدستور وتمسك بحقوق الخلافة ، فقامت ثورة سنة ١٩٠٨ م بقيادة ما يسمون الاحرار في تركيا وخلع السلطان عبد الحميد الثاني وصدر الدستور العثماني وتولى حزب الاتحاد والترقي الحكم .

وكانت جمعية الاتحاد والترقي قد اتخذت من (سالونيك) مركزاً لها . وكانت (سالونيك) -مقدونيا- في ذلك الوقت ذات طابع عالمي يختلف عن أية بلدة من بلدان الدولة العثمانية . وكان نصف سكانها من اليهود الذين هاجروا من الأندلس (اسبانيا اليوم) ليجدوا التسامح الديني في رحاب الإسلام . وكان الكثير منهم قد اعتنق الإسلام في القرن السابع عشر . كما كانت سالونيك أكثر اتصالاً بالعالم الأوروبي من بقية الولايات العثمانية الآسيوية منها والأوروبية . وفي سالونيك ولد مصطفى كمال «أتاتورك» وفي سالونيك كان الجيش العثماني الثالث (٢) . فأنت ترى أثر اليهود (يهود الدونمة) في تهيئة الأسباب للقضاء على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه ثم

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط : ص ١٠٦

(٢) انظر الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ٢٥٤ .

القضاء على الخلافة الإسلامية ليتسنى لهم فيما بعد إقامة دولتهم في فلسطين أرض الإسلام المباركة .

ومن الأدلة القوية التي تدعم ما نذهب إليه أن المهامي اليهودي « عمانويل قراصثوه » كان أحد قادة الحركة الماسونية في سالونيك وفي مقدمة الوفد الرباعي الذي تقدم إلى قصر « يلدز » ليلبغ السلطان عبد الحميد الثاني نبأ عزله وذلك عندما استخلص الاتحاديون من شيخ الاسلام في أستانبول فتوى بخلع السلطان عبد الحميد .

هذا المهامي اليهودي « قراصثوه » كان قد طرده السلطان عبد الحميد من قصر « يلدز » قبل خلعهم بسنة واحدة عندما طلب من السلطان بعض الامتيازات لليهود في فلسطين. وقراصثوه هذا كان من حزب الاتحاد والترقي . ومما يملأ النفس أسى وحسرة جهل المسلمين وانحطاطهم الفكري لسكوتهم عن جرائم الاتحاديين وخيانتهم بخلع الخليفة المفترى عليه ونفيه إلى « سالونيك » معقل يهود الدونمة ومحافل الماسون . والسلطان عبد الحميد الثاني من أعظم سلاطين بني عثمان المتأخرين . وكان صاحب دماء عبقرى مع إخلاص للمسلمين وسهر على رعاية شؤونهم . فخلعه الاتحاديون لما أن رأوه حجر عثرة في سبيل أطباعهم . وكتب تاريخه أعداؤه في تركيا وخارجها ، ولم ينصفه إلا القليل من المفكرين والمؤرخين . وألصقوا به التهم كما فعلوا بعدنان مندريس الذي أمر بإعادة رفع الأذان بالعربية بعد أن أجبرهم أتاتورك على رفعه بالتركية . وفي الوقت الذي يُمنع التركي من شتم أتاتورك أو نقده لأنه مؤسس الجمهورية التركية الحديثة ويكون عقابه الاعدام إذا فعل ذلك ، يفسح المجال إلى أبعد حد لكيال التهم للسلطان العظيم عبد الحميد ، طيب الله ثراه . ولولا ضيق المقام وظروف البحث لأظهرت خصال الرجل الحميدة وحرصه على مصلحة المسلمين .

ويحاول الدكتور محمد أنيس ، عبثاً ، أن يلغي العلاقة القائمة بين اليهودية

العالمية ممثلة في الماسونية وبين حركة تركيا الفتاة أو حركة الاتحاد والترقي ،
إذ يقول : « يدور كلام كثير حول حركة تركيا الفتاة بالماسونية ، إذ يرى
بعض المؤرخين أن حركة تركيا الفتاة ليست إلا نموذجاً لبقية الثورات التي
استخدمتها اليهودية الدولية ممثلة في الماسونية لخدمة مصالحها الخاصة - والحقيقة
أن تركيا الفتاة هي التي استخدمت الحركة الماسونية وعملت تحت ستارها»^(١).

والحقيقة أن الدكتور محمد أنيس أخطأ الحقيقة وابتعد عنها كثيراً.

فعلى أي دليل اعتمد الدكتور حتى ذهب إلى هذا الرأي ؟ وقوله هذا
ليس جديداً . وهو نفس أقوال الماسونيين العرب الذين يصرحون بأنهم
يستغلون الماسونية لخدمة أهداف الشعب العربي .

فما الخدمات التي حققها الماسون العرب للشعب العربي ؟ نريد منهم أن
يعدوها ! وأقوالهم زعم باطل ودجل ظاهر يكاد يمس بالحواس . ولو قرأ
الدكتور محمد أنيس بروتوكولات حكماء صهيون ، وأسرار الماسونية للجنرال
التركي جواد رفعت أتلخان ، وجذور البلاء للأستاذ عبد الله التل لما ذهب
إلى هذا القول . والحقيقة هي عكس ما قاله الأستاذ الدكتور . لأن الماسونية
جهاز ضخم يقوم بخدمة اليهودية العالمية في تحقيق سيطرة اليهود على العالم
وتنصيب ملك من نسل داود ، عليه السلام ، كما يخططون .

ونستطيع أن نقول أن اليهودية العالمية وراء كل الجمعيات السرية في
العالم . فإذا كانت الماسونية تدعي أنها تعمل لتحقيق الرقي والبناء وال إخاء
والحرية والعدالة والمساواة للإنسان فلماذا تعمل في الظلام وكتان السر من أهم
تنظيماتها . وأجندني مضطراً لإيراد بعض النصوص التي صدرت عن المحافل
الماسونية ذاتها واثبتتها جواد رفعت أتلخان في كتابه :

١ - في وسع الماسوني أن يكون مواطناً على أن يكون ماسونياً قبل كل

(١) الدولة العثمانية والشرق العربي : ص ٢٥٥ .

شيء ، وفي وسعه بعد ذلك ان يكون موظفاً او نائباً او عيناً او رئيس جمهورية ، وعليه ان يستلهم الافكار الماسونية ، ومنها علت مكانته فإنه يستوحي مفاهيمه من المحفل الماسوني لا من مكانته ^(١)

٢ - إن الماسونية هي سيدة الاحزاب السياسية لآخادمتها ^(٢)

٣ - من اهداف الماسونية محاربة الاديان وصيانة الدول اللادينية العلمانية ولذا فهي تستسيغ الارهاب بالتجرد عن مفاهيم الأخلاق والضمير ^(٣)

٤ - ان النضال ضد الاديان لا يبلغ نهايته إلا بعد فصل الدين عن الدولة ^(٤)

٥ - الماسونية التي هيأت الجو لثورة سنة (١٧٨٩) الثورة الفرنسية ، عليها الآن ان تهيب الجو للثورة الماركسية . وعلى الماسونيين ان يعملوا بالاشتراك مع العمال ، لان الماسونية تملك القوى الفكرية والامكانيات العقلية ، وان العمال يكونون عدداً هائلاً ويملكون القوى التدميرية ، وباجتماع هاتين القوتين يتولد الاضطراب الاجتماعي ^(٥)

ويصف الجنرال جواد رفعت اتلخان خيانة الضباط الاتراك الماسونيين في حرب البلقان إذ يقول : « لا شك ان الماسونية هي سبب المصيبة التي لحقتنا في حرب البلقان ، لان فريقاً من الجبناء انخرطوا في سلك الماسونية ، وبذلك نجوا بأنفسهم من اخطار الحرب ... لا بل احتلوا اكثر المراكز المرموقة في الجيش سنة ١٣٢٨ رومية عندما أرسلوا للحرب في البانيا القوا السلاح ولاذوا بالفرار وأرتكبوا انواع الخيانات ولكنهم احتموا بالحزبية ... وبينما نحن رجال الفرقة الحادية عشرة نتخذ هذا القرار في صالح الأمة ، كان ضباط الفرقة الأولى الماسونيون والمنتسبون الى جمعية الاتحاد والترقي يسلمون أسلحتهم للعدو ، وبذا مكثوا العدو من الاستيلاء على مدينة (اسكوب) الألبانية ^(٦) وان قائدنا المشير

(١) اسرار الماسونية : ص ٢٦ (٢) اسرار الماسونية : ص ٢٩ (٣) اسرار الماسونية ص ٣٠ (٤) اسرار الماسونية : ص ٣٣ (٥) اسرار الماسونية ص ٣٦ .
(٦) اسكوب تحت حكم يوغوسلافيا الآن ، ومعظم اهلها مسلمون وتعرف الآن (اسكوبيا).

ابراهيم باشا قد جلب فرقتنا الى (اسكوب) ثقة منه بنا، ووضع سريتي المسلحة بالبنادق الأتوماتيكية في سراي الحكومة ، ووجه الى رؤساء العصاة الإنذار التالي : « أيها السادة ... لسنا في قمم الجبال ، فلذا لا اسمح لكم بالدخول الى المدينة مسلحين .. أمهلكم ساعتين .. فإذا لم تغادروا المدينة خلالها . فلا اثم عليّ بعد ذلك .. » . وفعلنا لم يبق بعد ساعتين من الإنذار أي عاص مسلح في مدينة « اسكوب » . وهكذا سدت الثغرة التي أحدثها ضباط الفرقة الأولى الماسونيون « (١) » .

فهذه أقوال جنرال تركي كانت يعمل في الجيش العثماني واشترك في حرب فلسطين في الحرب العالمية الأولى ، وفي حرب البلقان ، ويعرفه الكثيرون من أهل فلسطين الذين عملوا في جيش الدولة العثمانية . ومعلوماته ليست من كتاب مثلا وإنما جاءت من خبرته وإطلاعه على خيانات الضباط الأتراك الماسونيين الذين انضموا الى حركة الاتحاد والترقي .

وفي المقدمة التحليلية لكتاب «برتوكولات حكماء صهيون» : أكبر محطمي القيصريّة في روسيا هم اليهود . وكان على رأسهم كرينسكي وتروتسكي وزينو فييف ورادك اليهود . وكان للذهب اليهودي الأمريكي والفدائيين اليهود من الروس أوفر نصيب في تحطيم القيصريّة وتمكين الشيوعية من روسيا .

وموقف تركيا منذ انقلاب « أتاتورك » تجاه العرب واليهود لا يفسره إلا نفوذ اليهود في تركيا . فلو بقيت الخلافة العثمانية - رغم ضعفها - قائمة لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين . فنكس اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب العالمية الأولى . وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها ، ولكن اليهود عطلوه بزعماء وإزمان رئيس إسرائيل - كما ذكر هو في مذكراته - وبمساعدة بعض النساء ، فهم الذين حالوا دون الصلح بينهما ، حتى تخرب تركيا وتنحل خلافتها وتمتد حاجة

(١) أسرار الماسونية : ص ٤٠ وما بعدها .

بريطانيا بشدة الى اليهود . كما كان لهم نصيب كبير في إلغاء الخلافة . وكان أحد الثلاثة الذين سلموا الخليفة قرار العزل يهودياً . وكان لنفوذهم أكبر الأثر في طرح تركيا دينها الإسلامي وقوانينها الإسلامية ومحاربة اللغة العربية والتبرؤ من صلاتها بالعرب . لأن اليهود ولا سيما «الدونمة» في سلانيك وغيرها - وهم يهود يتظاهرون بالإسلام - هم الداعون إلى الجامعة الطورانية للتخلص من الإسلام واللغة العربية وصلة الترك بالعرب . وكان لذلك أثره في أن اصطبغ بهذه الألوان حكم مصطفى كمال الملقب «أتاتورك» وقد كان فيه عرق من الدونمة . وكان حاخام اليهود حاييم ناحوم أفندي هناك ، وهو الذي فتح لليهود يومئذ باب الهجرة الى تركيا ليكونوا بالقرب من فلسطين ، ثم صار مبعوث مصطفى كمال الى مؤتمر لوزان ، ثم عينه حاخاماً لليهود في مصر^(١) .

وبعد هذه النصوص ، هل يبقى أدنى شك في علاقة اليهودية العالمية الممثلة في الماسونية بحركة الاتحاد والترقي والحركة الكمالية التي تعد امتداداً للحركة الأولى ، واستخدام اليهودية العالمية حركة الاتحاد والترقي والحركة الكمالية وتسخيرهما لتحقيق أهدافها ؟

وإذا لم يكن ذلك كذلك فما علة وجود هؤلاء اليهود الذين كان لهم دور في حركة الاتحاديين والكماليين ؟ قراصتوه يلقي قرار العزل على السلطان عبد الحميد الثاني ، وجاويد وزير المالية في حكومة الاتحاديين ، وحاييم ناحوم حاخام اليهود صار مبعوث مصطفى كمال الى مؤتمر لوزان . ومصطفى كمال الملقب أتاتورك من يهود الدونمة في سالونيك وكان ماسونياً ، وقد عرف عنه أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى انسحب أمام الجيش البريطاني من نابلس الى الأردن فحدود الأناضول في ظروف غامضة مشبوهة .

ومما يؤكد خيانة الاتحاديين وانحرافهم أنهم عملوا منذ اغتصابهم السلطة على زيادة النفوذ الغربي في السلطنة . وخين اعتدت ايطاليا على طرابلس الغرب

(١) بروتوكولات حكماء صهيون - المقدمة - ص ٧٢ وما بعدها .

أرسل السنيور لوتزاني اليهودي ، وكان رئيساً للوزارة الإيطالية ، رسولا يهوديا إيطاليا ماسونيا لكي يسعى لمصلحة إيطاليا مستخدماً الوسائل الماسونية لبلوغ مناه . وكذلك كان النفوذ الألماني واسعا عن طريق اليهودي الماسوني سامو هشبورغ محرر جريدة « عثمانيتشر لويد » الذي نصّب نفسه مدافعا عن جمعية الاتحاد والترقي (١) .

ومنذ مارس ١٩٠٩ م كان الاتحاديون مسيطرين على الحكم في الدولة العثمانية بزعامة أنور باشا ، وهم الذين دخلوا الحرب في جانب ألمانيا ، وعلى أيديهم هزمت الدولة العثمانية ودخلت جيوش الحلفاء استانبول .

وفي أواخر الحرب البلقانية الثانية (١٩١٢ - ١٩١٣) ظهرت الحركة الطورانية . فلقد كان استيلاء الأتراك في أواخر هذه الحرب على « أدرنة » أول عاصمة أوروبية لهم في يوليو ١٩١٣ م مما أثار ذكريات الانتصارات التركية القديمة ومجد الأتراك .

ثم عمد الثنائي اليهودي الماسوني من الاتحاديين الى سياسة قترك الدولة العثمانية ، فأصبحت اللغة الرسمية في كل الولايات العثمانية هي التركية مما هيا لثورة القوميات المختلفة داخل الدولة ومنها القومية العربية والقومية الأرمنية وغيرها .

وتألفت في الشام والعراق ومصر والحجاز الجمعيات السرية المتعددة التي تدعو الى التخلص من نير الاتحاديين .

ففي مصر مثلاً كانت جمعية مصر الفتاة ، وإنني أذهب مع الدكتور محمد محمد حسين في رأيه الذي يقوم على وجود تشابه بين جمعية مصر الفتاة التي حركت الثورة المرابية وكانت نواتها ، وبين جمعية تركيا الفتاة التي حركت الثورة التي انتهت بنحس السلطان عبد الحميد والتي كان الانقلاب

(١) أنظر الأفعى اليهودية في معادل الاسلام : ص ٨٨

الكفالي بعد الحرب العالمية الأولى امتداداً لها إذ يقول : « هذا التشابه بين الاسمين ، وبين الأهداف الثورية لكل منها مع الاتفاق الزمني ، لأن مؤسس تركيا الفتاة على ما هو معروف هو مدحت المعاصر للثورة العرابية يوحى بوجود صلة . ويؤيد وجود هذه الصلة أن عدداً كبيراً من أعضاء الحزبين التركي والمصري كانوا من الماسون . وأن الحزبين كليهما كانا متأثرين بمبادئ الثورة الفرنسية التي كان بعض زعمائها ومفكرها من الماسون أيضاً . ولكن الأدلة المادية القاطعة تعوز المؤرخ . وإذا قدر للماسونية أن ينكشف عنها الغطاء ويتضح ما يحيطها من غموض فسوف يساعد ذلك كثيراً على كشف الغموض الذي يحيط بهذه الحركات وبأمثالها . وسوف يغير ذلك كثيراً من الآراء السائدة المقررة عن بعض رجال العصر وأحداثه » (١) .

وقد وصل حال المسلمين إلى ما هو أسوأ من ذلك ، وصل إلى حد أن صار بعض المسلمين ، وعلى رأسهم جمال الدين المعروف بالأفغاني ، صار يدعو إلى جامعة اسلامية وبتأييد من بريطانيا . أي أن تتفق دولة الخلافة مع الدول التي أنسلخت عنها فتقرها دولة الخلافة على انفصالها وتبقى دولاً متعددة . أي إلى تأييد شق عصا المسلمين ليصبحوا شعوباً وأممًا .

فهذه قضية مصيرية يحاربها الاسلام ، لأن انسلاخ بلد عن جسم الدولة قضية مصيرية تقتضى إما الرجوع إلى جسم الدولة ، وإما حربهم معها كلف ذلك من نفوس وأموال .

ومنذ بداية القرن السابع عشر ودول الغرب الصليبي المستعمر لم تتوقف عن اقتطاع أجزاء من العالم الاسلامي حتى تم لها ذلك في الربع الاول من القرن العشرين . ففي بداية القرن السابع عشر احتلت هولندا جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية التي تأسست في سنة ١٦٠٢ م .

(١) (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١ / ٥٢)

وروسيا القيصرية في عهد كاترينا (١٧٦٢ - ١٧٩٦ م) حاربت العثمانيين وتغلبت عليهم ، واقتطعت بعض أراضيهم ، وأخذت منهم مدينة آزروف وشبه جزيرة القرم ، وأستولت على جميع الحوض الشمالي للبحر الاسود ، وأنشأت مدينة سياستبول قاعدة لها في شبه جزيرة القرم ، كما أنشأت ميناء أوديسا التجاري على البحر الاسود ، واعتبرت نفسها حامية النضرائية الارثوذكسية في الدولة العثمانية . ثم اقتطعت من تركيا في سنة ١٨٨٤ م التركستان ، ثم أكملت احتلالها للقفقاس جميعه .

ولم يقتصر الامر على هولندا وروسيا ، بل شمل ذلك بقية الدول الغربية . ففي أول تموز سنة ١٧٩٨ م هاجم نابليون مصر واستولى عليها . وفي شباط سنة ١٧٩٩ م هاجم الجزء الجنوبي من بلاد الشام واستولى على غزة والرملة ويافا . الا أن حملته هذه لم توفق ، وفشلت الحملة سنة ١٨٠١ م اذ رجع الى مصر ثم غادرها الى فرنسا .

وتتابعت سائر الدول تهاجم العالم الإسلامي وتستولي على أجزائه ، فقد احتل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ م ، وتطلعوا الى احتلال تونس ، وعملوا لذلك حتى احتلوا سنة ١٨٨١ م ، ثم احتلوا مراكش سنة ١٩١٢ م . كما احتلت ايطاليا طرابلس سنة ١٩١١ م . فتم بذلك اقتطاع شمال افريقيا وسلخه عن حكم الإسلام .

ولم يكتف الغربيون بذلك ، بل أكملوا الاستيلاء على البقية الباقية ، فقد استولت بريطانيا على الهند سياسياً سنة ١٨٥٧ م ، وانتقلت سلطة الحكم رسمياً من شركة الهند الشرقية التي تأسست سنة ١٦٠٠ م والتي انضمت الى شركة أخرى جديدة في سنة ١٦٨٩ م الى التاج البريطاني . وانتزعوا باستعمارهم لها سيادة المسلمين ، اذ كان المسلمون هم أصحاب السلطان في الهند منذ أيام دولة المغول التي قامت في مستهل القرن السادس عشر الميلادي . فانتزعها الإنجليز منهم واستعمروها وأخذوا يعملون على اضعاف موقف المسلمين فيها بوجه عام .

واستولت بريطانيا على عدن سنة ١٨٣٩ م ، وبسطت حمايتها على الحج والمحميات التسع من حدود اليمن الجنوبية الى شرق الجزيرة .

وفي سنة ١٨٨٢م استولت بريطانيا على مصر . وفي سنة ١٨٩٨م استولت على السودان . وفي سنة ١٩٠٧م أبرم اتفاق انجليزي روسي بقصد اجتناب كل سبب لعدم تفاهم الدولتين بشأن مصالحهما في فارس بأن حُدِدت على مقتضاه دائرة نفوذ لكل منهما ، فجعل الشمال في نفوذ روسيا والجنوب في نفوذ بريطانيا وهكذا حُصرت افغانستان تحت الضغط الانجليزي والروسي كما حُصرت ايران .

واشتدت حملة الغربيين في كل مكان على العالم الاسلامي ، حتى شعر جميعه بتعرضه للسقوط نهائياً تحت نير الغرب . وشعر ان الحملة الصليبية تجددت تحرز الانتصار تلو الانتصار . وصار يتشبث بأعمال لوقف هذا الزحف الغربي عند حده ، فحدثت حركات للمقاومة للغربيين في اكثر من مكان . فشبت ثورة في الجزائر ، وهب المسلمون في الصين ، وقام المهديون في السودان ، واشتعلت الثورة السنوسية . فكان كل ذلك دليلاً على الحيوية الكامنة في العالم الاسلامي رغم ركوده وضعفه .

ولم يقتصر الغرب على الاستيلاء على معظم العالم الاسلامي جزءاً جزءاً ، بل اخذ يعمل للقضاء على الدولة العثمانية باعتبارها الدولة الاسلامية التي تمثل المسلمين وترنو اليها ابصارهم ، فقد اقام في داخلها الحركات القومية كما قدمنا ، اذ اخذت الدول الاجنبية تحرض شعوب البلقان على الثورة منذ سنة ١٨٠٤م وتقدم لهذه الثورات ، حتى انتهت ثوراتهم بالاستقلال سنة ١٨٧٨م . كما حرضت هذه الدول اليونان على الثورة منذ سنة ١٨٢١م حتى انتهت ثورتهم بسبب تدخل الاجنبي باستقلال اليونان عن تركيا سنة ١٨٣٠م .

وتتابعت سائر بلاد البلقان حتى تقلص ظل الدولة العثمانية بوصفها دولة اسلامية عن البلقان وعن كريت وقبرص واكثر جزر البحر الابيض المتوسط . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل قام الغربيون بوسائلهم الخفية بتشجيع

الحركات الانفصالية عند المسلمين انقسم في داخل كيان الدولة بين الترك والعرب فشجعوا الحركات القومية ، وشجعوا بل ساعدوا على قيام الاحزاب السياسية التركية والعربية كحزب تركيا الفتاة ، وحزب الاستقلال العربي ، وحزب العهد ، وجمعية مصر الفتاة وغير ذلك ، مما جعل كيان الدولة داخليا في اضطراب واهتزاز ، فاخذ يمد تحت هذه الاحداث الداخلية مع الغزوات الخارجية .

ومما أن جاءت الحرب العالمية الاولى حتى وجد الكفر الممثل بالغرب حينئذ الفرصة مواتية ليوجه الحملة على العالم الإسلامي ، فيستولي على الباقي من بلاده ، ويقضي على الدولة الاسلامية ويبنيها من الوجود . فدخلت الدولة العثمانية ، على أيدي الاتحاديين ، الحرب العالمية الاولى التي أنتهت بانتصار الحلفاء وهزيمتها مع ألمانيا ، فتقسم الغربيون جميع البلاد التي تتكون منها الدولة العثمانية ، ولم تبق منها الا بلاد الترك التي صار يطلق عليها اسم (تركيا) . وبقيت بعد الحرب تحت رحمتهم منذ أنتهاء الحرب سنة ١٩١٨ م حتى سنة ١٩٢١ م حيث أستطاعت الاستقلال بعد تأمين اتاتورك للحلفاء القضاء على دولة الإسلام (١) .

وأبرمت بين بريطانيا وفرنسا في سنة ١٩١٦ م معاهدة سايكس بيكوه السرية وتقرر أنه عندما يحين وقت اقتسام الدولة العثمانية يجب وضع فلسطين تحت ادارة محلية . ودخل اللورد أللبي بيت المقدس سنة ١٩١٧ م وقال وهو يدخلها : (اليوم فقط انتهت الحروب الصليبية) . وهذا تعبير صادق عن حقد أصيل وبغض شديد في نفسه وفي نفوس الغرب كله وبخاصة بريطانيا العدو اللدود للاسلام والمسلمين . وصدق الله اذ يقول : (قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر) .

واعطى وعد بلفور لليهود في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ م .

وصارت العراق والاردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني .

(١) انظر الدولة الاسلامية : ص ١٥٨ - ١٦١ وموجز تاريخ الشرق الأوسط : ص ١٤٢ .

وصارت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .

وبعد هزيمة الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى التي دبرتها اليهودية العالمية على ايدي رجال الاتحاد والترقي هيات بريطانيا لعميلها مصطفى كمال انتصارات موهومة زائفة على الجيش اليوناني الذي تغلغل في الاناضول واحتل ازمير ، مما جعل الاتراك يلقبونه بعد ذلك « أتاتورك » أي أبو الاتراك . وكان هذا الرجل معروفاً بعدم ولائه للاسلام وحبه وشغفه بكل ما هو غربي . وبعد أن حشد قوى الاتراك باسم الاسلام خداعاً وتضليلاً في حرب التحرير شرع ينفذ الخطة المجرمة لهدم الخلافة وضرب وحدة المسلمين . ونفذ خطته على مراحل مثملاً فعل اليهود في فلسطين منذ أن كانت وعداً إلى أن صارت دولة ، ففي أول نوفمبر سنة ١٩٢٢ م ألغى أتاتورك السلطنة وأبقى الخلافة . وفي ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٢ م خلع وحيد الدين (محمد السادس) من الخلافة وبويع عبد المجيد بدلاً عنه . وفي أغسطس سنة ١٩٢٣ م أنشأ حزب الشعب الجمهوري وأغلب أقطابه من يهود الدونمة والماسون . وفي ٢٠ أكتوبر ١٩٢٣ م أعلنت الجمهورية التركية الحديثة وانتخبت الجمعية الوطنية ، تحت ظروف التهديد والقتل والوعيد ، مصطفى كمال رئيساً للجمهورية . ومنذ ذلك الوقت فإن معظم رؤساء الجمهورية في تركيا من يهود الدونمة مثلهم في ذلك مثل أتاتورك .

وفي ٢ مارس سنة ١٩٢٤ م ألغيت الخلافة . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن يعيش المسلمون لأول مرة في حياتهم بدون خلافة .

ولا نريد أن نتوسع في وصف جريمة أتاتورك . فهو من يهود الدونمة . وعندما ألغى الخلافة أعلن العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، وهذا من أهداف الماسونية . واضطهد علماء المسلمين ، وأغلق كثيراً من المساجد ، وألغى وزارة الاوقاف ، وألغى المحاكم الشرعية وألغى استعمال التقويم الهجري ، وشجع المرأة التركية والفتاة والشاب على الدعارة والفجور ،

واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية ، وفتح أبواب تركيا على مصراعيه لليهود وعلمائهم لتنظيم الجامعة التركية (١) .

وهكذا قضى مصطفى كمال على الدولة الإسلامية وحقق للكفار حلمهم الذي داعبهم منذ الحروب الصليبية .

ويلاحظ أن جميع البلاد التي كانت الدولة العثمانية تحكمها بوصفها دولة إسلامية قد وضعت لها عقب الحرب العالمية الأولى ميثاقاً وطنياً يتضمن نصاً واحداً هو استقلال الجزء الذي أراده الحلفاء أن يكون بلداً منفصلاً . فالعراق مثلاً وضعت ميثاقاً وطنياً يتضمن استقلال العراق وهكذا .

وقد تأثر المصريون بالكماليين « أنصار مصطفى كمال الملقب أتاتورك » في الانحراف عن الإسلام رغم نفور كثيرتهم منهم بعد إلغاء الخلافة . فحين كان الكماليون يتخذون الذئب (الأغبر) الأبيض ، وهو رمز أسلافهم الأقدمين من الوثنيين شعاراً لهم ويرسمونه على طوابع البريد ، كان المصريون يحذون حذوهم ويرسمون أبا الهول على أوراق العملة وعلى طوابع البريد . وحين جعل الكماليون حداً أدنى لسن الزواج في البنين والبنات اقتفى المصريون أثرهم في ذلك . وعندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها . وحين حمل مصطفى كمال نساء تركيا على السفور والاختلاط بالرجال ومراقبتهم احتدمت المعارك في مصر حول هذه الموضوعات في الصحافة والأندية . وحين ألزم مصطفى كمال الأتراك أن يلبسوا القبعة خاض بعض الكتاب المصريين في بحث ما سموه « مشكلة الأزياء » داعين إلى توحيدها ، ودعا بعض أفراد منهم إلى اتخاذ القبعة . وحين استبدلت تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربية أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه « مشكلة الخط العربي » (٢) .

(١) انظر الأفعى اليهودية في معادل الإسلام - ص ٨٩ - ٩٦ .

(٢) أنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ٢ / ٩١ وما بعدها .

وظهر كتابان في مصر لقاسم أمين أحد تلاميذ الشيخ محمد عبده الذي اقترن اسمه من بعد بلقب محرر المرأة وهما « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » . وقد طبع الكتاب الاول سنة ١٨٩٩ م ، وطبع الثاني سنة ١٩٠٠ م . وأثار ظهور الكتابين ضجة شديدة في ذلك الوقت وظلا موضع أخذ ورد في الصحف طوال نصف قرن .

أما كتاب « تحرير المرأة » فقد انصرف جهد المؤلف فيه الى التدليل على ما زعمه من أن حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الاسلام ، وان الدعوة الى السفور ليس فيها خروج على الدين او مخالفة لقواعده . بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني « المرأة الجديدة » فأقام بحثه فيه على الاحصاءات التي تدعمها الارقام والوقائع وتؤيدها آراء لبعض كتاب الغرب ومفكريه^(١)

ثم ظهرت محاولات عدة لإحياء الخلافة الاسلامية بعد ذلك . وكان من هذه المحاولات ايضاً محاولة الملك فؤاد الاول ملك مصر . وهذه المحاولة سببت الازمة بين السراي وحزب الاحرار الدستوريين في سنة ١٩٢٤م حين نشر احد رجال هذا الحزب وهو الشيخ علي عبد الرازق كتاب « الاسلام واصول الحكم » الذي نفى فيه وجود الخلافة كأساس من أسس الحكم الاسلامي . وكان نشر هذا الكتاب في سنة ١٩٢٥ م .

والشيخ علي عبد الرازق احد علماء الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية . وقد استعار الشيخ لدعواه من الدراسات الاسلامية للمستشرقين القساوسة الصليبيين واليهود الحاقدين ما لهم من آراء في هذا الجانب ، وما لهذه الدراسة من اصول تواضعوا عليها عند النظر الى الاسلام لا نتيجة لبحث نزيه ولكن انبثاقاً عن غرض خاص .

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر ١ / ٢٧٣ .

وقد صدر قرار إجماعي عن مجمع علماء الأزهر يتهم الشيخ باعتناق آراء مخالفة للشريعة ويخلعه ويعلن انه غير كفؤ للقيام بأية وظيفة دينية^(١).

ومن أخطر ما ظهر في هذه الفترة مما يدعو الى هدم التدين كتاب آثار ضجة هائلة في الصحف وفي المجلس النيابي هو كتاب « في الشعر الجاهلي » لطفه حسين الذي ظهر سنة ١٩٢٦ م بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الأولى في كلية الآداب خلال العام الدراسي المنصرم . وفي هذا الكتاب يشك صاحبه في وجود النثر الفني الجاهلي ، ويشك في وجود الشعر الجاهلي . واستخف بما قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وبنائه الكعبة بما لا يرتفع عنده أكبر من مرتبة الأساطير التي خلفها اليونان والرومان . والواقع أن منهجه فاسد من الناحية العقلية والمنطقية .

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أن المستشرقين والمبشرين دأبوا على إذاعة الأراجيف الباطلة حول اللغة الفصحى وقدرتها على الحياة لأداء متطلبات العصر الحديث في العلوم والفنون . وشهدت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر معركة عنيفة قادها عملاء اليهودية العالمية من أمثال ولكوكس ، وباول ، ويعقوب بن صنوع اليهودي لمهاربة الفصحى والترويج للعامية . وساعدهم في الحرب ضد العربية الفصحى نفر من أقطاب الفكر في مصر وسوريا منهم اسكندر المعلوف ، وسلامة موسى ، وعبد العزيز فهمي ، وأحمد لطفي السيد ، وسعيد عقل ، وأنيس فريجة ، ومارون غصن .

ونحن إذا تتبعنا تاريخ الصراع بين الفصحى والعامية في مصر لا نجد أثراً لهذا الصراع قبل ظهور الدعوة الأجنبية التي تادت باتخاذ العامية أداة للتعبير الأدبي . وكان في مصر من دعا الى ضبط العامية ، وكان فيها من استخدم العامية فعلاً في الكتابة ، ولكن لم يكن هدفهم من ضبط العامية او استخدامها

(١) انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ص ٢٤٠ ، والدولة العثمانية والشرق العربي ص ١١٥ .

رفع العامية الى استعمال الكتابي حتى تتمكن من القضاء على الفصحى واحتلال مكانها كما كان يهدف دعاة العامية من الأجانب ، وإنما كان هدفهم من ذلك هو استخدام العامية في مواضع مخصوصة للترفيه عن العامة حيناً أو لتثقيفهم وتهذيبهم حيناً آخر، على أن تظل للفصحى مكانتها كلغة للأدب الرفيع والثقافة الإسلامية عامة ، كما يتضح ذلك من دراسة أفكارهم إزاء العامية وآثارهم المدونة بالعامية (١) .

وقد اهتم الأجانب بدراسة اللهجات العربية العامية منذ القرن التاسع عشر . وكان لهذا الاهتمام مظاهره :

- ١ - إدخالهم تدريس اللهجات العامية في مدارسهم وجامعاتهم في إيطاليا وفي النمسا وفي فرنسا وفي روسيا وفي ألمانيا وفي المجر وإنجلترا .
- ٢ - اهتمامهم بالتأليف في اللهجات العامية .

وهذا الاهتمام بدراسة اللهجات العربية المحلية لم يكن من أجل البحث العلمي كما يزعمون ، ولا من أجل حاجتهم الى معرفة لهجات البلاد العربية التي تقتضي مصالحهم أن يعيشوا فيها ويتعاملوا مع أهلها، وإنما من أجل القضاء على العربية الفصحى وإحلال العامية محلها .

ويُعتبر الدكتور ولهم سبيتا الألماني الجنس الرائد الأول لكل من كتب في العامية المصرية من الأجانب . وفي هذا الكتاب وضع أول اقتراح لاتخاذ الحروف اللاتينية لكتابة العامية ، تلك الحروف التي نودي باستخدامها فيما بعد ... لكتابة العربية الفصحى .

وقام وليم ولكوكس مهندس الري الانجليزي في مصر بعدة محاولات لإدخال العامية في نماذج أدبية رفيعة وعلمية لكي يشجع المصريين على مجاراته في هذه التجارب ، فتمكن العامية بذلك من اقتحام الميدان العلمي والأدبي،

(١) أنظر تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها في مصر ، ص ٧٥

وتصبح لها أهمية قد تساعد - كما يأمل - في سرعة القضاء على العربية الفصحى .

وهناك فريق رأى أن العيب والصعوبة في النحو نفسه . وتتلخص آراء هذا الفريق على اختلاف معاولها في الهدم في :

إلغاء الإعراب بتسكين أواخر الكلمات . وهو رأي قاسم أمين ومؤيديه مثل سلامة موسى ، وأنيس فريجة الذي يعدّ الإعراب زخرفاً من بقايا العقلية القديمة في اللغة .

وأخطر هؤلاء الهدامين المنهزمين روحياً وفكرياً عبدالعزیز فهمي أحد شيوخ جمع اللغة العربية بالقاهرة ، وذلك في الاقتراح الذي قدمه الى الجمع في جلسة ١٩٤٣/٥/٣ بشأن تيسير الكتابة العربية ، والذي دعا فيه الى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية أسوة بما فعله أتاتورك في تركيا . ولم يناصر دعوته إلا أقلية ممن 'عرفوا بعدائهم للعربية الفصحى . فكانت هذه الدعوة بمثابة متنفس جديد لعدائهم للعربية (١) .

وأضحى التعليم منذ مطلع القرن العشرين تقريباً في المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية لا يرتبط ارتباطاً صحيحاً بالإسلام ، وإنما صار علمانياً يعتمد على فصل الدين عن الحياة ، ونسخة صادقة لما أراده ونشره المبشر اليهودي دنلوب الذي خطط لمناهج التعليم في مصر ليكون ذلك انموذجاً يحتذى في كثير من بلاد الإسلام . وصار الطالب عند تخرجه يعرف عن نابليون وعصر النهضة الأوروبية والحرب الأهلية الأمريكية أكثر مما يعرف عن نظام الإسلام وتاريخ المسلمين وتاريخ دولتهم التي كانت الدولة الأولى في العالم خلال قرون غير قليلة .

وأنا أذهب مع الأستاذ محمد المبارك في تصوره أن الإسلام في هذا العصر مر في مراحل كان أولها ما يمكن أن نعنونه بعنوان :

(١) أنظر تاريخ الدعوة الى العامة وآثارها في مصر. ص ٢٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ .

٥٥ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ٢٠١ .

١ - الإسلام في قفص الاتهام . فقد وقف دعاة الإسلام في القرن الماضي يدافعون عن الاسلام على أنه متهم في قفص . فالاسلام كما يقولون : « ليس منافياً للرقى ولا مانعاً من التقدم ولا معارضاً للعلم والعقل » . فكأن الاسلام مجرم يراد أن يُدافع عنه . وهذا ما يلاحظ في المؤلفات الاسلامية التي ألفها دعاة الاسلام منذ قرن في كتابات محمد عبده وفريد وجدي وأقرانها .

٢ - ثم جاء عهد آخر خرج الاسلام فيه من قفص الاتهام ، ولكنه أصبح يقاس بمقاييس غيره أو يقوم بقيم غير قيمه . فالاسلام صالح لأنه مبني على الديمقراطية ، والاسلام يستحق البقاء والخلود لأنه متطور .

والاسلام حسن لأن فيه كذا وكذا من الافكار . وهذه الافكار والمبادئ والقيم والمقاييس انما استعيرت من مذاهب أخرى ، فكأن الاصل أننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج إطار الاسلام ، ثم نحاول بعد ذلك أن نقوّم الاسلام بهذه القيم التي نستعيرها من تلك المذاهب على انها قيمٌ مُسَلَّمٌ بها وعلى انها منبثقة عن مذاهب نؤمن بها . هذا طورٌ ثانٍ مرّ به الاسلام . ولا يزال الاسلام في هذا العصر اللهم الا بعض طلائع الوعي في بعض البلاد الاسلامية ، في هذا الطور الذي يقاس فيه بمقاييس غيره .

٣ - والمرحلة الثالثة ، وهي المرحلة التي بدأت طلائعها هي مرحلة الذاتية بالنسبة للاسلام ، فالاسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية - فهو ليس صالحاً لأنه موافق للديموقراطية أو للأشترابية أو للرأسمالية أو لأن فيه حرية فردية أو لأن فيه مصلحة الجماعة أو لأن فيه كذا كذا إلى غير ذلك من المفاهيم المنبثقة عن مذاهب أخرى . إن للإسلام مقاييسه في الخير والشر والحق والباطل . ولا نعني ان هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد اليها ، ولكنها جذور ممتدة من دوحتها وفروع مشتقة من اصل شجرتها . تلك هي المرحلة التي بدأت في العصر الحاضر أو بدأت طلائعها في عدد من المؤلفات القليلة وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الاسلامي ، وهي

المرحلة التي يتنبأ الاستاذ محمد المبارك بأنها ستكون مرحلة الاسلام في المستقبل القريب (١) .

ما تقدم نستطيع أن نقول إن أحوال المسلمين كانت تسير نحو التدهور والانحطاط الفكري وبخاصة في القرن التاسع عشر واولائل القرن العشرين . ويقابل ذلك نهوض عند الغرب الصليبي وتقدم علمي سريع واختراعات وثورة صناعية . وتبع ذلك هجوم الدول الاستعمارية على بلاد المسلمين والاستيلاء عليها جزءاً جزءاً في اكثر من قرن .

واختلط الامر على المسلمين وزاغت ابصارهم لما رأوا تنظيم الغرب وصناعاته واختراعاته . فلم يُفرقوا بين التقدم العلمي في الغرب وبين افكاره وانظمته وحضارته التي تقوم على فصل الدين عن الحياة . فالعلم عام يؤخذ من اية جهة ، أما الفكر والنظام والحضارة فهي خاصة .

ولا يغيب عن الازهان أن إلغاء ائتاتورك للخلافة الإسلامية في سنة ١٩٢٤م وذهول المسلمين وحيرتهم إزاء هذا العمل دون ان يفعلوا شيئاً هو دليل واضح على انحطاط المسلمين فكرياً وتدهور اوضاعهم سياسياً واجتماعياً . لان إلغاء الخلافة قضية مصيرية تستحق ان يتحرك المسلمون لإعادتها وسحق المجرمين الذين دبروا إلغائها ولو أدى ذلك الى قتل الملايين من المسلمين ليكونوا شهداء في سبيل الله .

هذه الخلافة الإسلامية التي كانت تحتضنها استانبول دوخت الغرب الصليبي قروناً طويلة وكانت شوكة في حلوقهم . حتى قضى عليها واحد يزعم أنه تركي مسلم دون أن يتحرك المسلمون تحركاً يستحق الذكر .

وزالت بذلك عظمة استانبول وشموخها ووزنها السياسي . وأضحت مدينة خلاء تسيرها حفنة من عملاء اليهودية العالمية والماسونية .

(١) الفكر الاسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية : ص ٥١ وما بعدها .

وبقيت معظم البلاد الاسلامية حتى منتصف القرن العشرين تقريبا ترواح تحت كابوس المستعمرين ، إذ خرج من معظمها يحيوشه ، ولكنه أبقى خلفاً له فيها أفكاره وأنظمته ومقاييسه في الحياة .

ومن الطبيعي والحالة هذه أن يرتد المسلمون الى قرائهم الأصيل وحضارتهم العريقة يستمدون منها الرؤية الصحيحة التي تدلهم على الخلاص مما هم فيه والسير في طريق النهوض والتقدم .

وكان ارتدادهم الى القرآن الكريم كتاب الاسلام الذي فيه عصمتهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة . وعندما ارتدوا الى القرآن هذه المرة لم يكونوا كاسلافهم الذين واجهوا التحدي الصليبي والمغولي . لأن غشاوة أوجدها الغرب الصليبي منعت أبصارهم وبصائرهم من الرؤية الصحيحة لطريق الخلاص والنهوض ، ففرغت بهم السبل وذهبوا كل مذهب .

وقد كانت عناية المسلمين عظيمة بكتاب الاسلام ، القرآن الكريم . بحيث لا نجد كتاباً آخر غير القرآن اعتنت به أمة أو شعب مثل اعتناء المسلمين بتفسير القرآن وتأويله .

والتفسير التي خلّفها المسلمون كثيرة . وقد تكفي هذه التفسير وتسد حاجة المسلمين الى فهم كتاب الله تعالى : ولكن المسلمين بعامة يجدون بعض الصعوبة في فهم هذه التفسير التي يختلف أسلوب مفسريها بعض الشيء عن أسلوب هذا العصر بحيث لا يستيفها تماماً الا ذوو الاختصاص . وتفسير القرآن فرض كفاية وليس فرض عين .

واذا كان ذلك كذلك فقد قام بعض المسلمين من العلماء بتفسير القرآن الكريم . وسار هؤلاء المفسرون في اتجاهات بسبب العصر الهابط الذي يعيشونه . وهذا أمر ليس غريباً . لان الثقافة والمفاهيم الغربية عن الحياة وذهول المسلمين من التقدم العلمي في الغرب كان له الاثر في تشعب اتجاهات المفسرين وطرائقهم في تفسير كتاب الله تعالى .

ولاول مرة في تاريخ المسلمين نرى انظمة وافكاراً وثقافة غير اسلامية
تتسرب الى ديار الاسلام اولاً في هدم وتدرج ، ثم لا تلبث ان تفرض
فرضاً على المسلمين بقوة السلاح وبدعم الجيوش الجرارة .

وليس غريباً ان يكون من بين اتجاهات المفسرين اتجاه سلفي يرتبط
بالقديم ويعد استمراراً له .

وهناك اتجاه عقلي توفيقى يوفق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .
وظهر اتجاه علمي في التفسير كانت له جذور قديمة . ولكن اصحابه توسعوا
فيه ، وكان هدفهم اثبات صلاحية الاسلام في كل زمان ومكان ، ولذلك
اخضعوا آيات القرآن الكريم ، لقواعد العلم ونظرياته .

وهناك اتجاهات أخرى للتفسير سوف نتحدث عنها في الجزء الثاني من
هذا البحث .

الفصل الأول

اتجاه سلفي

هذا الاتجاه في التفسير ليس جديداً كما قلنا آنفاً . وهو قديم يرتد الى السلف الصالح من المفسرين القدامى . وظل هذا الاتجاه خلال رحلته الطويلة عبر القرون يحمل صورة التفسير القرآني الجادّ والأصيل الذي تهفو اليه أفئدة جمهرة المسلمين في شتى الأمصار الاسلامية .

ولقد اخترت ثلاثة تفاسير مشهورة تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً إن لم يكن دقيقاً فهو قريب من الدقة .

وأول هذه التفاسير : محاسن التأويل للقاسمي .

وثانيها : التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة .

وثالثها : التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب .

وسنقوم في الصفحات التالية بتقديم صورة واضحة لهذه التفاسير .

١ - محاسن التأويل : مؤلف هذا التفسير الشيخ محمد جمال الدين القاسمي

الدمشقي المولود سنة ١٨٦٦ م والمتوفى سنة ١٩١٤ م = ١٣٣٢ هـ .

طالع المؤلف كثيراً من مصنفات المحدثين والأصوليين والفقهاء والصوفية

والمتكلمين والأدباء من المتقدمين والمتأخرين .

وكان القاسمي يتحرى مذهب السلف في الدين وينصره في دروسه ومصنفاته، وما مذهب السلف إلا العمل بالكتاب والسنة بلا زيادة ولا نقصان. وكان يتحرى في المسائل الخلافية الاعتدال. والإنصاف واتباع ما يقوم عليه الدليل من غير تشنيع على المخالف ولا تحامل.

ونشأ في بيت عرف بالتقوى والعلم. وكان أبوه فقيهاً غلب عليه الأدب وأخذت الآفاق تتسع أمامه فعكف على مكتبته الخاصة التي أسسها جده وأبوه ينهل من معينها. وهذه المكتبة تشتمل على التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والأصول والاجتماع والرياضيات والقانون المقارن والفلسفة القديمة والحديثة وكتب الفرق الإسلامية وكتب الديانات الأخرى. وكان يدعو إلى فتح باب الاجتهاد وإلى إيجاد معامل الأسلحة في البلاد الإسلامية.

وقد خلف المؤلف زهاء مئة مصنف أو أكثر ولم يبلغ الخمسين من عمره. وكان الكتاب في العصر الذي عاش فيه القاسمي يعتبرون السجع المثل الأعلى في الإنشاء. وكانت مقامات الحريري القدوة التي يحتذيها الكتاب فيما يكتبون، وقد درجوا على تحفيظها للطلاب لتنمية ملكة الأدبية. ثم شاعت طريقة الترسل، وكان الشيخ محمد عبده من الذين استعملوها ودعوا إلى نشرها. وكان القاسمي معجباً بالأستاذ محمد عبده، فعدل عن السجع إلى الترسل في أكثر ما كتب بعد تعرفه عليه عام ١٩٠٤م.

وتفسير القاسمي «محاسن التأويل» يقع في سبعة عشر جزءاً. وقد نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة وحققه محمد بهجة البيطار عضو المجتمع العلمي العربي.

ومهد المؤلف لتفسيره بأن جعل الجزء الأول خاصاً بمقدمة مشتملة على قواعد التفسير ليكون هذا الجزء مفتاحاً لهذا التفسير. ولنستمع إليه إذ يقول: «وبعد أن صرفت في الكشف عن حقائقه شطراً من

عمري ، ووقفتُ على الفحص عن دقائقه قدراً من دهري . أردت أن انخرط في سلك مفسريه الأكابر ، قبل أن تبلى السرائر وتقنى العناصر . وأكون بخدمته موسوماً ، وفي حملته منظوماً . فشجذت كليل العزم ، وأيقظت نائم الهمم . واستخرت الله تعالى في تقرير قواعده ، وتفسير مقاصده ، في كتاب اسمه بعون الله الجليل : « محاسن التأويل » ، أودعه ما جفا من التحقيقات ، وأوشحه بمباحث هي المهمات ، وأوضح فيه خزائن الأسرار ، وأنقد فيه نتائج الأفكار ، وأسوق إليه فوائد التقطتها من تفاسير السلف الغابر ، وفرائد عثرت عليها في غضون الدفاتر ، وزوائد استنطبتها بفكري القاصر ، مما قادني الدليل إليه ، وقوي اعتمادي عليه .

هذا وقد حليت طبيعته بتمهيد خطير في مصطلح التفسير . وهي قواعد فائقة ، وفوائد شائقة ، جعلتها مفتاحاً لمغلق بابيه ، ومسلكاً لتسهيل خوض عبابه ، تعين المفسر على حقائقه ، وتطلعه على بعض أسرارهِ ودقائقهِ ، ^(١) . وفي مقدمة تفسيره يعقد فصلاً في ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه . وهذا الفصل ينقله عن مقدمة التفسير الذي شرع فيه في هذا العهد مفتي مصر الشيخ محمد عبده . وهذا الفصل يقع في عشر صفحات ^(٢) .

وفي هذه المقدمة نراه ينقل كثيراً عن الشاطبي ، وابن تيمية ، والعز بن عبد السلام ، والشيخ ولي الله الدهلوي ، وأبي عمرو الداني ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وابن حزم . ويستشهد بأحاديث الرسول عليه السلام التي أخرجها البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

ويبدو أن القاسمي كان متأثراً بالنزعة العلمية في تفسيره ، فقد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم . وقد صرح بأنه نقل ذلك عن بعض علماء الفلك ^(٣) .

(١) محاسن التأويل - انقدمة - : ١ / ٥ وما بعدها .

(٢) انظر محاسن التأويل المقدمة . ١ / ٣٢٢

(٣) أنظر محاسن التأويل ، المقدمة : ١ / ٣٣٢

ونراه يورد أقوال المفسرين القدامى وينقل عن تفاسيرهم . فهو ينقل عن تفسير ابن جرير الطبري ، والزنجشري ، والراغب الأصفهاني ، والفخر الرازي ، وابن كثير الدمشقي ، وابن القيم ، وأبي حيان الأندلسي ، وابن عطية الأندلسي ، والقرطبي ، والبيضاوي ، وأبي السعود ، وبعض مفسري الزيدية ، وبرهان الدين البقاعي ثم الدمشقي ، والشيخ محمد عبده . والقاسمي يكاد ينقل في مواضع كثيرة من تفسيره ما ورد في تفسير ابن كثير الدمشقي حرفياً .

ونجده يورد أقوال كثير من العلماء في تفسيره مثل الشافعي ، وابن سعد ، والفرّاء صاحب معاني القرآن ، والقاضي عبد الجبار ، وابن حزم ، والشهرستاني ، والمكبري ، وابن المنير الاسكندري ، وعزالدين محمد بن عبد السلام ، وابن حجر العسقلاني ، وابن تيمية ، وابن القيم ، والسيوطي ، والحرالي .

والقاسمي من علماء الحديث . وله كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » . وقد نشرته دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٩٦١ م ولذلك لا تكاد تخلو صفحة من صفحات « محاسن التأويل » من حديث نبوي يدعم به تفسيره . ولذلك نراه يستشهد بالأحاديث التي أخرجها البخاري ومسلم وابن حنبل ومالك بن أنس وابن حبان والترمذي وغيرهم من أصحاب المجاميع الحديثية .

وكان القاسمي يرجع الى صحاح الجوهري والقاموس المحيط وشرحه عندما يفسر كلمة أو عبارة قرآنية ، يقول: (الرحمن الرحيم) قال الجوهري : هما اسمان مشتقان من الرحمة ، ونظيرهما في اللغة « نديم وندمان » . وهما بمعنى . ويجوز تكرير الإسمين إذا اختلف اشتقاقهما على جهة التوكيد ، كما يقال جاد مجد ، إلا أن (الرحمن) اسم مخصص بالله لا يجوز أن يسمى به غيره . ألا ترى أنه قال : (قل أدعوا الله أو أدعوا الرحمن) فعادل به الاسم الذي لا يشركه فيه غيره ! (١)

(١) محاسن التأويل : ٥/٢ .

ويقدم لنا تعليق الشيخ محمد عبده على كون (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد ، يقول : « وقد ناقش في كون (الرحمن الرحيم) بمعنى واحد ، الشيخ محمد عبده المصري في بعض مباحثه التفسيرية قائلاً : إن ذلك غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها - ثم قال : وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول في نفسه أو بلسانه : إن في القرآن كلمة جاءت لتأكيد غيرها ولا معنى لها في نفسها ، بل ليس في القرآن حرف جاء لغير معنى مقصود . والجمهور : على أن معنى الرحمن : المنعم بجلال المنعم ، ومعنى الرحيم : المنعم بدقائقها . وبعضهم يقول : إن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم ؛ والرحيم : المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين ^(١) » .

ويُعنى القاسمي بالقراءات المتواترة ، فهو يقول : « القول في تأويل قوله تعالى (مالك يوم الدين) : قرأ عاصم والكسائي بإثبات ألف (مالك) والباقون بحذفها . قال الزمخشري : ورجعت قراءة « مَلِك » لأنها قراءة أهل الحرمين ، وهم أولى الناس بأن يقرأوا القرآن غصاً طرياً كما أنزل ، وقراءتهم الأعلون رواية وفصاحة . ولقوله تعالى : (لمن المَلِكُ اليوم) ، فقد وصف ذاته بأن الملك يوم القيامة . والقرآن يتعاضد بعضه ببعض ، وتتناسب معانيه في المواد وثمة مرجحات أخرى ^(٢) » .

ولأن القاسمي ذو علم عريض بالحديث ومصطلحه نراه يدعم ما يذهب إليه من فهم للقرآن بأحاديث عن الرسول عليه السلام ، إذ يقول : « فالعبادة أنواع وأصناف ، ولا يتم الايمان الا بتوحيدها كلها لله سبحانه . وقد بينت السنة أن الدعاء هو العبادة . أي ركنها المهم الأعظم . وأصله من التنزيل الكريم قوله تعالى : (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) فسماه عبادة . وفي الخبر :

(١) المرجع السابق : ٥/٢ .

(٢) المرجع السابق : ٩/٢ .

(الشريك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل) . ونصه عن أبي موسى الأشعري قال : خطبنا رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال : (أيها الناس : اتقوا هذا الشريك ، فإنه أخفى من دبيب النمل . فقال له من شاء أن يقول : وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله ؟ قال : قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم ^(١) » .

والقاسمي في أثناء تفسيره اذا وجد أمراً فيه لبس واختلاط فإنه ينبّه اليه ويحيل على الموضع الذي ذكر فيه تأويل جملة قرآنية ، يقول : « القول في تأويل قوله تعالى » : (وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون) ... تنبيه : كثيراً ما يستدل مجادلة أهل الكتاب على عدم تحريف كتبهم بهذه الآية وأمثالها كآية (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) وآية (ولكن تصديق الذي بين يديه) وغيرها . مع أنه ثبت بالبراهين القاطعة ذهاب قدر كبير من كتبهم ، واختلاط حقها بباطلها فيما بقي ، كما صنف في ذلك مصنفات عدة . وقد رد استدلالهم بهذه الآية وأمثالها على ما ادعوه ، بأن معنى كون القرآن مصداقاً لما معهم ، ما ذكرناه قبل في تأويلها ^(٢) .

والقاسمي ينصر مذهب أهل السنة . ولذلك نجده يورد أقوال المعتزلة ويرد عليها . ولنستمع اليه حين يورد قول المعتزلة في أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ويفند زعمهم هذا بأقوال صاحب الانتصاف ابن المنير الاسكندراني ، يقول القاسمي : « القول في تأويل قوله تعالى (واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) ^(٣) : تنبيه : تمسكت المعتزلة بهذه الآية على أن الشفاعة لا تقبل للعصاة ، لأنه نفى

(١) محاسن التأويل : ٢ / ١٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ٢ / ١١٥ وما بعدها .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٤٨

أن تقضي نفس عن نفس حقاً أخلت به من فعل أو ترك ، ثم نفى أن يقبل منها شفاعته شفيح . فعلم أنها لا تقبل للعصاة . والجواب : أنها خاصة بالكفار . ويؤيده أن الخطاب معهم كما قال : (فما تنفعهم شفاعتنا الشافعين) ، وكما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) . فمعنى الآية أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعته ، ولا ينقذ أحداً من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد . وفي الانتصاف : من جحد الشفاعته فهو جدير ألا ينالها . وأما من آمن بها وصدقها ، وهم أهل السنة والجماعة ، فأولئك يرجون رحمة الله . ومعتقدهم أنها تنال العصاة من المؤمنين ، وإنما أدخرت لهم . وليس في الآية دليل لمنكرها ، (١) .

وها هوذا ينصر مذهب أهل السنة في جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة ويرد على المعتزلة الذين ينكرون ذلك ، فيقول : « القول في تأويل قوله تعالى : (وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) (٢) »

دلت الآية على أن طلب رؤيته تعالى في الدنيا مستنكر غير جائز ، ولذا لم يذكر ، سبحانه وتعالى ، سؤال الرؤية إلا أستعظمه . وذلك في آيات منها هذه . ومنها قوله تعالى : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ... الآية) . ومنها قوله تعالى : (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) . فدلت هذه التهديدات الفظيعة الواردة لطالبيها في الدنيا على امتناعها فيها . وكما أخبر تعالى بأنه لا يرى في الدنيا فقد وعد الوعد الصادق عز وجل برؤيته في الدار الآخرة في آيات عديدة ، كما تواترت الأحاديث

(١) محاسن التأويل . ٢ / ١٢١

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٥

الصحيحة بذلك ، وهي قطعية الدلالة . لا ينبغي لمنصف أن يتمسك في مقابلها بتلك القواعد الكلامية التي جاء بها قدماء المعتزلة وزعموا ان العقل قد حكم بها ، (١) .

والقاسمي لانه عني بالنقل عن مفسري السلف فلامفر له من ذكر الاسرائيليات في تفسيره ، يقول في تأويل قوله تعالى : وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم (٢)

« هذه الآية بيان لكيفية وقوع العفو المذكور في الآية قبل . روي ان موسى عليه السلام لما رجع من الميقات ورأى ما صنع قومه بعده من عبادة العجل ، غضب ورمى باللوحين من يده . فكسرها في أسفل الجبل . ثم أحرق العجل الذي صنعوه ، ثم قال : من كان من حزب الرب فليقبل إلي . فاجتمع إليه جميع بني لاوي . وقال لهم : هذا ما يقوله الرب إله إسرائيل : ليتقلد كل رجل منكم سيفه ، فجوزوا من وسط المحلة من باب إلى باب وارجعوا . وليقتل الرجل منكم أخاه وصاحبه وقريبه . فصنع بنو لاوي كما أمرهم موسى فقتلوا في ذلك اليوم من الشعب نحو ثلاثة وعشرين ألف رجل (وفي رواية نحو ثلاثة آلاف رجل) . وفي غد ذلك اليوم كلم موسى الشعب وقال لهم : أنتم قد أخطأتم خطيئة عظيمة . وإني الآن أصعد إلى الرب فأتضرع إليه من أجل خطيئتكم . فصعد موسى وتضرع للرب وسأل المغفرة لقومه » (٣) .

ولا يغيب عن البال أن القاسمي بدأ هذه الرواية بلفظة « روي » المبني للمجهول إشعاراً منه بضعفها .

والقاسمي إذ ينقل الاسرائيليات عن تفاسير السلف إلا أنه لا يقف منها

(١) محاسن التأويل . ٢ / ١٣٠

(٢) سورة البقرة ، الآية ٥٤

(٣) محاسن التأويل : ١٢٧ / ٢ .

كحاطب ليل ، فنراه يضعفها وينبه الى فسادها وغلطها مستفيداً من أقوال ابن كثير الدمشقي فيها ، يقول في تأويل قوله تعالى : (واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا .. الآية) (١) : « وقد غلط أهل الكتاب في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل ، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه ، فكيف يناله هؤلاء السبعون ! أفاده ابن كثير . وقد رأيت دعواهم المذكورة في الفصل الرابع والعشرين في سفر الخروج . وهذا من المواضع المحقق تحريفها . ويدل عليه ما في الفصل الثالث والثلاثين من السفر المذكور أنه تعالى قال لموسى : لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش » (٢) .

ويلوم المفسرين الذين أوردوا روايات مختلفة في قصة البقرة وصاحبها لأنه لا يتعلق به كبير فائدة ولم يرو بسند صحيح الى النبي عليه السلام ، يقول : « وقد ذكر أكثر المفسرين قصة البقرة وصاحبها بروايات مختلفة لم نورد شيئاً منها لأنه لم يرو بسند صحيح إلى النبي ﷺ ، ولا يتعلق به كبير فائدة . كما أن البعض من البقرة لم يحىء من طريق صحيح عن معصوم بيانه . فنحن نبههم كما أهبهم الله تعالى ، إذ ليس في تعيينه لنا فائدة دينية ولا دُنيوية ، وإن كان معيناً في نفس الامر . وأياً كان فالمعجزة حاصلة به » (٣) .

والقاسمي في نقله عن مفسري السلف كان لا يلغي شخصيته ومواقفه ، بل نجده ينقد بعض المفسرين ويضعف تأويلهم واجتهاداتهم في تفسير لفظة أوجلة قرآنية على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزرحه من العذاب أن يُعمرَ والله بصير بما يعملون) (٤) : وما ذكره بعض المفسرين

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٥ .

(٢) محاسن التأويل ، ١٢٨/٢ .

(٣) محاسن التأويل ، ١٥٨/٢ .

(٤) سورة البقرة ، الآية ٩٦ .

من أن البصير في اللغة بمعنى العليم لا يخفى فساد ، فإن العليم والبصير إسمان متباينان المعنى لغة . نعم ! لو حمل أحدهما على الآخر مجازاً لم يبعد ، ولا ضرورة إليه هنا ، ^(١) . ومن مثل ذلك قوله في تأويل قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ^(٢)) : « تنبيه : خص من ذلك مقدار أجر المثل عند كون الولي فقيراً لقوله تعالى : (ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) ، كذا قاله البيضاوي وتابعه أبو السعود . وعندي أنه لا حاجة إلى تخصيص هذا النهي بالفقير في هذه الآية لأنها في الغني ، لقوله (إلى أموالكم) فلا يشمل مساقها الفقير ، ^(٣) .

وفي صفات الله يستصوب القاسمي ما عليه أئمة السلف أهل العلم والإيمان وينصر موقفهم منها ، إذ يقول : « والصواب ما عليه أئمة الهدى ، وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث ويتبع في ذلك سبل السلف الماضين ، أهل العلم والإيمان . والمعاني المفهومة من الكتاب والسنة لا ترد بالشبهات فتكون من باب تحريف الكلم عن مواضعه ، ولا يعرض عنها ، فيكون من باب الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . ولا يترك تدبر القرآن ، فيكون من باب الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني » ^(٤) .

ومن الواضح لكل من يقرأ محاسن التأويل أن القاسمي متأثر بمفترين أشد التأثير . الأول ابن كثير الدمشقي ، والثاني الشيخ محمد عبده الذي كان يلقبه الاستاذ الحكيم . ونتيجة لتأثره بهذين فإن عبارته تتصف بالسهولة والإيجاز .

(١) محاسن التأويل ، ٢ / ١٩٧ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٢ .

(٣) محاسن التأويل - ٥ / ١١٠٢ .

(٤) محاسن التأويل ، ٤ / ٧٧٧ .

وكان معجباً بابن تيمية الحرّاني شيخ ابن كثير الدمشقي الحافظ المفسر المؤرخ . وفي مواضع كثيرة من تفسير القاسمي نراه يستشهد بأقوال ابن تيمية ويذكر اسم الكتاب الذي نقل منه على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ... الآية) (١) : « تنبيه : للعلماء في المحكم والمتشابه أقوال كثيرة ، ومباحث واسعة . وأبدع ما رأيته في تحرير هذا المقام مقالة سابعة الذيل لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية عليه الرحمة والرضوان . يقول في خلاها : « المحكم في القرآن تارة يقابل بالمتشابه والجميع من آيات الله ، وتارة يُقابل بما نسخه الله مما ألقاه الشيطان ، ومن الناس من يجعله مقابلاً لما نسخه الله مطلقاً ، حتى يقول هذه الآية محكمة ليست منسوخة ، ويجعل المنسوخ ليس محكماً ، وإن كان الله أنزله أولاً اتباعاً للظاهر من قوله : (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته) . فهذه ثلاث معانٍ تقابل المحكم ، ينبغي التفطن لها » (٢) .

ولم يهمل صاحبنا الناحية الإعرابية للجمل القرآنية . وهو في ذلك يورد أقوال النحاة والذين كتبوا في إعراب القرآن على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .. الآية) (٣) . « وفي رفع (شهر) وجهان : أحدهما أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هي شهر ، يعني الأيام المعدودات . فعلى هذا يكون قوله (الذي أنزل) نعتاً للشهر أو لرمضان . والثاني هو مبتدأ ، ثم في الخبر وجهان : أحدهما : (الذي أنزل) ، والثاني : إن (الذي أنزل) صفة ؛ والخبر هو الجملة التي هي قوله (فمن شهد) . فإن قيل : لو كان خبراً لم يكن فيه الفاء لأن (شهر رمضان) لا يشبه الشرط ! قيل : الفاء - على

(١) سورة آل عمران ، الآية ٧ .

(٢) محاسن التأويل ٤٠ / ٧٥٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

قول الاخفش - زائدة ، وعلى قول غيره ليست زائدة ، وإنما دخلت لأنك وصفت الشهر بـ (الذي) ، فدخلت الفاء كما تدخل في خبر نفس (الذي) ومثله (قل إن الموت الذي تفرثون منه فإنه ملاقيكم) ، فإن قيل : فأين الضمير العائد على المبتدأ من الجملة ؟ قيل : وضع الظاهر موضعه تفخيماً أي : فمن شهد منكم . كذا في إعراب القرآن للعكبري ، (١) .

ولم ينس القاسمي المجتمع الذي عاش فيه ، فقد نقد أحوال وأوضاع أهل عصره من أولئك الذين يفعلون البدع مثل الأذكار المحدثه والسماعات المبتدعة ، سماع الكف والدف . وهو في ذلك متأثر بموقف ابن تيمية الحراني الحنبلي (٢) .

وخاض القاسمي في آيات الاحكام ، فكان يعقد الأبحاث ليناقش ذهاب قوم إلى جواز مسألة أو منعها معتمداً في ذلك على اجتهاده الشخصي وعلى أقوال المفسرين القدماء . معلياً شأن سنة الرسول عليه السلام في كل الأحوال . وإذا اعتمد من يناقشهم على حديث غير صحيح في دعواهم فإنه يورد أقوال العلماء التي تظهر ضعف الحديث وعلمته على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . . الآية) (٣) :

بحث خليل : قال الرازي : ذهب قوم سدي (كحقي : موضع قرب زبيد باليمن أه قاموس) إلى أنه يجوز التزوج بأي عدد أريد . واحتجوا بالقرآن والخبر . أما القرآن فقد تمسكوا بهذه الآية من ثلاثة أوجه : الأول - أن قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) ، إطلاق في جميع الأعداد . والثاني - أن قوله مثنى وثلاث ورباع لا يصلح تخصيصاً لذلك العموم ، لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينفي ثبوت الحكم في الباقي . الثالث - أن

(١) محاسن التأويل ، ٣ / ٤٢٤ وما بعدها .

(٢) انظر محاسن التأويل ، ٣١٢/٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٣ .

الواو للجمع المطلق ؛ فقوله مثنى وثلاث ورباع يفيد حل هذا المجموع . وهو يفيد تسعة . بل الحق أنه يفيد ثمانية عشر ، لأن قوله : مثنى ليس عبارة عن اثنين فقط ، بل اثنين اثنين . وكذا القول في البقية . وأما الخبر فمن وجهين : الأول - أنه ثبت بالتواتر أنه عليه السلام مات عن تسع . ثم إن الله تعالى أمرنا باتباعه فقال : فاتبعوه ، وأقل مراتب الأمر الإباحة . الثاني : أن سنة الرجل طريقته . وكان الزوج بالأكثر من الأربع طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام . فكان ذلك سنة له . ثم إنه عليه السلام قال : فمن رغب عن سنتي فليس مني ^(١) .

ثم يورد القاسمي أقوال الفخر الرازي التي تضعف هذا الفهم . ويورد قولاً للإمام الشوكاني في « وبل الغمام » يؤيد هذا الفهم . ويورد قولاً لابن عبد البر يُعلِّل الحديث الذي أمر فيه الرسول عليه السلام غيلان بن سلمة الثقفي بما اسلم وتحتة عشر نسوة بأن يختار منهن أربعاً ويفارق سائرهن كما أخرجه الترمذي وابن ماجه وابن حبان . فهو وإن كان له طرق فقد قال ابن عبد البر : كلها معلولة . وأعله غيره من الحفاظ بعلة أخرى . ويورد أقوال الشافعي وابن أبي شيبه وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارقطني والبيهقي تصحيح الحديث الذي فيه الأمر لغيلان بن سلمة الثقفي باختيار أربع ومفارقة سائرهن ^(٢) .

وكان القاسمي ينقل عن الأناجيل أحياناً ^(٣) ، ولكنه يذكر بطلان ما زعمه اليهود في توراتهم وتلمودهم وما رواه النصارى في الانجيل ممزوجاً ببعض تفاسيرهم وتهافت ذلك بالحجج الدامغة . وفي هذه المواقف نراه يورد أقوال علماء المسلمين مثل البرهان البقاعي في تفسيره « المناسبات » وخير الدين الألوسي في « الجواب الفسيح » ، وابن حزم في كتابه « الفصل » ^(٤) .

(١) محاسن التأويل . ١١٠٧/٥ وما بعدها .

(٢) انظر المرجع السابق . ١١٠٨/٥ - ١١١٦ .

(٣) انظر مثلاً محاسن التأويل - ١٦٣٩/٥ .

(٤) انظر مثلاً المرجع السابق - ١٦٦٠/٥ ، ١٦٨٤ .

ويعقد فصلاً يرد فيه على واحد من النصاري الذي ألف رسالة سماها «المعتقد الصحيح في صلب السيد المسيح» اعتقد بصلب المسيح يقيناً، وصار يناقش المفسرين فيما فسروا به الآية المذكورة «آية الصلب» زاعماً أن المنفي عن اليهود فيها هو نسبة الفعل لهم توبيخاً لتهمهم وازدراءهم، ورد فعل الصلب إليه تعالى. ولما كان مبحثه غريباً جداً أراد القاسمي أن يورد في تفسيره بعض تمويهاات النصراني في رسالته، ويعقبها بما فوق عليه من سهام ردود تهافتة.

وذكر القاسمي أنه رد عليه من الفضلاء المسلمين عدد وافر، في تأليف بديعة منها كتاب «السيوف البتارة» اعتمد مؤلفها في إبراد حججها على التواريخ الأفرنجية المعول عليها^(١).

ومعنى هذا أن تفسير القاسمي يحمل في تضاعيفه صورة ذلك الصراع المريع بين الإسلام وبين حركة الاستشراق والتبشير وما نتج عنها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين حيث كانت الهجمة الاستعمارية الكافرة على أشدها وفي بلاد الشام بالذات المرتع الخصيب للمبشرين وأتباعهم.

وإننا نلاحظ على القاسمي ميله للنزعة العلمية في التفسير أحياناً، وذلك في نقله أقوال أحد أطباء عصره في مضار لحم الخنزير المبنية على التجارب الحسية. فمن مضاره: أنه يورث الدودة الوحيدة التي يتسبب من وجودها في الأمعاء أعراض كثيرة كالمغص، والقيء، والإغماء، وآلام الرأس واضطراب الفكر وتشنجات عصبية وغير ذلك من مضار^(٢). والخنزير حرمه الإسلام من غير أن يعلل ذلك. ولو قضى العلماء على ما يورث الدودة الوحيدة فإنه يبقى محرماً قطعاً. ولا حاجة للمفسر في الجري وراء ذلك.

٢ - التفسير الحديث: مؤلف هذا التفسير محمد عزة دروزة النابلسي

الفلسطيني المولود سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٨ م.

(١) انظر المرجع السابق، ٥ / ١٦٨٩، ١٧٠١

(٢) انظر المرجع السابق، ٣ / ٣٨٢

وهذا التفسير يقع في اثني عشر جزءاً . والسور مرتبة حسب النزول .
وللمؤلف مصنقات عدة منها : عصر النبي ﷺ ، وسيرة الرسول ﷺ من
القرآن ، والدستور القرآني في شؤون الحياة ، والقرآن المجيد ، وكان هذا
بمثابة مقدمة لتفسيره .

وفي مقدمة التفسير الحديث يضع المؤلف أمام الدارسين منهجه في تفسير
القرآن الكريم وفهمه ، وقد شرحه في كتابه « القرآن المجيد » . ولنستمع
إليه وهو يقدم لنا منهجه ، يقول : « ولقد كنا بعد فراغنا من كتابة مسودات
التفسير كتبنا في هجرتنا إلى تركيا » أيضاً كتاباً في تنزيل القرآن وأسلوبه وأثره
وتدوينه وجمعه وترتيبه وقراءاته ورسمه ومحكمه ومتشابهة وقصصه وغريباته
ومناهج تفسيره ، والطريقة المثلى إلى تفسيره وفهمه ، وهو الكتاب الذي
طبع بعنوان « القرآن المجيد » وكان بمثابة مقدمة للتفسير . . . ولقد اجتهدنا
في السير في التفسير وفق المنهج الذي رأيناه خير سبيل إلى تفسير القرآن
الكريم وفهمه ، على ما شرحناه في القرآن المجيد ، وهذا هو :

١ - تجزئة المجموعات والفصول إلى جمل قامة ، يصح الوقوف عندها من
حيث المعنى والنظم والسياق . وقد تكون الجملة آية واحدة أو آيات قليلة
أو سلسلة طويلة من الآيات .

٢ - شرح الكلمات والتعابير الغريبة وغير الدارجة كثيراً ، بإيجاز ودون
تعمق لغوي ونحوي وبلاغي ، إذا لم تكن هناك ضرورة ماسة .

٣ - شرح مدلول الجملة شرحاً إجمالياً ، حسب المقتضى المتبادر بأداء
بياني واضح ، ودون تعمق كذلك في الشروح اللغوية والتنظيمية . مع الاستغناء
عن هذا الشرح والاكتفاء بعرض الهدف والمدلول ، إذا كانت عبارة الجملة
واضحة نظماً ولغة .

٤ - إشارة موجزة إلى ما روي في مناسبة نزول الآيات أو في صدها ،

وما قيل في مدلولها وأحكامها، وإيراد ما يقتضي إيرادها من الروايات والاقوال،
والتعليق على ما يقتضي التعليق عليها منها بإيجاز .

٥ - تجلية ما تحتويه الجملة من أحكام ومبادئ وأهداف وتلقينات وتوجيهات
تشريعية وأخلاقية واجتماعية وروحية . والاعتماد في ذلك على النظر في الدرجة
الاولى ، وملاحظة مقتضيات تطور الحياة والمفاهيم البشرية . وهذه نقطة أساسية
وجوهرية في تفسيرنا ، وهي كذلك في تفسير القرآن والدعوة القرآنية كما
هو المتبادر .

٦ - تجلية ما تحتويه الجملة من صور ومشاهد عن السيرة النبوية والبيئة
النبوية ، لأن هذا يساعد على تفهم ظروف الدعوة وسيرها وأطوارها وجلاء
جو نزول القرآن الذي ينبجلي به كثير من المقاصد القرآنية .

٧ - التنبيه على الجمل والفصول الواسائية والتدعيمية ^(١) ، وما يكون
فيها من مقاصد أسلوبية كالتعقيب والتعليل والتطمين والتثبيت والتدعيم
والترويج والترهيب والتقريب والتمثيل والتنديد والتذكير والتنويه ، مع
إبقاء ذلك ضمن النطاق الذي جاء من أجله وعدم التطويل فيه . والتنبيه بإيجاز

(١) نقصد بالجمل والفصول الواسائية والتدعيمية ما أريد به تدعيم الرسالة القرآنية ومبادئها
الحكمة ، مثل القصص ومشاهد الحياة الأخروية والجن والملائكة وبدء الخلق ومشاهد الكون
ونواميسه والمواقف الجدلية والحجاجية ، والترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، والأمثال
والتذكير ، حيث جاء جميع ذلك لتدعيم المبادئ والحكمة في القرآن ، وحيث يصح أن يقال أنها
من التشابهات المذكورة في آل عمران التي نبتة فيها على أن القرآن قسمان متميزان (آيات محكمات
من أم الكتاب وأخر متشابهات) وهذه نقطة هامة جداً غفل عنها أكثر المفسرين المطولين قديماً
وحديثاً ، فاهتموا للمتشابهات أو للفصول الواسائية والتدعيمية أكثر من اهتمامهم للمحكمات حتى
انعكست الآية أو كادت ، وصارت هذه الفصول جوهرية فأدى ذلك الى الإشكالات والمناقضات
وتشويش الأذهان وتعريض القرآن للنقاش وإخراجه عن نطاق قدسيته وغايته ، وهي الدعوة
والموعظة والهداية والتشريع ، وقلبه الى كتاب تاريخ وفن ونظريات يتحمل الأخذ والرد
والنقض والمعارضة على غير طائل ولا ضرورة . وفي الفصلين الثالث والرابع من كتاب القرآن
المجيد بحوث شافية في ذلك .

الى ما ورد في صدره اذا اقتضى السياق بما لا يخرج به عن ذلك النطاق .

٨ - الاهتمام لبيان ما بين آيات وفصول السور من ترابط . وعطف الجمل القرآنية على بعضها سياقاً أو موضوعاً ، كلما كان ذلك مفهوم الدلالة ، لتجلية النظم القرآني والترابط الموضوعي فيه . لأن هناك من يتوهم أن آيات السور وفصولها مجموعة الى بعضها بدون ارتباط وانسجام ، في حين أن إمعاننا فيها جعلنا على يقين تام بأن أكثرها مترابط ومنسجم .

٩ - الاستعانة بالألفاظ والتراكيب والجمل القرآنية في صدد التفسير والشرح والسياق والتأويل والدلالات والهدف والتدعيم والصور والمشاهد ، كلما كان ذلك ممكناً . وهذا ممكن في الأعم الأغلب حيث يوجد كثير من الآيات مطلقة في مكان ، مقيدة في مكان آخر ، وعامة في مكان ، مخصصة في مكان آخر ، كما يوجد كثير من الجمل المختلفة في الألفاظ المتفقة في المعاني والمقاصد . ثم بعد ذلك بالروايات إذا ما كانت متسقة مع المفهوم والسياق ، ثم بأقوال المفسرين إذا كانت كذلك .

١٠ - العطف على ما جاء في كتاب « القرآن المجيد » من بحوث حين تفسير الجملة ومقاصدها تفادياً من التكرار والتطويل .

١١ - عرض المعاني بأسلوب قريب المأخذ سهل التناول والاستساغة ، واجتناب الألفاظ الحوشية والخشنة والغريبة والعويصة .

١٢ - شرح الكلمات والمدلولات والموضوعات المهمة المتكررة شرحاً وافياً وخالياً من الحشو عند أول مرة ترد فيها ، والعطف على الشرح الأول في المرات التالية دون تكرار شرحها في مواطن تكررها ،^(١)

وقد رأى المؤلف بالإضافة إلى هذا وضع مقدمة أو تعريف موجز للسور

(١) التفسير الحديث ١ / ٦ - ٨

قبل البدء بتفسير يتضمن وصفها ومحتوياتها وأهم ما امتازت به ، وما يتبادر من فحواها من صحة ترتيبها في النزول وفي المصحف ، وما في السور المكية من آيات مدنية ، وفي السور المدنية من آيات مكية حسب الروايات ، والتعليق على ذلك حسب المقتضى . وكذلك وضع عناوين للموضوعات والتعليقات الهامة التي تناولها بالبحث والشرح والبيان ، ليسهل على من ينظر في التفسير مراجعة ما يريد منها .

ولقد رأى أن يجعل ترتيب التفسير وفق ترتيب نزول السورة ، بحيث تكون أولى السور المفسرة سورة العلق ثم القلم ثم المزمل إلى أن تنتهي السور المكية ، ثم سورة البقرة فسورة الأنفال إلى أن تنتهي السور المدنية ، لأنه رأى هذا يتسق مع المنهج الذي اعتقد أنه الأفضل لفهم القرآن وخدمته . إذ بذلك يمكن متابعة السيرة النبوية زمنياً بعد زمن ، كما يمكن متابعة أطوار التنزيل ومراحله بشكل أوضح وأدق ، وبهذا وذاك يندمج القاريء في جو نزول القرآن وجو ظروفه ومناسباته ومصادره ، ومفهوماته وتتجلى له حكمة التنزيل . وقد قلب المؤلف وجوه الرأي حول هذه الطريقة ، وتساءل عما إذا كان فيها مساسٌ بقدسية المصحف المتداول ، فأنتهى به الرأي إلى القرار عليها ، لأن التفسير ليس مصحفاً للتلاوة من جهة ، وهو غمل فني أو علمي من جهة ثانية ، ولأن تفسير كل سورة يصح أن يكون عملاً مستقلاً بذاته ، لاصلة له بترتيب المصحف ، وليس من شأنه أن يمس قدسية ترتيبه من جهة ثالثة .

ولقد أثر عن علماء أعلام ، قدماء ومحدثين تفسيرات لوحداث وسور قرآنية ، دون وحدات وسور ، كما أثر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كتب مصحفاً وفق نزول القرآن ، ولم نرَ نقداً أو إنكاراً لهذا وذاك ، مما جعله يرى السير على هذه الطريقة سائغاً . لا سيما والقصد منه هو خدمة القرآن بطريقة تكون أكثر نفعاً . وليس هو الانحراف والشذوذ . والله اعلم بالنيات . ولكل أمرئ ما نوى . وقد رأى المؤلف أن يستوثق من صحة ما

ذهب إليه فاستفق سماحة الشيخ أبا اليسر عابدين مفتي سورية والشيخ عبد
الفتاح أبا غدة الذي كان من المرشحين لإفتاء مدينة حلب ، فتلقى منها جواباً
مؤيداً (١) .

هذا هو منهج المؤلف وطريقته في تفسير القرآن الكريم . وخير من يصف
منهج الرجل هو نفسه كما يعرف الجميع . وإني أرى صاحب التفسير الحديث
متأثراً بمنهج أبي حيان الأندلسي الذي وضعه في مقدمة تفسيره «البحر المحيط» .
هذه واحدة . والثانية أن صاحب هذا التفسير لكونه يفسر القرآن حسب
ترتيب النزول لا بد أن يحنح إلى التفسير الموضوعي في مواضع كثيرة إن أراد
ذلك أو لم يرد . لسبب بسيط وهو أن السور المكية تشتمل على موضوعات
ومواقف لا تراها في السور المدنية . وذلك راجع إلى بداية الدعوة ونموها
ونهايتها إلى النتيجة الرائعة في يثرب وهجرة الرسول عليه السلام إليها وقيام
الدولة الإسلامية فيها . فالمنافقون مثلاً يرد ذكرهم في السور المدنية وحسب .
ولا نجد ذكراً للنفاق والمنافقين في السور المكية . لأن الوضع في مكة كان
محصوراً في فئتين : فئة كثيرة مشركة وثنية ، وفئة قليلة مؤمنة مستضعفة . ومن
دراستي لهذا التفسير رأيت أن صاحبه كان يرجع إلى معظم التفاسير المشهورة .
وكثيراً ما كان يتمثلها في تفسيره وينقل عنها ويحيل القارئ عليها في
مواضع كثيرة ، وهذه التفاسير : تفسير ابن عباس ، والطبري ، والرازي ،
والنيسابوري ، والبيضاوي ، والطبرسي ، والبغوي ، ومجموعة تفسير ابن
تيمية ، والنسفي ، والخازن ، وأبي السعود ، والزنجشيري ، والقاسمي ،
وجزء عمّ لمحمد عبده ، وتفسير المنار . وغير ذلك . ومن الكتب التي كان
يحيل عليها كثيراً : الإتيقان ، والسيرة الحلبية ، والتاج الجامع للأصول في
أحاديث الرسول ، وتاريخ الطبري ، وسيرة الرسول عليه السلام للمؤلف ،
والقرآن المهيّد للمؤلف أيضاً .

وعندما يقف المؤلف أمام جملة (أساطير الأولين) في قوله تعالى : « إذا

(١) انظر التفسير الحديث : ٨/١ وما بعدها .

تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين (١) نراه يعقد تعليقاً على جملة (أساطير الأولين) إذ يقول : « جملة أساطير الأولين قد تكررت كثيراً في القرآن حكاية لزعم الكفار عن القرآن » . وهذه الجملة أو بتعبير أدق كلمة أساطير تعني الآن القصص التي لا تستند إلى أصل أو يشوبها القلو أو الخرافة . غير أن الذي يتبادر لنا أن استعمالها في القرآن لم يكن لهذا المعنى فقط ، وإنما كان أيضاً لمقصد الإشارة إلى كتب الأولين وصحفهم ، بما في ذلك كتب النصاري واليهود التي كانت متداولة . وفي سورة الفرقان آية قد تؤيد ذلك حيث جاء فيها : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا) وحيث أراد الكفار أن يقولوا إن ما يتلوه النبي عليه السلام قد اقتبس منه واستكتبه وحفظه من الكتب الأولى المتداولة وليست وحياً . والجملة في السورة تدل في حد ذاتها على أن ما نزل من القرآن قبل هذه الآيات كان شيئاً غير يسير حيث رأى الكفار فيه من التطابق في المواضع ما سوَّغ لهم هذا القول (٢) .

ونجده ينقد بعض المفسرين الذين توسعوا في أوصاف الجنة وماهياتها بما لم يكن ثابت الاتصال بالنبي عليه السلام ، شأنه في ذلك شأن كثير من المفسرين القدامى والمحدثين ، إذ يقول : « ولقد توسع بعض المفسرين في أوصاف الجنة وماهياتها ومكانها وزمن خلقها وأشكال ثمارها وقصورها وبنائها الخ . ولما كانت من الحقائق الإيمانية المغيبة فإن في التوسع فيها تكلفاً لا ضرورة له ولا طائل من ورائه ، ولا سيما إذا لم يكن ثابت الاتصال بالنبي عليه السلام الذي هو المصدر الوحيد الذي يصح صدور ما هو زائد عن القرآن فيها منه . والأولى الوقوف منها عند ما ورد في القرآن والسنة الثابتة ، مع ملاحظة الهدف الذي أستهدفته أوصافها في القرآن وحكمة التماثل بين هذه الأوصاف وبين مألوفات الناس في الدنيا على ما نبهنا عليه » (٣) .

(١) سورة القلم ، الآية ١٥ .

(٢) التفسير الحديث ، ٥٢/١ .

(٣) التفسير الحديث : ٥٨/١ .

وكان المؤلف كثيراً ما ينحو نحو التفسير الموضوعي ، وذلك بحشد الآيات المناسبة والمرتبطة بموضوع واحد على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلاً لما)^(١) : « لا تعليق على عناية القرآن باليتيم : وبمناسبة اختصاص اليتيم بالذكر في الآيات نقول إن القرآن قد احتوى آيات كثيرة فيما يجب لليتيم من حفظ حق ورحمة وبر » ، وفي النهي عن أكل ماله وأذيته والتحايل عليه . ولما كان اليتيم على الأكثر ضعيفاً فاقصد المعين والكافل والمشفق ، فالعناية القرآنية به متسقة مع روح البر والحق والعدل التي انطوت في المبادئ القرآنية والدعوة الإسلامية منذ البدء كما هو كذلك شأن البر بالفقراء والمحتاجين ومساعدتهم وإطعامهم . ولعل في كثرة ما جاء في حق اليتيم صورة لما كان اليتيم معرضاً له قبل البعثة النبوية من صنوف الهضم والأذى والاهمال والحرمان أيضاً . فكانت هذه الصرخات القرآنية المدوية والحث المستمر في سبيل رفع الغبن والظلم الواقع . ولقد كان اليتامى معرضين خاصة لضیاع إرثهم وأكله من قبل الأوصياء والأولياء ، على ما تلهم آيات كثيرة منها آية سورة النساء هذه (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً) وآية النساء هذه (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً) وآية النساء هذه (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

فلعل التنديد بأكل التراث أكلاً لما في الآيات التي نحن بصددتها متصل بذلك^(٢) . ومن مثل ذلك تعليق المفسر على كلمة « الكتاب » لأنها ترد

(١) سورة الفجر ، الآيات . ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٢) التفسير الحديث ١ / ١٥٤ .

أمامه لأول مرة في أثناء تفسيره ، يقول : وكلمة « كتاب » ترد هنا لأول مرة ، والأصل في معناها الشيء المكتوب ، وقد أطلقت في القرآن على القرآن وعلى الكتب المنزلة كما أطلقت على أعمال الناس وعلى علم الله أيضاً ، ومن أمثلة إطلاقها على القرآن الآية التي نحن في صددنا ، قال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) ، ومن أمثلة إطلاقها على الكتب المنزلة آية سورة المائدة هذه (وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه... الآية) ، ومن أمثلة إطلاقها على أعمال الناس آية سورة الانشقاق هذه (فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً) وآية سورة الكهف هذه (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) ، ومن أمثلة إطلاقها على علم الله آية سورة الروم هذه (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) (١) .

ونجد المفسر ينقل أحياناً عن الإصحاحين الأول والثاني من سفر التكوين من أسفار التوراة أو العهد القديم فيما يتعلق بخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وينقل عن أسفار العهد القديم كذلك في أثناء حديثه عن سيرة داود عليه السلام (٢) .

ومما يدل على دقة المفسر في فهم كتاب الله تعالى ورجاحة عقله رفضه وإنكاره استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (٣) : « ولقد قرأنا مقالاً أراد كاتبه أن يجعل صلة بين

(١) التفسير الحديث ٢٠ / ٨٠ .

(٢) انظر المرجع السابق ٢ / ٤٢ - ٤٣ ، ٧٩٠ .

(٣) سورة القيامة ، الآية ٤ .

اختصاص البنان بالذكر وبين ما ظهر حديثاً من علم بصمات الأصابع وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس ، وتمشياً مع الفكرة التي سادت بعض الناس من استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الكلمات والآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، ومعجزات الله المشار إليها فيه . وفي هذا - في اعتقادنا - تحميل لكلمات القرآن وآياته غير ما تتحمل وإخراج له من نطاق قدسيته وغايته وتعريض له للجدل والنقاش . ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه . وأمر الله نبيه ﷺ بشرحه وتبياناه . والنظريات الحديثة لم تكن معلومة ولا مكشوفة . ولا يصح لمسلم - مهما حسنت نيته - أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن ، ^(١) . وبهذا نرى إنكار المفسر للنزعة العلمية في التفسير التي سار عليها بعض معاصريه من العلماء .

وينقد المفسرين الذين يتطرقون الى الخوض في موضوعات لا تحملها الآيات القرآنية ولم تثبت في حديث نبوي ، يقول : « ولقد تطرق بعض المفسرين في سياق تفسير الآيات الى عمر الدنيا وأشرط الساعة ، وأوردوا أقوالاً وأحاديث متنوعة . ولا نرى المقام والآيات تتحمل ذلك وليس منه طائل . وأمر الساعة من الامور المغيبة التي يجب الإيمان بها والوقوف منها عند ما وقف عنده القرآن أو ثبت في الحديث النبوي دون تزيد ولا توسع » ^(٢) .

ونجده يتعرض لبعض الآيات التي يقال إنها منسوخة ، فلا يوافق بعض المفسرين الذين قالوا إن الآية كذا منسوخة بآية كذا ، ويدعم رأيه بقول أحد المفسرين ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين ... الآية) ^(٣) . « وقد قال بعض المفسرين

(١) التفسير الحديث . ٧ / ٢ .

(٢) التفسير الحديث ، ١٩٣ / ٢ .

(٣) سورة الاعراف ، الآية ٢٠٠ .

إن الآية نسخت بالآيات التي تأمر النبي ﷺ بقتال الكفار والمنافقين والإغلاظ لهم . ولسنا نرى هذا في محله . فالآية احتوت خطة ريانية للنبي ﷺ والمسلمين إزاء الناس جميعهم الذين يدخل فيهم المسلمون . وهذه الجملة مؤيدة بآيات عديدة مدنية ومكية ... وقد قال الطبري في هذا إنه ليس لديه دليل على نسخها ، وإن المراد منها تأديب النبي ﷺ والمسلمين جميعاً وأمرهم بأخذ عفو أخلاق الناس ، وتعليمهم صفة عشرة بعضهم بعضاً وعشرة من لم يجب أخذه بالعظة والشدة » (١) .

وإذا وردت روايات عدة في سبب نزول آية ، فإنه يضعف ما يراه ضعيفاً منها ، ويرجح الرواية التي يراها تستحق الترجيح ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) (٢) . « ولقد تعددت الروايات التي يرويها الطبري وغيره في سبب نزول هذه الآية . منها أنه لما نزلت الآيات السابقة في التنديد بالمتخلفين قال المسلمون : هلك المتخلفون بعد الآن . فصاروا إذا دعا النبي ﷺ إلى الجهاد يسارعون إلى النفرة بقضهم وقضيضهم ولو لم يكن النبي ﷺ من الخارجين إلى الفزوة ولو لم تكن الحاجة ماسة . ومنها أن من قبائل البدو التي أسلمت من أخذ ينتقل إلى المدينة بقضه وقضيضه ويقيم فيها أو حولها بحجة الرغبة في الجهاد والاستعداد له وخجة مصاحبة النبي ﷺ والاستماع منه والتفقه في الدين . وكان هذا مما يضيّق على أهل المدينة . ومنها أن فريقاً من أصحاب النبي ﷺ خرجوا إلى البادية وأصابوا خيراً فأقاموا ، ثم أخذوا يدعون الناس إلى الإسلام ، فقبل عنهم إنهم تركوا أصحابهم ، فوجدوا في أنفسهم ، وعادوا جميعاً فنزلت فيهم . والرواية الثالثة لا تتسق مع مفهوم الآية ولا مع روحها وسياقها كما هو المتبادر . والرواية الثانية ليست بعيدة الاحتمال . فإن المدينة بعد فتح مكة أخذت تعجّ بوفود

(١) التفسير الحديث ، ٢٠١/١ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ١٢٢ .

قبائل العرب . وتدخل في دين الله افواجاً . فلا يبعد ان يكون منهم من حاول الإقامة في المدينة وحولها بحجة الرغبة في الجهاد والاستعداد له ومصاحبة الرسول ﷺ والتفقه في الدين ، فسبب هذا ضيقاً على اهل المدينة .

وقد تكون الرواية الأولى أكثر قرباً للصحة مع شيء من التعديل تقتضيه الوقائع المعروفة . فلم يرو ان النبي ﷺ غزا بنفسه ما بعد تبوك . كما أنه لم يرو خبر سرايا عديدة سيرها إلا ما كان من خبر سرية سيرها إلى اليمن بقيادة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وإعداد جيش إلى البلقاء بقيادة أسامة بن زيد . ويتبادر لنا ان المسلمين خارج المدينة قد فزعوا وتحسبوا من عواقب الآيات السابقة ، فصاروا يقبلون على المدينة للاشتراك في الجهاد ، ومصاحبة النبي ﷺ والاستماع له والتفقه في الدين . وكان في ذلك حرج عليهم وعلى اهل المدينة مما فاقضت حكمة التنزيل الإيحاء بالآية على سبيل التخفيف والتطمين والتعليم (١) .

وينقد صاحب التفسير الحديث بعض المفسرين لأنهم ربطوا بين آية وآية في المعنى من غير دليل يرجح ذلك . ويوجه مفهوم الأحاديث التي اعتمد عليها هؤلاء المفسرون الوجهة الصحيحة ؛ يقول في تفسير قوله تعالى : (أنؤمن كما آمن السفهاء الآية) (٢) : « ولقد رأينا بعض المفسرين القدماء والمحدثين (الطبري وابن كثير والقاسمي) يوردون في سياق تفسير هذه الجملة آية سورة النساء هذه (ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً . . . الآية) ، ويقولون : « ولهذا سمي الله النساء والصبيان في آية النساء سفهاء ، لأنهم قاصرو عقل وتميز . وقد عزوا هذا إلى عبد الله ابن مسعود ، وابن عباس وبعض التابعين . واوردوا في صدره حديثاً عن النبي ﷺ رواه أبو أمامة جاء فيه (إن النساء سفهاء إلا التي اطاعت

(١) التفسير الحديث ، ١٢ / ٢٣٩ وما بعدها

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٣

قيمتها) ، وحديثاً آخر رواه مسلم جاء فيه (يا معشر النساء تصدقن واكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار . فقالت امرأة منهم جزلة : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدي لب منكن !) . وتعليقاً على ذلك نقول ان المناسبة ضعيفة جداً بين كلمة السفهاء في آية سورة البقرة التي نحن في صددنا وبين كلمة السفهاء في آية سورة النساء . فالمنافقون يعرفون أن من المؤمنين من أقاربهم من أهل المدينة من هم نبهاء وعقلاء وأقوياء الإدراك وزعماء ، فضلاً عما كان في مؤمني المهاجرين من أمثالهم في النباهة والعقل وقوة الإدراك والزعامة بحيث يمكن أن يقال إنهم إنما تصدوا الغمز والاستخفاف ، وليس تقرير حقيقة المؤمنين من هذه الناحية . وحتى لو كانوا أرادوا نعت بعض المؤمنين بذلك النعت على الحقيقة لا على المجاز والغمز فإن المناسبة تظل ضعيفة جداً بين مقصود آية البقرة والنساء ، ولا نرى محلاً للربط بينهما . هذا أولاً ، وثانياً : إن حصر معنى السفهاء في آية سورة النساء بالنساء والصبيان لا تساعد عليه الآية نصاً وروحاً . فالكلمة فيها مطلقة وتشمل كما هو المعقول المتسق مع روح الآية - كل سفيه قاصر العقل والتمييز من رجال ونساء وصبيان . ولذلك نستغرب جملة المفسرين « ولذلك سمي الله النساء والأطفال سفهاء في سورة النساء » . ونستغرب ما روي من تفسير كلمة السفهاء في آية سورة النساء بالصبيان والنساء حصراً - المعزو إلى عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وليس فيما أوردوه من الأحاديث - إن صحت - ما يساعد على هذا الحصر . والمتعمّن في الحديث الأول يجد فيه استثناءً للاتي يُطِيعُنَ أزواجهن وهن عادة الأكثرية الساحقة من الزوجات في كل وقت ومكان . ويجد الثاني بسبيل الحث والتحذير والعظة وليس بسبيل تقرير حصر نقص العقل والدين في النساء ولا شمول ذلك لجميع النساء

والاستغراب يشتد فينا حينما نرى هؤلاء المفسرين ومن يعزّون إليهم على

جلالة قدرهم يفوتهم ما في القرآن من نصوص صريحة لا يمكن أن تتسق مع الحصر الذي قرروه في شأن النساء خاصة . ففي القرآن آيات كثيرة جداً تقرر بصراحة حاسمة أهلية المرأة لكل تكليف إيماني واجتماعي وتعبدي ومالي وجهادي وأخلاقي كالرجل بدون أي تمييز . وترتب عليها كل ما ترتبه على الرجل نتيجة لكل عمل تقوم به من ذلك ثواباً وعقاباً في الدنيا والآخرة بدون أي تمييز . وتقرر حق تصرفها في مالها دون أي تدخل أو إشراف أو إذن من الرجل مهما كانت صلته بها ، فتبيع وتشترى وتملك العقار والأرضين والأرقاء وتزرع وتحصد وتستدين وتدين وتهب وتوصي وتمتق وترث وتورث وتؤجر وتستأجر وتزوج نفسها بدءاً ومراجعة .

وهذا بالإضافة الى الحقيقة القرآنية الكبرى ، وهي أن كل ما خوطب به المؤمنون والمسلمون والكافرون والمشركون والمنافقون من شئون الدين والدنيا مما ليس فيه قرينة تخصيصية للذكور : شامل للذكور والإناث معاً . ولا يمكن أن يصح هذا في عقل عاقل إلا مع فرض الأهلية التامة للمرأة عقلياً وروحياً وأخلاقياً وجبلة .

وما جاء في القرآن من تقرير قوامة الرجال على النساء ومن تفضيل الرجال درجة على النساء ومن جعل شهادة المرأتين في المداينات بديلاً من شهادة رجل واحد ، ومن جعل حقها في الإرث نصف حق الرجل ، ليس من شأنه أن ينقص شيئاً من ذلك . وهو متصل بالحياة الزوجية وبطبيعة المرأة الجنسية على ما سوف نشرحه في مناسباته . ولعل تقرير أهليتها المالية والمدنية دون إناطتها بإذن الرجل على ما ذكرناه آنفاً أقوى دليل على كون قوامة الرجال على النساء وتفضيل الرجال درجة عليهن هو بالنسبة للحياة الزوجية وحسب^(١) .

وصاحب التفسير الحديث عندما ينقد بعض المفسرين القدامى رحمهم الله لا نجده يتحامل عليهم البتة ، ولا يقسو عليهم في عباراته ، ولا يسفه

(١) التفسير الحديث : ٧ / ١٦٥ - ١٨٧ .

اجتهاداتهم في فهم كتاب الله تعالى مثلما فعل الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا ، بل نراه يصف أقوالهم بأنها وجيهة ومحملة ومتسقة مع مفهوم الآيات التي يفسرونها على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) (١) :

« ولقد ذكر المفسرون أن كلمة « شياطينهم » مصروفة إلى اليهود . وهو وجيه ومتسق مع مفهوم الآيات ، حيث يفهم منها أن المنافقين شيء وشياطينهم شيء آخر ، حتى ولو كانوا زعماءهم ، بل إن العبارة تفيد أن الموصوفين هم من الزعماء مما فيه تأكيد للتوجيه . وفي القرآن المدني آيات كثيرة تؤيد أن المنافقين وزعماءهم خاصة كانوا حلفاء مع اليهود ضد الدعوة الإسلامية ، وأن اليهود كانوا يوسوسون للمنافقين ويوجهونهم في طرق الكيد والمكر والتشكيك » (٢)

ومن مثل ذلك قول صاحب التفسير الحديث في تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) (٣) :

« قد يئسوا من الآخرة » : من المفسرين من أول الجملة بمعنى قد يئسوا من رحمة الله ورضائه في الآخرة . ومنهم من أولها بمعنى قد يئسوا من أي احتمال للبعث الأخروي . وكلا التأويلين وجيهة تتحملها العبارة . (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) :

بعض المفسرين أول الجملة بمعنى أن الأحياء من الكفار قد يئسوا من أي احتمال لبعث الذين ماتوا وصاروا أصحاب القبور . وبعضهم أولها بمعنى أن الأموات من الكفار يئسوا من أي بعث أخروي أو من رحمة الله ورضائه في الآخرة والتأويلات الثلاثة وجيهة ومحملة » (٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤ .

(٢) التفسير الحديث : ٧ / ١٦١ .

(٣) سورة الممتحنة ، الآية ١٣ .

(٤) التفسير الحديث . ١٢ / ٢٩ .

ولم يفت المؤلف أن يرد على مزاعم المستشرقين وأباطيلهم التي يبدو منها الحقد الشديد على الإسلام والنبي محمد عليه السلام؛ ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) (١) : « وتعبير (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) صريح قاطع بأن النبي عليه السلام لم يكن يكتب ويقرأ . وبالرغم من هذه الصراحة فإن « كابتاني » وغيره من المستشرقين ظلوا يصرون على دعوى أن النبي عليه السلام كان يقرأ ويكتب . ومنهم من قال إنه كان يخفي ذلك ويرaug فيه فلا يثبت ولا ينفيه لأنه يعرف أن منهم من كان يعرفه فيه . ولو تذكروا بأن هذا مما قد يكون وجهه إلى النبي ﷺ مباشرة وإن القرآن قد رد عليه وزيفه علنا وبصراحة قطعية ، وإن أصحابه وأخصاءه كانوا يتلون هذا الرد الصريح القطعي لو فروا على أنفسهم التعب ولما عرضوها لتهمة الغرض والعناد والوقاحة والكذب . فلا يمكن أن يعلن النبي ﷺ بلسان القرآن وبأسلوب قاطع صريح أنه لا يقرأ ولا يكتب لو كان يقرأ ويكتب ، ولا سيما لو كان أصحابه يعرفون ذلك فيه . لأنه يثير حالا شك هؤلاء في ربانية القرآن وصدق النبي عليه السلام . وهذا وذاك من الخطورة بمكان عظيم . والمستشرقون في عنادهم ودعواهم يقيسون الحاضر على الماضي ، فيؤدي القياس بهم إلى استحالة ألا يكون النبي قارئاً كاتباً مطلعاً على الكتب السماوية وهم مخطئون في قياسهم ، لأن الفرق عظيم بين الحاضر وذلك الماضي من مختلف النواحي ، (٢) .

وموقفنا من هؤلاء المستشرقين اليهود والنصارى هو الإهمال والترك ، ودعوة المسلمين إلى فهم الإسلام من جديد كما أنزل على محمد عليه السلام . وفي ذلك خير وقاية من مزاعم المستشرقين وتلامذتهم من المسلمين الفاسقين .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٨

(٢) التفسير الحديث : ٧ / ٢٥

وكما يقولون ، « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وصدق الله اذ يقول (قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) ، وقوله (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ، حتى تتبع ملتهم) . ويستطيع كل ذي عقل ان يحس بوقاحة هؤلاء المستشرقين وسماجتهم وبعدهم عن الحق . وكل ذلك نعهده في اليهود . والرد عليهم لا طائل تحته . والكفر عناد . وهؤلاء في ذروته .

واني اختلف مع صاحب التفسير الحديث في استعماله بعض العبارات التي تصف الله تعالى من مثل قوله في تفسير قوله تعالى : (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون)^(١) : في الآية الأولى صورة من صور تناقض الكفار المشركين ، فهم يخلصون الدعاء لله وحده حينما يركبون الفلك لينجيههم إلى البر استتباعاً لعقيدتهم بأنه خالق الكون ومدبره الأعظم الضار النافع وحده ، فإذا ما نجاهم عادوا إلى شركهم ،^(٢) . فعبارة المؤلف « ومدبره الأعظم » غير دقيقة . وبخاصة أن الماسونية تقول عن الله « مهندس الكون الأعظم » أمام السذج والعميان ممن ينضمون إليها . وإذا بحثت عن هذا المهندس تجده ملك الحكومة العالمية التي تسعى الماسونية لتحقيقها . فهو يهودي من نسل داود عليه السلام كما يزعمون .

والله سبحانه ليس خالق الكون وحده ، بل هو خالق الكون والإنسان والحياة . أي ما اصطلح عليه بالوجود . والله سبحانه هو الواجب الوجود .

و « الاعظم » صيغة أفعل التفضيل . وهي توحى بمدير للكون أقل عظماً منه ويدخل في ذلك قول الأستاذ أمين الخولي عن القرآن : « كتاب العربية الأعظم » وهذه العبارة توحى بوجود كتاب أقل عظماً من القرآن الكريم .

(١) سورة العنكبوت ، الآيتان ٦٥ ، ٦٦

(٢) التفسير الحديث : ٧ - ٣٣ .

ولا يجوز وصف الله بغير الصفات التي وصف بها ذاته ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

٣ - التفسير القرآني للقرآن ، مؤلف هذا التفسير : عبد الكريم الخطيب المصري .

يقع هذا التفسير في ستة مجلدات ، وكل مجلد يشتمل على ستة أجزاء .

وهذا التفسير حديث العهد . فقد جاء الخامس من حزيران سنة ١٩٦٧ والمؤلف لا يزال يكتب هذا التفسير . وتسمية هذا التفسير : « التفسير القرآني للقرآن » توحى لأول وهلة أنه من جملة التفسير بالمأثور أو بالمنقول . هو ما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته . وهذه أول خطوة في تفسير القرآن الكريم . والقرآن الكريم يشتمل على الإيجاز والاطناب ، وعلى الأجمال والتبيين ، وعلى الإطلاق والتقييد ، وعلى العموم والخصوص ، وما أوجز في مكان قد يبسط في مكان آخر ، وما أجمل في موضع قد يبين في موضع آخر ، وما جاء مطلقاً في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى ، وما كان عاماً في آية قد يلحقه التخصيص في آية أخرى . لهذا يجب على من يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً ، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً ، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجمل ، وليحمل المطلق على المقيّد ، والعام على الخاص ، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن ، وفهم مراد الله بما جاء عن الله . وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مها كان أن يعرض عنها ، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى ، لأن صاحب الكلام أدري بمعاني كلامه ، وأعرف به من غيره^(١) . وقد قدم عبد الكريم الخطيب لتفسيره بمقدمة أبان فيها عن طريقته ومنحاه في فهم القرآن الكريم وتفسيره ، يقول : « ... ومن أجل هذا كانت صحبتنا هذه لكتاب الله تعالى ، على هذا الوجه ، الذي لا ننظر فيه إلى غير

(١) انظر : التفسير والمفسرون . ١ / ٣٧ .

كتاب الله ، والى تدبر آياته ، بعيداً عن طنين المقولات الكثيرة التي جاءت الى القرآن من كل صوب ، وكادت تخفت صوته ، وتغم على الأضواء السهاوية المنبعثة منه ! إننا في صحبتنا هذه للقرآن ، لا نقيم نظرننا على غير كلماته وآياته ، ولا نخط على هذه الصفحات غير ما يسمح لنا به النظر في كلماته وآياته . إننا لا نفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، في هذه الصحبة التي نصحب فيها كتاب الله ... وإنما نحن نرقل آيات الله ترتيلاً ... آية آية ، أو آيات آيات ... ثم نقف لحظات نلتقط فيها أنفاسنا المبهورة ، لما تطالعنا به الآية أو الآيات ، من عجب ودهش وروعة ، ثم نمسك القلم ، لنمسك به على الورق بعض ما وقع في مشاعرنا من صور العجب والدهش والروعة .. وانها لصور باهتة بالنسبة للمواقع الذي حملته تلك المشاعر ... فما أبعد الفرق بين الشعور المشتمل علينا ونحن بين يدي كلمات الله ، وبين الكلمة التي تنقل هذا الشعور ! ولكنها - على أي حال - معلم من معالم الطريق الى كتاب الله ، يمكن أن يجد السالك فيه نوراً ، ويزداد به المهتدي هدى ، (١) .

وصاحب التفسير القرآني عندما يتصدى لتفسير سورة من سور القرآن نجده يتكلم عن نزولها ، وعدد آياتها ، وعدد كلماتها ، وعدد حروفها ، وأسمائها . وعلى سبيل المثال يقول في سورة الحمد : « نزولها : مكية ، وقيل إنها نزلت بمكة ، ثم نزلت مرة أخرى بالمدينة . ولا وجه لهذا القول . عدد آياتها : سبع . عدد كلماتها : خمس وعشرون كلمة . عدد حروفها : مائة وثلاث وعشرون حرفاً . من أسمائها : سميت بأسماء كثيرة جاوزت المائة ، وذلك حسب ما يقع في الخاطر منها . ومن أسمائها الفاتحة ، وفاتحة الكتاب ، والحمد ، وسورة الحمد ، والشافية ، والشفاء ، وأم القرآن ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، (لأنها ثني - أي تكرر - في كل صلاة) (٢) .

(١) التفسير القرآني للقرآن ، التقديم ١١/١ .

(٢) المرجع السابق ، ١٧/١ .

وهو في تفسيره لأية آية قرآنية نراه يحشد إزاءها الآيات المناسبة التي تزيدها بياناً وتفصيلاً على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (الحمد لله رب العالمين) : « بهذا الحمد لله تنطق المخلوقات كلها ، فهو سبحانه الذي أوجدها من العدم وأعطاهما خلقها بين المخلوقات ، وقام عليها مديراً وحافظاً ، (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ٥٠ : طه ، فحق عليها أن تحمده ، وتشكر له ، وقد لزمها هذا الحق الذي لا انفكك لها منه ، إن لم تؤدّه اختياراً أدّته اضطراراً ، وإن لم يفصح عنه ظاهرها نعم عليه باطنها : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ٤٤ : الإسراء (١)

واتساقاً مع ما سبق فقد كان المؤلف يستشهد بآيات قرآنية ليدعم اجتهاده وتأييده ، على شاكلة قوله : « ولو لم يقم إبليس من وراء آدم ، يغريه بالشجرة ، ويدفعه إليها ، لسا رإليها وحده ، ولبلفها ، ولأكل منها ! ولكن لا يكون هذا إلا بعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذي اقترب فيه بالفعل من الشجرة ، وأكل منها !! .

هكذا الانسان ، وهكذا الناس يتحدون كل سلطان يقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان ذلك لخيرهم وإسعادهم . ولهذا فإني أحب أن أذكر هنا قوله تعالى : (خلق الانسان من عجل) (٣٧ : الأنبياء) وقوله جل شأنه : (وخلق الانسان ضعيفاً) (٢٨ : النساء) . كما أحب أن أفهم هاتين الآيتين الكريميتين على أنها تكلان الصورة التي خلق عليها آدم ، وأن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الانسان في آدم ، وفي إنضاج ثمرته قبل أوانها ! ! » (٢) . ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وأني فضلتكم على العالمين) (٣) : « وأما قوله تعالى : (وأني فضلتكم على العالمين) فالمراد

(١) المرجع السابق ، ١٨/١ .

(٢) التفسير القرآني للقرآن ، ١ / ٧٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٤٧ .

بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة ، إذ كانوا هم أهل كتاب ، وفيهم الرسل والأنبياء ، على حين كان جيرانهم وثنيتين ، على كفر وشرك وضلال . ومما يشهد لهذا أن موسى عليه السلام وهو رأس بني إسرائيل في الكرامة والفضل عند الله - كان بمنزلة تلميذ ، يتلقى العلم والمعرفة على يد عبدي من عباد الله ، كما في قوله تعالى : (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً) (٦٥ - ٦٦ : الكهف) . ويشهد لهذا شهادة قاطعة ، قوله تعالى عن أمة الاسلام : (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١١٠ : آل عمران) .. فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة - في مقام الهداية ، وصدق الايمان بالله - على سائر الأديان ، وجميع الملل ! ، (١) .

نعم ، ومن الضروري أن نسجل في هذا المقام أن عبد الكريم الخطيب في قوله في تقديم تفسيره : « إننا لا نفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، وإننا في صحبتنا هذه للقرآن ، لا نقيم نظراً على غير كلماته وآياته » يحذو حذو الشيخ محمد عبده في دروسه وكتابته في التفسير ، إذ كان يعتمد على عقله الحر كما يقال ، ولا يستلزم في التفسير كتاباً ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه (٢) .

وقد كان من منهجي في هذا البحث ان ابدأ بدراسة التفاسير ذات الاتجاه السلفي . وذلك لان الاتجاه السلفي في تفسير القرآن الكريم هو التيار الأصيل المتدفق عبر القرون في تاريخ الإسلام وشرح كتابه . أما اتجاه محمد عبده في التفسير فقد اعتبرناه اتجاهاً طارئاً جديداً لأنه يقوم على فكرة التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية الطارئة والدخيلة على مجتمعاتنا . ولهذا

(١) التفسير القرآني للقرآن ١٠ / ٨٢ .

(٢) انظر كتاب محمد عبده، لعثمان أمين . ص ١٠١ .

السبب كانت دراستنا لتفسير عبد الكريم الخطيب المعاصر قبل دراسة اتجاه محمد عبده في التفسير مع تقدمه .

وكان المؤلف يذكر سبب نزول الآية او الآيات أحياناً ^(١) .

وكان يذكر صلة أو مناسبة الآيات لما قبلها أحياناً ، ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وَاَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ أَنِي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) ^(٢) : «مناسبة هذه الآيات لما قبلها» هي ان الصورة التي عرضتها الآيات السابقة لبني إسرائيل كانت صورة معتمة للانسان ، فاضحة لمساوئه ومخازيه ، حين تفسد فطرته ، وتضيع معالم إنسانيته ، فيدفع بكتنا يديه الخير المسوق اليه ، وينفخ بفيه في شعلة النور المنصوبة لهدايته ... مؤثراً ان يظل هكذا في الظلام والضلال . ولان الإنسانية ليست كلها على هذه الصورة الكئيبة المعتمة التي تتمثل في بني اسرائيل ، إذ ان في الإنسانية خيراً كثيراً ، وفي الناس أختياراً كما في الناس أشرار وفجار ، فكان من تمام العرض للانسانية ان يعرض جانبها الطيب كما عرض جانبها الخبيث ^(٣) »

وذهب المؤلف الى ما ذهب اليه ابو حيان الأندلسي صاحب البحر المحيطة من ان بلاغة القرآن اعظم واسمى من ان تخضع لمقاييس النحو وتخريجات النحاة ، يقول في تفسير قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون) ^(٤) :

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ، ٦ / ١١٠١

(٢) سورة المائدة ، الآيات ٢٧ - ٢٩

(٣) التفسير القرآني للقرآن ، ٦ - ١٠٧٢

(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧

« أكثر المفسرين على أن الكاف في « كمثل » زائدة باعتبار أن كلمة « مثل » أداة تشبيه، والكاف أداة للتشبيه ، ولا تجتمع الأداتان على مشبه به واحد، وعلى هذا تكون الصورة هكذا : « مثلهم مثل الذي استوقد ناراً » ، أو « مثلهم كالذي استوقد ناراً » ، وبلاغة القرآن اعظم واسمى من أن تخضع لمقاييس النحو وتخريج النحاة ! فليس في كلمات الله ما يحتاج إلى علل النحاة ومباحكاتهم ، ليستقيم على علمهم ، ولينضبط مع قواعدهم - وحسب القرآن أن يقول قولاً ، أو ينهج أسلوباً ، فيكون قوله الحق ، وأسلوبه الفصل ، ولا عليه أن تضطرب قواعد النحو ، وتبليبل عقول النحاة » (١) .

ونجد عند المؤلف جنوحاً وميلاً حذراً إلى الاتجاه العلمي في التفسير. والمرجح أن هذا الميل الحذر أثر من آثار مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . يقول : « وقد يفهم من قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) بعد قوله سبحانه (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) - قد يفهم من هذا أن خلق السموات جاء تالياً لخلق الأرض : ولكن ، مع قليل من النظر ، يتضح أن ذلك كان بعد خلق السموات والأرض ... فالأرض كانت مخلوقة ، ثم خلق الله بعد ذلك ، ما فيها من مخلوقات ... وكذلك السماء ، كانت قائمة ، فبعلها الله سبحانه سبع سموات . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ، في قوله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) (١١ : فصلت) . وهذا لا يصادم ما يقول به العلم الحديث ، من أن الأرض وليدة انفجار في الشمس ، تسبب عنه انفصال أجرام منها ، وكانت الأرض واحدة من تلك الأجرام ! فعوالم السماء مخلوقة قبل الأرض ، والأرض مولود من موالدها » (٢) .

ومع هذا الميل الحذر إلى النزعة العلمية في فهم القرآن وشرحه نراه يرجع إلى الصواب والدقة في فهم كتاب الله كما يجب على المسلمين أن يفهموه فيقرر

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ١ / ٣٦

(٢) التفسير القرآني للقرآن . ١ / ٤٨ .

أن القرآن ليس كتاب علم ، وأن الرسالة الإسلامية لم تجيء لتقرير حقائق علمية - فإن في عرضه لمشاهد الكون وفي كشفه عن مظاهر الوجود ، لمحات مضيئة ، وإشارات مشرقة ، يجد فيها العلم الحديث مستنداً لمقولاته ، ومجازاً لمقرراته (١) .

ونلاحظ على المؤلف ميله إلى اللون الأدبي والنفسي في تفسيره ، يقول في تفسير قوله تعالى : (إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) (٢) : « هنالك في هذا الموقف المتأزم الخائق ، وبين يدي هذا الجحيم الآخذ بالنواصي والأقدام ، يكثر التلفت إلى الوراء ، وترتفع صيحات الحسرة والندم من الآثمين الضالين ! وفي مشهد من تلك المشاهد تقع الملاحظة بين الاتباع والمتبوعين ، ويتبرأ المتبوعون من الاتباع ، وتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل ، ويتبرأون بالعداوة والبغضاء ! والاتباع والمتبوعون هنا أهل الضلال ... أما الاتباع فهم العامة ، وأما المتبوعون فهم العلماء واصحاب القيادة الدينية فيهم ، إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال ، وهم الذين حرفوا لهم العلم عن موضعه ، فاهلكوهم وهلكوا معهم جميعاً . فالمشهد هنا بين الاتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التي يساق إليها الاتباع والمتبوعون معاً . ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذي أوردتهم موارد الهلاك ، فقد وقع في أنفسهم حين رأوا العذاب الذي ينتظرهم ، أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم ويسوقونهم للقصاص منهم ، بتهمة التحريض والغواية لهم ، إذ ذاك ، بادر هؤلاء المتبوعون وتبرأوا من أتباعهم ، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم ! وحين يجد الاتباع

(١) انظر المرجع السابق ١٠ / ٦٦ .

(٢) سورة البقرة ٤ الآيتان ، ١٦٦ ، ١٦٧ .

أنهم وقادتهم حصب جهنم ، كما يقول الله تعالى (فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون) : (٣٣ : الصافات) يتضاعف حزنهم ، وتشتد حسرتهم ، ويقطع اليأس نياط قلوبهم ؛ حين لم يتألوا من هؤلاء الذين غرروا بهم ، وأوردوهم هذا المورد الوبيل ! وإذا ذاك تتطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظاً ويأساً : (لو أن لنا كرة ! فنتبرأ منهم كما تبراء منا) فهم إنما يتبتمون - في يأس مغلق - أن يُردُّوا هم ورؤسائهم إلى هذه الدنيا ، ليراجعوا حسابهم معهم على ضوء ما تكشف لهم في هذا الموقف ، وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها ... أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدي نفعا ، فقد دُعوا إلى الضلال وأجابوا ، وما هم أولاء يحنون ثمرة ما زرعوا من شر ، وما ثمروا من إثم ! (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) (١) .

ويرى المؤلف رأياً في الانسان من حيث كونه خيراً أو مسيراً ، مستشهداً بآيات القرآن في دعم رأيه وبحيل القارئ على كتاب له فيه دراسة مستفيضة لهذه القضية ، يقول : « والجواب على هذا قد كثر حوله الخلاف ، وتعددت فيه المذاهب ... هل الانسان حر يختار فيما يأتي من خير وشر فيكون حسابه جزاء وفاقاً لما عمل بحريته واختياره ، أم هو مجبر مضطر مسوق الى قدره المقدور ، فيكون عمله غير محسوب عليه ، ويكون حسابه على ما عمل ، ظلم له ، وعدوان عليه ؟ أم أن الانسان مزيج من الجبر والاختيار ، له إرادة ، وله قدرة على فعل ما يريد ، ولكن إرادته وقدرته مرتبطتان بإرادة فوق إرادته وبقدرة فوق قدرته ؟ فهو يريد ، ولكن وفق ما تريد تلك الإرادة العليا ، ويفعل ، ولكن داخل فعل تلك القدرة المهيمنة على قدرته ... فالانسان في هذا التصور أشبه بترس في آلة ميكانيكية ... يتحرك بحركة تلك الآلة ويسكن بسكونها ، فهو متحرك وغير متحرك معاً ! والرأي عندنا

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ٢/١٨٥-١٨٧

أن الانسان صنعة الله ، والله سبحانه أن يضعه حيث يشاء ، ليأخذ مكانه واتجاهه في هذا الوجود . ومع هذا فإن الانسان - بما أودع الله فيه من عقل - بأن يستعمل هذا العقل وما فيه من قوى ، في وزن الأمور وتقديرها ... فيتقدم أو يتأخر ، ويقدم أو يحجم ، ويؤمن أو يكفر ، ويهتدي أو يضل ... وهو في كل هذا سائر في الطريق المرسوم له ، والذي هو مستور في الغيب عنه ، الى ان يستوي عليه ، وذلك قدره المقدور ، يرى وكأنه من صنعة يده ، وهو في الحقيقة صنعة يد فوق يده يد القدرة القسادة الباهرة : (بل لله الأمر جميعاً) (٣١ : الرعد) (كذلك يفضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) (٣١ : المدثر) ، (هو الذي خلقكم فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن) (٢ : التغابن) انظر في هذا كتابنا « القضاء والقدر » ففيه دراسة مستفيضة لهذه القضية ، (١) .

والذي يستقصي آيات القرآن الكريم المتعلقة بالهداية والضلال للانسان ، وافعال الانسان يلاحظ ان مجموعة من الآيات تؤكد ان الإنسان مجبر مسير لاشأن له في الهداية والضلال (والله خلقكم وما تعملون) ومجموعة أخرى من الآيات تؤكد أن الإنسان مختار لأفعاله يثاب على فعل الخير ويعاقب على فعل الشر يقع في دائرتين ؛ دائرة تسيطر عليه وهو مجبر ، ولذلك لا يحاسب على صفاته او افعاله في هذه الدائرة .

ودائرة أخرى تسيطر عليها ويتحكم بأفعاله ، ولذلك يعاقب على الشر ويثاب على الخير . وهذا متسق مع العدل الإلهي .

ويرد المؤلف على أولئك الذين يقولون ان قصص القرآن خيال وهم وضرب من الأساطير التي كان يعرفها العرب ولم تكن حقيقة واقعة على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال

(١) التفسير القرآني ٤٦ / ١ وما بعدها

لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال اعلم ان الله على كل شيء قدير^(١) : « وهنا اسئلة : فأولاً : هل هذه حادثة وقعت ، ام هي مثل مضروب للعبارة والعظة ؟ والذي نقول به ان كل قصص القرآن وامثاله ، وما ورد في هذا القصص والامثال من اشخاص واحداث ، هو من الواقع الذي لا شك فيه ، واذا كان لنا نحن البشر ان نلجأ الى الخيال والوهم لننسج منها قصصاً ، وذلك حين يعجز الواقع عن ان يسعفنا بما نتصوره ونتمناه ، فان قدرة الخالق جل وعلا لا يعجزها شيء ... تريد فيقع ما تريد ، كما ارادته ، دون قصور او مهل إنها إرادة الله لا يخالطها وهم ، ولا يطوف بها خيال ، ولا تعللها الاماني ... تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ،^(٢) .

والمؤلف في الموقف السابق إنما يرد على طه حسين ومحمد احمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن » وقد حذا الثاني حذو الاول في اعتبار القصص القرآني لوناً من الأساطير والخيال والوهم الذي لم يكن واقعاً حقيقياً. ولا شك أن طه حسين كاف علمانياً في رأيه كما كان الثاني وقد قاس الاثنان الله سبحانه على البشر .

وعندما يتصدى عبد الكريم الخطيب لتفسير قوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً)^(٣) نراه يعقد عنواناً لزواج المتعة والرأي فيه . ويحكي تعلق الشيعة في حل زواج المتعة بهذه الآية ويورد أقوال الطبرسي وهو من كبار علماء الشيعة الإمامية في تفسيره المعروف « مجمع البيان » . ويورد أقوال أهل السنة الذين قالوا بنسخ نكاح المتعة ، واستندوا في هذا الى

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩

(٢) التفسير القرآني للقرآن : ٣ / ٣٢٨

(٣) سورة النساء ، الآية ٢٤

أحاديث تروى عن النبي عليه السلام عند من يقول . بنسخ القرآن بالسنة المتواترة ، ومنهم من يقول إنها منسوخة بالقرآن .

ويورد الأحاديث التي تأخذ بها الشيعة وتضيف إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه - أنه هو الذي أبطل نكاح المتعة ، وأن ذلك كان عن رأي رآه ، واجتهاد اجتهده . فهم والأمر كذلك غير محجوجين بما وضعه عمر ، ما دام في أيديهم كتاب الله الذي أباح المتعة حسب تأويلهم لقوله تعالى : (فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن) وما صح من إجماع المسلمين على أنها كانت جائزة في عهد النبي ﷺ ، وفي خلافة أبي بكر ، وبعض خلافة عمر ، ثم ما يظاهر ذلك من أحاديث ثبت عندهم صحتها ، ولم تثبت عندهم الأحاديث التي قيل إنها حرمتها .

ثم ينتهي إلى حقيقتين - الأولى : أن القرآن الكريم لم يحرم فيه ذكر بإباحة المتعة ، وأن الآية التي يستشهدون بها لهذا إنما هي لتقرير حكم من أحكام الزواج الشرعي الدائم ، وهذا الحكم هو المهر الواجب لصحة عقد الزواج .

والثانية : أن إباحة المتعة كانت مما أباحه الرسول عليه السلام - بإذن ربه - في حال خاصة ، حيث كان المجاهدون من المسلمين في حال غربة ، ولم يكونوا قد اصطحبوا نساءهم معهم ، فخافوا الفتنة على أنفسهم .

وعلى هذا فإن المتعة أبيحت بالسنة في حال خاصة ، في ظرف اضطراري ، وأنها قد حرمت بالسنة بعد زوال هذا الظرف ، وأن عمر بن الخطاب إنما كان موقفه منها هو تأكيد هذا التحريم . فلو أن نكاح المتعة كان مباحاً على إطلاقه لفسد نظام المجتمع ، ولانحلّت روابط الأسرة ، ولما رغب الرجال عنه إلى الزواج واحتمل تبعاته !

والزنا الصراح خير من هذا الزنا المتخذ اسم المتعة مجازاً له (١) !

(١) انظر التفسير القرآني : ٧٤١/٥ - ٧٥٧ .

وكان المؤلف كثيراً ما يذهب إلى ما ذهب إليه المفسرون أو بعضهم في في تأويل لفظة أو جملة قرآنية ويسوغ ذلك ويستحسنه ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين)^(١) : « هذا ويذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الصبر في قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) هو : « الصوم » إذ كان الصوم في صميمه تجربة حية مباشرة لغرس بذرة الصبر وإرواء نبتته ، ولهذا سمي رمضان شهر الصبر . ونحن نأخذ بهذا المعنى للصبر ، ونرى في التعبير القرآني عن الصوم بالصبر إعجازاً من إعجاز القرآن ، حيث كان الصبر والصوم متلازمين ، لا وجود لأحدهما بغير الآخر ، فلا صوم إلا مع الصبر ، ولا صبر إلا ومعه صوم وحرمان . صوم عن مكروه ، وحرمان من محبوب .

ولأن الصوم لا يكون إلا ومن ورائه الصبر ، كان التعبير عنه بالصبر أولى من التعبير عن الصبر بالصوم ، إذ قد يكون الصبر ولا صوم ، ولكن لا يكون الصوم بغير الصبر .

والجهاد في سبيل الله ، والانتظام في صفوف المجاهدين ، والإقدام على ملاقات الأعداء ، والتعرض لمواجهة الموت . ذلك كله لا يحتاج إلى رصيد عظيم من الصبر والإيمان . ولهذا جاءت دعوة الله إلى الجهاد في سبيل الله ، بعد دعوته إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، على المحن والشدائد ،^(٢) .

ومع ذهابه إلى ما كان يذهب إليه بعض المفسرين في تأويل لفظة أو جملة قرآنية فإنه كان يتعسف أحياناً ويبعد في التأويل ولا يوافق فهمه ما أجمع عليه المفسرون في تفسير جملة قرآنية ، على شاكلة قوله تعالى : (ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم إن الله كان على كل شيء شهيداً)^(٣) : « وقوله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم)

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٣ .

(٢) التفسير القواني للقرآن : ١٧٤/٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٣٣ .

إشارة إلى من تربطهم بالمرء رابطة غير رابطة القرابة والدم ، ممن يتبناهم الإنسان ، أو يدخلهم في حياته مدخل الأهل والأقارب ، إذ شد يمينه بهم ، واحتسبهم بعضاً منه في خيره وشره - هؤلاء قد يرون أن لهم حقاً فيما ترك المورث ، الذي كانوا منه ، وكان منهم . وقد جاء صدر الآية الكريمة قاصراً ما ترك المورث على قرابته ، وهم مواليه .

هذا ما أجمع عليه المفسرون في تفسير قوله تعالى : (والذين عقدت أيمانكم) . ولكن الفهم الذي أستريح إليه هو ان المراد بالذين عقدت أيمانكم هم الأزواج والزوجات ، إذ كان لهم نصيب مفروض في الميراث ، مثل ما فرض لموالي الإنسان وعصبته ، ولكن كلمة « الموالي » لم تشملهم ، فكان قوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) بياناً لحق الزوجين في ميراث كل منها لصاحبه ... وليس هناك عقد يمين أو ثقل من العقد الذي عقده الله بين الزوجين ، (١) .

والذي نقوله إن ذهاب صاحب التفسير القرآني للقرآن إلى أن المراد بقوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) هو بيان حق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه - تأويل بعيد ومخالفة صريحة لآيات سابقة وفهم لا أستريح إليه ، ولا يستريح إليه كل مسلم يكن كل تقدير وإجلال لأولئك المفسرين المقانع الذين توارثوا فهم كثير من آيات القرآن عن الرسول عليه السلام وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقد اختلفوا بالمعاقدة هنا ، فقال ابن عباس وابن جبير والحسن وقتادة وغيرهم هي الحلف ، فإن العرب كانت تتوارث بالحلف ، فقرر ذلك بهذه الآية ، ثم نسخ بقوله (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) . وقال ابن عباس أيضاً هي المؤاخاة ؛ كانوا يتوارثون بها حتى نسخ . وعن ابن عباس أيضاً : كان المهاجرون يرثون الأنصار دون ذوي رحمتهم حتى نسخ بما تقدم . وقال ابن المسيب : هي التبني ،

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٧٧٩/٥ وما بعدها .

والنصيب الذي أمرنا بإتيانه هو الوصية لا الميراث ^(١) . فأنت ترى أن ترجمان القرآن ابن عباس والتابعين رضي الله عنهم لم يقولوا بأن المعاقدة بيان لحق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه . والله سبحانه لما ذكر ميراث الفروع من الأصول وميراث الأصول من الفروع أخذ في ذكر ميراث المتصلين بالسبب لا بالنسب ، وهو الزوجية ، يقول تعالى : (ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولدٌ فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولدٌ فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين . . الآية) ^(٢)

أبعد هذا التفصيل في ميراث المتصلين بالسبب ، وهو الزوجية هنا يستريح المفسر إلى فهم قوله تعالى (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) بأنه بيان لحق الزوجين في ميراث كل منهما لصاحبه !

وماذا يقول المفسر في هذه الآية الكريمة : (وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فأرزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) ^(٣) . أليس في هذه الآية خطاب الوارثين أن يتصدقوا من الميراث على قرابتهم وعلى اليتامى وعلى المساكين ؟ حتى قيل إن ذلك على الوجوب ، وقيل على الندب وهو الصحيح .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه بعد أن أمر الوارثين أن يتصدقوا من الميراث على قرابتهم وعلى اليتامى وعلى المساكين شفع هذا الأمر بأمر آخر ، وهو أن يتصدق الوارثون من الميراث على من تربطهم بالمرء رابطة غير رابطة القرابة والدم ممن يتبناهم الإنسان أو يدخلهم في حياته مدخل الأهل والأقارب بسبب الحلف والمواخاة .

(١) انظر البحر المحيط : ٢٣٧/٣ وما بعدها .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢ .

(٣) سورة النساء ، الآية ٨ .

وهذا الذي أجمع عليه المفسرون - ولم يسترح اليه صاحب التفسير القرآني للقرآن - منسجم مع الرحمة والمودة والتعاطف بين المسلمين . وما ذهب اليه عبد الكريم الخطيب لا ينسجم مع الوضع السابق الذي رسمه الإسلام في القرآن والسنة ، لأنه وضع ضيق أناني لا يكون المسلمون فيه كالجسد الواحد .

وأحسب أن الاستاذ الخطيب قد استوحى فهمه الذي ذكرناه من مدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . فقاسم أمين من تلاميذ محمد عبده . وقد لاحظت أن الأستاذ الخطيب يميل في تفسيره مع المرأة ويتعاطف معها تعاطفاً على حساب الفهم الصحيح لكلام الله تعالى . وقد عُرف عن محمد عبده موقفه القاسي من المفسرين القدامى رحمهم الله . ولكن الاستاذ الخطيب يخفي تحامله تارة على المفسرين القدامى ويظهره تارة أخرى . ولا جدال في أنه متأثر بدعوة قاسم أمين إلى ما يسمى بتحرير المرأة . وفي موضع لاحق سوف يظهر للقارىء تحامله الشديد الواضح على المفسرين القدامى وعلى تأثيره بالشيخ محمد عبده وتلميذه قاسم أمين .

ويصرح الاستاذ الخطيب بأنه يعتمد على القرآن وحده في فهم قصة خلق آدم عليه السلام لا على ما جاءت به التفاسير من إسرائيليّات وأساطير على شاكلة قوله : « ونريد هنا أن نقف قليلاً مع قصة الخلق - خلق آدم - كما تحدث عنها القرآن ، لا على ما جاءت به التفاسير من إسرائيليّات وأساطير عن خلق آدم ، فألقت بذلك ظلالاً على آيات الله ، وأخرجت منها مفهوماً لخلق آدم ، يبعد كثيراً عما صرح به منطوق الآيات ومفهومها ويصادم أيضاً بعض حقائق العلم الحديث فيما كشف عنه علم الحياة وأصل الأنواع ، بل ويصادر العقل الاسلامي الذي يفهم القرآن على ضوء هذه التفاسير ، فلا يجد له سبيلاً إلى النظر والبحث عن أصل الإنسان ، ومكانه في سلسلة التطور^(١) .

وفي موضع آخر من تفسيره يؤكد أن اليهود والنصارى قد بدّلوا في

(١) التفسير القرآني للقرآن : ٥٩/١

الكتب السماوية ، يقول في تفسير قوله تعالى : « لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ .. الآية » (١) . « ولا نسأل ماذا كانت لعنة داود لهم ، ولا عن أي شيء كانت تلك اللعنة التي رماهم الله بها على لسان داود ، وكذلك الشأن في اللعنة التي جاءتهم على لسان المسيح ... فقد غيّر القوم وبدّلوا في زبور داود ، وفي إنجيل عيسى . والذي علينا أن نؤمن به ، هو أن الله لعن اليهود هذه اللعنات على لسان هذين النبيين الكريمين » (٢) .

ومع ذلك فإننا نجد الأستاذ الخطيب ينقل عن إنجيل متى : الإصحاح السادس ويرى تشابهاً بين دعاء كان يصلي به المسيح عليه السلام وبين فاتحة الكتاب التي هي قرآن المسلمين في صلاتهم ، يقول : « واستمع إلى هذا الدعاء أو الصلاة : أبانا الذي في السموات .. ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك ، لتكون مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض خبزنا كفافنا أعطنا اليوم ، وأغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير ... لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين ، إنه هو الصلاة التي كان يصلي بها السيد المسيح ، والتي علم أتباعه أن يصّلوا بها ... وأنت ترى ما بين هذه الصلاة التي كان يصلي بها السيد المسيح ، ويعلمها أتباعه ، وبين فاتحة الكتاب التي هي قرآن المسلمين في صلاتهم - أنت ترى ما بين هذه وتلك من تشابه كبير في الروح التي تستولي على الإنسان وهو يتلوها ، خاشعاً متعبداً ... اليس ذلك دليلاً على أنها من معدن واحد ، وأن منزلها السماء ، وحياً من رب العالمين ؟ ثم اليس ذلك دليلاً على ما بين الديانات السماوية من صلات وثيقة قائمة على الحق والعدل ؟ بلى ؟ وإنه لو سلمت الكتب السماوية السابقة من التحريف لالتقت

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٨

(٢) (التفسير القرآني للقرآن : ٦ / ١١٥٤)

مع القرآن في كل ما جاء به ، ولكن التحريف والتعديل باعد بين تلك الكتب وبين القرآن في أصول الدعوة وفروعها على السواء ، (١) .

فأنت ترى أن الأستاذ الخطيب يقر في هذا النص وفي النص السابق بأن أهل الكتاب قد بدلوا وحرفوا وعدلوا في الكتب السماوية السابقة على القرآن . ومع ذلك فإنه يرى تشابهاً كبيراً بين دعاء كان يصلي به المسيح عليه السلام ويعلمه أتباعه وبين فاتحة الكتاب ! إنه يقارن بين نص من كتاب وقع عليه التبديل والتحريف والتعديل وبين نص أو سورة من القرآن الكريم المتواتر عن المسلمين الذي تكفل الله بحفظه ؟ وقد خالف في عمله هذا القرآن الكريم والسنة النبوية .

ففي القرآن أكثر من آية تشير إلى تحريف الكتب السابقة وتبديلها . يقول تعالى : (أففتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يغلون) (٢) .

ويقول تعالى : (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (٣) .

ويقول تعالى : (وإنّ منهم لفريقاً يلوون السنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (٤) . ويقول تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) (٥) .

(١) المرجع السابق . ١ / ٢١ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٧٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٧٨ .

(٥) سورة المائدة ، الآية ١٥ .

ويقول تعالى : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ... الآية) (١)

والنبي محمد عليه السلام يقول : (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم)
فنحن إذن لا نصدق هذا الدعاء الذي نسبته إلى عيسى عليه السلام ولا نكذب به لأننا إن صدقناه فقد يكون محرفاً ومبدلاً ولو في لفظة واحدة ، وإن كذبناه فقد يكون صحيحاً . هذه واحدة . والثانية : إذا كان الاستاذ الخطيب يرى تشابهاً كبيراً بين هذا الدعاء وبين فاتحة الكتاب فإني أرى أن لفظة « أبانا » التي هي في مفتتح هذا الدعاء تفسد هذا التشابه وتكاد تصادره . وفي القرآن الكريم لم نسمع آية يخاطب أي نبي ربه بلفظة « أبانا » فما بال عيسى عليه السلام يخاطب الله سبحانه بلفظة « أبانا » ! ولكنه التعريف والتبديل .

والثالثة : أن الصلات الوثيقة بين الأديان السماوية حاصلة وقائمة من غير أن نستشهد بمثل هذا الدعاء . والقرآن الكريم يؤكد لنا أن محمداً عليه السلام جاء مصداقاً لما معهم .

ويرى الاستاذ الخطيب رأي كثير من العلماء الذين قالوا بأن ما جاء في الربا والخمر ليس من قبيل النسخ ، لأن النسخ هو إزالة حكم شرعي بحكم شرعي آخر . . . والخمر والربا لم يكن قد جاء فيها حكم شرعي بحلها ، ثم جاء حكم شرعي آخر بتحريمها ، فيكون الحكم الثاني ناسخاً للحكم الأول ، وإنما هما ما كان للعرب في الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فوجدهما على ما هما عليه فحرمهما . . . وقد ظلت الخمر غير محرمة إلى صلح الحديبية ، حيث جاء القرآن إذ ذاك بتحريمها وكذلك الربا لم يحرم تحريماً قاطعاً إلا قبيل وفاة النبي عليه السلام (٢) .

والاستاذ الخطيب لا يسيغ القول أبداً بأن شيئاً منسوخاً من هذا القرآن الذي

(١) سورة المائدة ، الآية ١٣ .

(٢) انظر التفسير القرآني للقرآن : ١ / ١٥٧ .

نقرؤه ونتعبد به ! إذ لا حكمة - مع هذا - لآيات كريمة نتلوها ونتعبد بتلاوتها ، ثم لا نعمل بها ، ولا نأخذها مأخذ الجد في تحصيل الخير المشتغل عليه كيانها !

إن النسخ معناه - عند الاستاذ الخطيب - عزل الآيات المنسوخة عن الحياة ، وإحالتها إلى المعاش «أي ما يسمى بالتقاعد عند الموظفين» . وما الاحتفاظ بها في القرآن إلا كاحتفاظ يبحث الموتى محنطة في توابيت !! وذلك مقام تنزه عنه كلام الله رب العالمين .

ولا يريد أن يستكثر في تفسيره من عرض الآيات التي قيل إنها منسوخة ، وهي كما يقول القائلون بالنسخ كثيرة ، تبلغ نحو ثلث القرآن عند بعضهم . وأنه سيلتقي أثناء نظره في كتاب الله مع بعض تلك الآيات التي قيل إنها منسوخة ، وسيكشف عن وجه الحق فيها ^(١) .

وفي موضع آخر من تفسيره يؤكد أنه ليس في القرآن نسخ ، وأن كل آية متلوة فيه ، عاملة غير معطلة ^(٢) .

ويعقد في تفسيره مبحثاً بعنوان « النفقة للمتوفى عنها زوجها » ويرفض أقوال المفسرين بأنها منسوخة بآية المواريث ، وما افترض للزوجة فيها من فريضة الربع أو الثمن . ويقوده ذلك إلى شن حملة ظالمة على قدامى المفسرين في إنقاص حق المرأة وعلى الفقهاء الذين تابعوهم وعلى قدسية كلام السلف في جمود التشريع الإسلامي ، ويدافع عن الإسلام وكأنه متهم في قفص ، يقول في تفسير قوله تعالى : (والذين يُتوفَّون منكم ويذَرُونَ أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن من أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم) ^(٣) : « وللمفسرين رأي في هذه

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن ، ١/١٥٧ - ١٦١

(٢) انظر المرجع السابق ٥٠/٧٩٣

(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٤٠

الآية ، وأنها منسوخة بآية المواريث ، وما فرض للزوجة فيها من فريضة الربع أو الثمن . ونقول - والله أعلم - إنه لا نسخ في هذه الآية الكريمة ، ولا تعطيل لحكمها وحكمتها . وإذا كان من تقدير الله ألا يكون للمرأة مثل هذا الحق ، أفكان من التدبير الحكيم أن يُلوّح لها بهذا البرّ وتلك المواساة في آية كريمة ، ثم تحرّمه وتُتّداد عنه بآية أخرى من آيات الكتاب الكريم . وإذا أقمنا الآية الكريمة على تلك الموازين التي يزن بها علماء التفسير ضوابط الناسخ والمنسوخ لم نجد لها تستقيم عليها أو تستجيب لها ... ولكن الذي حدث كان على غير هذا الاتجاه ، إذ أن تفسير القرآن بدأ في عصر كانت فيه المرأة قد أخذت وضعاً جائراً في المجتمع ، لكثرة ما أزدحم في عصور الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب الجاه والثراء - من الإماء اللاتي غلبن على الحرائر ، واستأثرن بالنصيب الأوفر عند الرجال ، وبهذا صرن الوجه البارز للمرأة في هذا العصر ، في حين أصبحت المرأة الحرّة في بيت الرجل شيئاً كاليا ، لا يراد منه غير أن يكون للرجل امرأة ، يكون له منها الولد أو الأولاد ! وحين أخذ المفسرون ينظرون في كتاب الله ، وفي الآيات التي تمس المرأة ، وتقرر الأحكام التي تربط بينها وبين الرجل ، وتحديد ما لها من حقوق وما عليها من واجبات - حينئذ كانت نظرة المفسرين إلى المرأة واقعة على هذه الصورة الشائئة لها ، المعزولة عن الوضع الصحيح الذي أقامتها الشريعة عليه ... ومن هنا كان تأويل آيات الكتاب الكريم واقعاً تحت هذا المفهوم الجديد للمرأة ، متأثراً به ، مقدوراً بقدره ! وقد جاء الفقهاء على آثار المفسرين فنظروا من وراء نظرتهم ، وبنّوا أحكامهم على أساس تلك النظرة ، فبخسوا المرأة حقها ، وأزالوها عن تلك المنزلة التي رفعها الإسلام إليها ، وأعادوها إلى أنزل من الوضع الذي كانت عليه في الجاهلية . والشيء الذي يلفت النظر في هذا هو أن كلمة المفسرين الأولى في تأويل كتاب الله ، كانت طريقاً سلكه كل من جاء بعدهم ، فنظر بنظرهم ، وأخذ مأخذهم ، إذ وجد من الحرج أن يعيد نظره فيما نظر فيه السلف الذين كانوا أقرب إلى عصر النبوة وإلى تنسّم

أنسامها الطيبة . وأحسب أنه لو تخففنا من هذا الشعور إلى الحد الذي يسمح لنا بحرية الحركة ، واستقلال النظرة لوجدنا بين أيدينا التشريع الإسلامي الذي يقيمنا على أوضاع سليمة مستقرة في حياتنا المادية والروحية ، وفي نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكانت صحتنا للدين صحة نانس بها ، ونطمئن اليها ، ونثق فيها ، ولذهب ما بيننا وبين الدين من جفوة ، ولتحولت نظرتنا تلك الفاترة الضائعة في اتصالنا به ، إلى نظرة حية واثقة من أنها إنما تنظر إلى الحياة كلها ، وإلى أجل ما في هذه الحياة ، حين تنظر في هذا الدين ، وتقيم حياتها عليه !

وأكثر من هذا - فإننا لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول - الكتاب والسنة - لوجدنا أن كثيراً من القضايا الهامة في حياتنا التي جاءت إلينا باسم الدين ، وصارت وجهاً من وجوهه ، ومادة من مواد دستورهِ ، لم تكن من الدين ، وإنما وقعت من تأويلات ، تحكم فيها يومئذ واقع الحياة وتحيف فيها المتأولون ! إننا لو فعلنا هذا لأخرسنا تلك الألسنة التي ترمي الإسلام بالجهود والتخلف ، وتحكم عليه بأنه دين الحياة القبلية ، الذي لا يصلح لحياة المجتمع المتحضر ، ولا يتفق والزي الذي يتزيا به إنسان القرن العشرين ! » (١)

ونحن ندرك أن أصحاب النسخ تساهلوا في الاكثار من القول بالناسخ والمنسوخ ، واختلفوا في كثير من الآيات من حيث الأحكام أو النسخ . ولكننا لا نسيغ القول أبداً بإنكار النسخ في هذا القرآن الذي نقرؤه ونتعبد به . والحكم بالنسخ لا ينبغي أن يصدر بناء على اجتهاد ، وإنما يجب أن يُتلقى عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام . فكل دعوى نسخ لم تؤثر عن عصر الرسالة بسند صحيح هي دعوى لا دليل عليها ، ولا يجوز أن تُقبل بحال . وكل قول بالنسخ لم يُسند إلى رسول الله عليه السلام أو إلى صحابته حكايته

(١) التفسير القرآني للقرآن ، ٢/٢٨٨ - ٢٩٥

عنه بطريق صحيح متصل - هو قول لم يعتمد على دليل فلا يصح أن يقبل كذلك . واليهود تزعموا الله عز وجل عن البداء ، وهم ربطوا بين النسخ والبداء ، ليتخذوا من استحالة البداء على الله ذريعة للحكم باستحالة النسخ عليه . ونصارى هذا العصر ينكرون جواز النسخ عقلاً ، كما ينكرون وقوعه ، ليصلوا من هذا الإنكار إلى غاية حرصوا على تحقيقها ، وهي بقاء دينهم إلى جانب الإسلام ، بحجة أن شريعة لا تنسخ بشريعة ، وأن حكماً في شريعة لا ينسخ بحكم في شريعة بعدها (١) .

وقد أجمعت الأمة الإسلامية منذ عصر الصحابة على أن النسخ جائز وواقع ، وعلى أن من بين أحكام الفقه الاسلامي في مذاهبه جميعاً - أحكاماً حلت محل أحكام كانت ثم نسخت . وهذا الإجماع يلحظه بسهولة كل من يدرس الفقه المقارن ، وكل من يتصدى لدراسة الأحكام الشرعية : دراسة تربطها بمصادرها الأولى ، وتبين تدرجها ، وحلول أحكام منها محل أحكام كانت قد شرعت ثم رفعت ! كذلك يلحظ هذا الإجماع في يسر كل من يعنى بدراسة علوم القرآن ، وبالنظر في تلك الكتب التي ألّفت فيها ، على كثرتها واختلاف أزمانها ، فإنها لم يخلُ كتاب منها فيما رأينا ، على كثرتها واختلاف أزمانها من دراسة للنسخ ، بجملة أو مفصلة حسب منهج مصنفه (٢) .

واستساغ الرافضة - أخزاهم الله - أن يربطوا بين النسخ والبداء ، ليتخذوا من جواز النسخ ووقوعه ذريعة إلى وصف الله سبحانه وتعالى بالبداء . فالله عز وجل يجوز البداء عليه ، والنسخ مظهر من مظاهر البداء عندهم (٣) .

ولكن عالماً من علماء المفسرين في القرن الرابع الهجري اشتهر عنه أنه ينكر النسخ ، وكان له تفسير للقرآن الكريم (جامع التأويل) ، حرص

(١) انظر النسخ في القرآن الكريم : ٦/١ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٥

(٢) أنظر المرجع السابق : ٢٦٦/١

(٣) انظر المرجع السابق : ٢٢/١

فيه على تفنيد كل دعاوى النسخ لآيات الذكر الحكيم ، وذلك بتأويلها وإبطال شبهة التعارض بينها وبين الآيات المدّعى أنها ناسخة لها . هذا العالم المفسر هو أبو مسلم الأصفهاني المعتزلي محمد بن بحر المتوفى سنة ٣٢٢ هـ . وقد أنكر أن يكون في القرآن آيات منسوخة ، واستدل لهذا الإنكار بآية رأى أنها تدعّمه . وهذه الآية هي قوله تعالى في وصف القرآن الكريم : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . فإنها تقرّر أن أحكام القرآن لا تبطل أبداً ، والنسخ إبطال ، فهو لا يرد على هذه الأحكام . وقد ردّ عليه العلماء وفنّدوا أقواله (١) .

وقد استدل العلماء من الصحابة والتابعين على جواز النسخ ووقوعه بآيات من القرآن الكريم ، وبالأقوال التي أسندت إلى رسول الله عليه السلام بطريق صحيح متصل وهذه الآيات ، قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) (البقرة ، ١٠٦) ، وقوله تعالى : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) (النحل ، ١٠١) ، وقوله تعالى : (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) (الرعد ، ٣٩) .

فأنت ترى أن الاستاذ الخطيب بإنكاره النسخ في القرآن الكريم قد تابع أبا مسلم الأصفهاني « صاحب جامع التأويل » وهو بذلك كابر العيان واتبع غير سبيل المؤمنين ، وخالف إجماع الأمة الإسلامية منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم في أن النسخ جائز وواقع في القرآن الكريم . وليت الاستاذ الخطيب استدّل بآية قرآنية كما فعل أبو مسلم الأصفهاني مثلاً ، ولكنه اعتمد على العقل ، فقرر أن النسخ معناه عزل الآيات المنسوخة عن الحياة ، وإحالتها إلى المعاش ... وما الاحتفاظ بها في القرآن إلا كالاحتفاظ بحث الموتى بحنطة في توابيت وذلك مقام تنزه عنه كلام الله رب العالمين !

(١) انظر المرجع السابق ، ١/٥٠ وما بعدها .

وفي هذا جرأة على دين الله وتشبيه قبيح لآيات الله ؛ تشبيه الآية المنسوخة برجل أحيل إلى المعاش ومحنة ميت محنطة في ثابوت ! وهذه الجرأة على دين الله من آثار الشيخ محمد عبده الذي يسمى الأستاذ الإمام ! لأنه هو الذي فتح الباب على مصراعيه لأمثال الأستاذ الخطيب في سلوك هذه الجرأة على دين الله وما يسمونه التقبيح والتحسين العقليين . إن عقل الأستاذ الخطيب لم يحسن له وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم فأنكر النسخ وشبه آيات الله المنسوخة بهذا التشبيه . وكان العقل هو مناط الحكم في كل ما ورد في القرآن الكريم ! وإذا كان العقل كذلك فما الحاجة إذن إلى الرسل عليهم السلام وإلى الشرائع السماوية ! إن الأستاذ الخطيب فعل كما فعلت المعتزلة عندما قاسوا الله سبحانه على الإنسان في أصولهم الخمسة فوقعوا فيما وقعوا فيه من تخبط ومن خطأ في المنهج .

وتحاملُ الأستاذ الخطيب على المفسرين والفقهاء واضح ، إذ قرر أن المفسرين من السلف الصالح حين فسروا القرآن تأثروا بواقع الحياة الإسلامية التي كانت تعج بالإماء ، فكان تأويل آيات الكتاب الكريم واقعاً تحت تأثير هذا المفهوم الجديد للمرأة ، وقد جاء الفقهاء على آثار المفسرين فنظروا من وراء نظرتهم ، وبنوا أحكامهم على أساس تلك النظرة.

إننا لاننكر وجود الاماء في المجتمع الإسلامي بفعل الفتوح . ولكننا ننكر غلبة الإماء على الحرائر ، وأنهن صرن الوجه البارز للمرأة في هذا العصر ، في حين أصبحت المرأة في بيت الرجل شيئاً كالياً ، لا يراد منه غير أن يكون للرجل امرأة ، يكون له منها الولد أو الأولاد . وهذا كلام لا يقوله إلا المستشرقون الحاقدون الذين يرسمون صورة المجتمع الإسلامي في العصر العباسي وغيره من خلال كتاب الف ليلة وأشعار أبي نواس وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني .

في حين لو رجعنا الى كتب المؤرخين الاسلاميين الثقافات مثل الطبري

والمسعودي وابن الاثير وغيرهم لما وجدنا مثل هذه الصورة التي قدمها الأستاذ الخطيب . ونعتقد أن أحكام الأستاذ الخطيب تعتمد على القياس الشمولي . وهذا منهج خاطيء .

ولا جدال في أن التفسير بالمأثور يعتمد على أقوال الرسول عليه السلام ، وأقوال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، في القرآن وشرح كثير من ألفاظه وجمله . والتفسير بالمعقول كان لا يبتعد كثيراً عن المنقول والمأثور وإن كان يعتمد أول ما يعتمد على الاجتهاد العقلي .

أما الفقهاء فإنهم بدون جدال قد استفادوا من أقوال المفسرين واجتهاداتهم في فهم كتاب الله تعالى . ولكنهم لم يلغوا عقولهم واستعدادهم العقلي لاستنباط الأحكام من الكتاب والسنة . ولا يمكن الفصل بين جهود المفسرين وجهود الفقهاء . فهناك أكثر من مفسر له اجتهادات مثل الطبري ، وهناك أكثر من فقيه له تفسير فقهي كالجصاص والقرطبي صاحب الجامع لأحكام القرآن .

وأما قوله : « والشيء الذي يلفت النظر في هذا هو أن كلمة المفسرين الأولى في تأويل كتاب الله كانت طريقاً سلكه كل من جاء بعدهم ، فنظر بنظرهم ، وأخذ مأخذهم ، إذ وجد من الخرج أن يعيد نظره فيما نظر فيه السلف ، الذين كانوا أقرب إلى عصر النبوة و إلى تنسم أنسامها الطيبة » ، فاتجاه طبيعي لا يلفت النظر ، بل خلافه هو الذي يلفت النظر . وكلامه يحمل الرد عليه ، لأن الصحابة رضي الله عنهم هم تلاميذ الرسول عليه السلام ، فالصحابة وتلاميذهم التابعون ومن جاء بعدهم كانوا أكثر فهماً لمراد الله تعالى ممن جاء بعدهم . فنحن مثلاً نفهم شعر المتنبي عن أولئك الذين عاصروه وشرحوا أشعاره ، ونحن نفهم شعر أحمد شوقي أكثر من الذين يأتون بعدنا إلى الحياة .

وأما قوله : « وأحسب أنه لو تخفّفنا من هذا الشعور إلى الحد الذي يسمح لنا بحريّة الحركة واستقلال النظرة لوجدنا بين أيدينا التشريع الإسلامي الذي يُقيمنا على أوضاع سليمة مستقرة في حياتنا المادية والروحية ، وفي نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكانت صحبتنا للدين صحبة نانس بها ، ونطمئن إليها ، ونثق فيها ، ولذهب ما بيننا وبين الدين من جفوة ، ولتحولت نظرتنا تلك الفاترة الضائعة في اتصالنا به إلى نظرة حية ، واثقة من أنها إنما تنظر إلى الحياة كلها ، وإلى أجل ما في هذه الحياة ، حين تنظر في هذا الدين ، وتقيم حياتنا عليه ، ، ففيه تليق وبعده عن الحق والواقع . فالتشريع الإسلامي سار مع المسلمين منذ أيام الرسول عليه السلام إلى أن ألغى أتاتورك الخلافة في استانبول سنة ١٩٢٤ م . ولم يقل واحد من العقلاء إن المسلمين استعاروا تشريعاً آخر ليسدّ النقص في التشريع الإسلامي . وكل من يدرس الفقه الإسلامي يلاحظ أن الفقهاء قد استنبطوا من مصادر التشريع الإسلامي معالجات لمشكلات قد تحدث بعد قرون . وفي ذلك دلالة قاطعة على عراقة الفقه الإسلامي وأصالته وثرائه بالأحكام والمعالجات . وليس هناك جفوة بين المسلمين وبين دينهم . فالمسلمون لم يبتعدوا عن دينهم ، بل الكافر المستعمر هو الذي شن غزواً ثقافياً ثم عسكرياً في القرن التاسع عشر والعشرين على المسلمين ، وفرض نظامه الرأسمالي بالقوة على المسلمين ، وعيّن من أبناء المسلمين حكاماً يحرسون نظامه ومصلحه .

ففي الوقت الذي ظلت أحكام الإسلام وأنظمتها ثابتة في أصولها خلال ثلاثة عشر قرناً نجد نظاماً كالنظام الشيوعي يجري عليه التعديل والتحويل إلى درجة أنه فقد كثيراً من قواعده وأركانه . ونظرة الناس ليست فاترة إلى الدين ، بل إن جهلهم به وانحطاطهم الفكري ، بفعل الاستعمار الفكري والثقافي ، هو الذي جعلهم حائرين لا يعرفون طريق النهوض الصحيح .

وأكبر دليل على ذلك أنه لو قام الآن الحكم الإسلامي لوجدت المسلمين يهرعون الى تأييده والالتفاف حوله ، لأنه عاش مع آبائهم وأجدادهم منذ قرون ، يوم أن كانت دولة الاسلام هي الدولة الأولى في العالم .

وأما قوله : « وأكثر من هذا فإننا لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول - الكتاب والسنة - لوجدنا أن كثيراً من القضايا الهامة في حياتنا التي جاءت إلينا باسم الدين وصارت وجهاً من وجوهه ، ومادة من مواد دستورهِ ، لم تكن من الدين ، وإنما وقعت من تأويلات ، تحكم فيها يومئذ واقع الحياة وتحيف فيها المتأولون ! إننا لو فعلنا هذا لأخرسنا تلك الألسنة التي ترمي الإسلام بالجهود والتخلف ، وتحكم عليه بأنه دين الحياة القبلية ، الذي لا يصلح لحياة المجتمع المتحضر ، ولا يتفق والزي الذي يتزيا به إنسان القرن العشرين ! » فكلمة حق يُراد بها باطل . أما الحق فقوله « لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول - الكتاب والسنة » . وهذا قول يوافقه عليه جميع المسلمين . ولكن ما القضايا الهامة في حياتنا التي جاءت إلينا باسم الدين ، ولم تكن من الدين ؟ وأغلب الظن أن هذه القضايا الكثيرة الهامة كائنة في خاطر الأستاذ المنهزم روحياً وفكرياً ! لأنه يريد شهادة من المستشرقين والمبشرين يشهدون فيها على روعة الإسلام وتطوره وصلاحه لكل عصر . عند ذلك يقتنع الأستاذ بأن الإسلام متحضر وعصري . ونسي أن العداء بين الكفر والإيمان قائمٌ منذ نبوة محمد عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وأريد أن أطمئن الأستاذ بأن هذه الألسنة لن تخرس ما دامت السنة كفاراً ، وستحارب الإسلام بكل الوسائل ما دام هناك إسلام . وأذكره بقول الله تعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبّع ملّتهم) .

والأستاذ الخطيب لم يكن موفقاً في كثير من عباراته التي تغضب الله

ورسوله وجماعة المؤمنين ، وأحسبه من الداعين للتآخي بين الاسلام وأصحاب الأديان الأخرى ، فهو يحامل كثيراً على حساب الاسلام ومبادئه ، فهو يقول : « وأحسب أن كثيراً من إخواننا المسيحيين قد يسوءهم أن يقع هذا » (١) . فالمسلم الأمي يعرف أن الأخوة في الدين وليست في غيره . إلا إذا أراد الأستاذ الخطيب أن يعتبر أو يعد الأخوة في العروبة . وأنا على يقين من أن الأستاذ الخطيب لا يرضي الله سبحانه بعبارته ولا يرضي النصارى ، لأنهم لا يعتبرونه أخاً لهم إلا إذا دخل في دينهم ، بدليل الآية التي أوردناها . وأود أن أذكره بهذه الآية : (ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور) (٢) .

وقول الأستاذ الخطيب : « أي بسبب حرمة الحياة الانسانية وقداستها وكرامتها فرض الله على بني إسرائيل هذا الفرض » (٣) . وإنني لا أعترض على قوله : « حرمة الحياة الانسانية وكرامتها » . ولكني لا أوافقه على قوله : « وقداستها » ، أي قداسة الحياة الانسانية . وهذه العبارة قد ينخدع بها كثير من المسلمين المثقفين فضلاً عن السذج والجهلة . فالحياة هي خلق من خلق الله مثل خلق الكون والانسان . والحياة يدركها الانسان بمفرده ، فإذا مات لم يعد يدركها . والقدااسة تعني التنزيه عن النقص . ولا يتنزه عن النقص إلا الله سبحانه وتعالى .

وهناك غير هذه المآخذ التي أضرب عنها صفحاً مخافة الخروج عن حدود البحث وإطاره العام .

(١) التفسير القرآني للقرآن : ١٠٠٠/٦

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٩

(٣) التفسير القرآني للقرآن : ١٠٨١/٦ وما بعدها .

وقد يقول معترض : وكيف أدرجت تفسير الأستاذ الخطيب في جملة التفسير ذات الاتجاه السِّلَفي وهو على هذه الشاكلة ؟ فنقول :

إن تفسير القرآن بالقرآن جرى عليه المفسرون من السلف رحمهم الله . وعنوان تفسيره : « التفسير القرآني للقرآن » . وقد لاحظنا أنه نحا منحى المفسرين من السلف إلى التفسير الموضوعي في مواضع عديدة من تفسيره . ولا جدال في أنه كان متأثراً بمدرسة الشيخ محمد عبده في التفسير . ويمثل ذلك أصدق تمثيل محاولاته للتوفيق بين الأديان وجرأته وتحامله على المفسرين القدامى والفقهاء رحمهم الله ، ومخالفته إجماع المفسرين في كثير من تفسيره .

* * *

الفصل الثاني

اتجاه عقلي توفيقى يوفق بين
الاسلام وبين الحضارة الغربية

الشيخ محمد عبده

(١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

رائد هذا الاتجاه هو الشيخ محمد عبده المصري الأستاذ الإمام ، كما لقبه تلميذه محمد رشيد رضا الطرابلسي الشامي .

ومن رجال هذه المدرسة : محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار وصاحب تفسير القرآن الحكيم المشتهر باسم تفسير المنار .

والشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر آنذاك .

وعبد العزيز جاويز ، كانت له محاولات في التفسير على طريقة الشيخ محمد عبده .

وغير هؤلاء جاؤوا بعمد وتأثروا باتجاه هذه المدرسة من قريب أو بعيد .

وأرى ألا أتعرض لحياة الشيخ محمد عبده كلها ، لأنه معروف لدى كثير من الناس . أما كل ما يتصل بحياته من تصوير اتجاهه في التفسير فإننا سنقف أمامه حتماً ونتصدى له .

وقد درسه كثير من الباحثين المسلمين والمستشرقين . فالأستاذ أحمد أمين عدّه من زعماء الإصلاح . والدكتور عثمان أمين اعتبره رائد الفكر المصري . والأستاذ عباس العقّاد عدّه عبقرى الإصلاح والتعليم . والأستاذ محمد حسين

الذهبي صاحب كتاب « التفسير والمفسرون » عده رائد اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر .

لقد ولد محمد عبده في فترة بدأت فيها أفكار الغرب الرأسمالي ومقاييسه في الحياة ترد مع المبعوثين إلى أوروبا للدراسة . وفي تلك الفترة ازدادت حملات المستشرقين والمبشرين على الإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ . وقد تحول محمد عبده من الجامع الأحمدى إلى الجامع الأزهر ، لأن الأزهر هو المثل الأعلى للتعليم في المعاهد الدينية . وفي الأزهر يدرس الفقه وعلم أصول الفقه والتفسير والحديث والمنطق والنحو والبلاغة . وفي سنة ١٢٩٤ هـ ينال شهادة العالمية من الأزهر . ويأتي جمال الدين الأفغاني إلى مصر . ويتصل به محمد عبده ويستمع إلى محاضراته في بيته وفي مقهاه الذي يجلس فيه وحيث يكون زائراً أو مزموراً . وأحسن الشيخان وحدة الغرض والانسجام فتلازما وتحابا .

وبذرت بذرة الثورة العرابية . وكان محمد عبده على رأس الوقائع وإدارة المطبوعات . ينقد الشؤون الاجتماعية والعادات الدينية . ثم سجن ونفي مع العرابيين . ويصل إلى بيروت . ثم لا يلبث أن يدعو أستاذه السيد جمال الدين ليوافيه إلى باريس فيلي الدعوة ، ويشتركان في إخراج مجلة « العروة الوثقى » . ثم تحتجب هذه المجلة بعد ظهور ثمانية عشر عدداً منها . ويعود محمد عبده إلى بيروت . فأخذ يدرس تفسير القرآن في مسجدين من مساجد بيروت على الطريقة التي اتبعها بعد في مصر ، ويشغل نفسه بالتدريس في المدرسة السلطانية ببيروت أكثر الوقت . ثم يصدر العفو عن الشيخ محمد عبده بسبب شفاعة اللورد كرومر لدى الخديوي توفيق ، ويعود إلى مصر ، ويعين قاضياً أهلياً في محكمة بنهاثم الزقازيق ثم عابدين ، ثم عين مستشاراً في محكمة الأستئناف .

وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية وهو قاضٍ في عابدين ، وجد فيها حتى بلغ شأواً لا بأس به . وقد أطلعه تعلمها على ميدان فسيح استفاد منه كثيراً مما قرأ في اللغة الفرنسية ، وقد ترجم كتاب التربية - لسبنسر بعد أن نقل من الإنجليزية إلى

الفرنسية ، وكان يكمل تعلمه الفرنسية برحلاته إلى سويسرا وفرنسا ، ويستمع إلى بعض المحاضرات ويقابل بعض العظماء وكما يقول هو ليحدد نفسه . وفي عهد الخديوي عباس عُين عضواً في مجلس إدارة الأزهر . ثم عُين مفتياً للديار المصرية . وساءت العلاقة بينه وبين الخديوي عباس . ويُفقي لبعض مسلمي الترنسفال بجواز لبس البرنيطة لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم مما أهاج الرأي العام في مصر ضده . ويتخذ أهم وسيلة لإصلاح العقيدة تفسير القرآن الكريم ، جعله ديدنه يُدرسه في بيروت في مسجدين ويدرسه في أحد مساجد القاهرة وهو قاض ، ويدرسه في الأزهر وهو في القضاء والإفتاء ، ويتخذ موضوع محاضراته في الجزائر تفسير سورة العصر ، ويدرس جزء عم لتلاميذ مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية ، وينشر دروسه في التفسير في مجلة المنار ليُقرأ في العالم الإسلامي . ويدافع عن الإسلام ، فيرد على هانوتو وفرح انطون (١) .

ويذكر الباحثون ان محمد عبده كان يعتنق أكثر آراء أستاذه الأفغاني ، لكنه بعد عودته من باريس وفشل الدعوة إلى الثورة السياسية عدل آراءه الأولى ، لا من طريق السياسة والثورة ، بل من طريق التعليم والتنوير والتربية الدينية والاجتماعية . وكان لهذا التعديل والتحول أثره الكبير على اتجاهه في تفسير القرآن الذي جعله مرتكزاً وأساساً لدعوته الإصلاحية ، وتنقيته للعقيدة الإسلامية مما أصابها من دخيل وبدع وأوهام .

وإذا أراد الباحث معرفة ما أنتجه الشيخ محمد عبده من عمل في التفسير فإنه يجد تفسيره المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذي ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية في تفهيم التلاميذ معاني ما يحفظون من سور هذا الجزء ، وعاملاً للإصلاح في أعمالهم وأخلاقهم . ولقد أتم تفسير هذا الجزء في سنة ١٣٢١ هـ ببلاد المغرب ، وبذل جهده كما يقول في أن تكون العبارة سهلة التناول ، خالية من الخلاف

(١) نقلت هذا مختصراً من كتاب محمد عبده للأستاذ أحمد أمين .

وكثرة الوجوه في الإعراب ، بحيث لا يحتاج في فهمها إلا أن يعرف القارئ كيف يقرأ ، أو السامع كيف يسمع ، مع حسن النية وسلامة الوجدان .

وله تفسير مطول لسورة العصر كان قد ألقاه على هيئة محاضرات أو دروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها في سنة ١٩٠٣ م .

وله بعض بحوث تفسيرية عالج فيها بعض مشكلات القرآن ، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات ، مثل شرحه لقوله تعالى في الآية (٧٨) من سورة النساء : (وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا) . وقوله في الآية (٧٩) من السورة نفسها : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) . وقد جمع بينها ، وحاول توفيق بين ما يُظن فيها من تنافٍ وتضاد ، وهو نسبة أفعال العباد ثارة إلى الله تعالى ، وثارة إلى العبد .

ومثل شرحه لقوله تعالى في الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) من سورة الحج (وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ) ... إلى قوله (أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ) وإبطاله لقصة الغرانيق ، وتفنيده لما بُني عليها من تفسير يذهب بعصمة النبي ﷺ ، ويرفع الأمان عن الوحي الذي تكفل الله بحفظه .

ومثل تفسيره لقول الله تعالى في الآية (٣٧) من سورة الأحزاب : (وَإِذَا تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة ، تصوّر النبي ﷺ بصورة الرجل الشهواني ، وإبطاله لكل ما أثير

حول هذه القصة - قصة زيد وزينب - من مطاعن رُمي بها رسول الله ﷺ زوراً وبهتاناً .

ومن آثار الشيخ محمد عبده في التفسير، تلك الدروس التي ألقاها في الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه ، وكان ذلك بمشورة تلميذه محمد رشيد رضا ، وإقناعه به ، كما هو في مقدمة تفسيره (١) .

وقد ابتدأ الشيخ محمد عبده بدرس التفسير في غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ = ١٨٩٧ م وانتهى عند تفسير قوله تعالى في الآية (١٢٦) من سورة النساء (والله ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً) . وذلك في منتصف المحرم ١٣٢٣ هـ إذ توفي - رحمه الله - لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها (٢) .

ودروس التفسير هذه التي قيدها عنه طلابه تعد أثراً من آثاره في التفسير وإن لم يدون هو شيئاً منها. وإن تلميذه محمد رشيد رضا يوضح ذلك في مقدمة تفسيره المنار ، يقول: « وكنتُ أكتب في أثناء الدروس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه ، وأُمدّه بكل ما أتذكره في وقت الفراغ . ولم البث أن اقترح عليّ بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الإخوان بمصر أن أنشره في المنار فشرعتُ في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ هـ وذلك في المجلد الثالث من المنار . وكنتُ أولاً أُطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع كما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه . فكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما يراه قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به . على أنه لم يكن كله نقلاً عنه ومعزواً إليه ، بل كان تفسيراً

(١) تفسير المنار : ١٢/١ - ١٤ . الطبعة الرابعة .

(٢) انظر المرجع السابق : ١٤/١ ، والتفسير والمفسرون ٢١٨/٣ وما بعدها

للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العسالية جل ما استفاده منها ، لذلك كنت أعزو اليه القول المنقول عنه إذا جاء بعد كلام لي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعتُ بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه ، إما قبل طبعه وهو الغالب ، وإما بعده وهو الأقل ؛ لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبت عنه في مذكرات الدرس ، لأن إقراره إياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو ، (١) .

هذا كل ما وصل اليه من إنتاج الشيخ محمد عبده في التفسير ، سواء أكان تأليفاً أم تدريساً .

ونستطيع أن نقول إن تأليف محمد عبده في التفسير كان محدوداً . أما تدريس التفسير فكان أعظم وأوسع ، فقد ألقى دروساً في التفسير بالجامع الأزهر طيلة ستة أعوام ، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن . كذلك ألقى دروساً في التفسير بمدينة الجزائر ، كما ألقى دروساً في التفسير أيضاً في مساجد بيروت ... في المسجد الكبير ، وفي مسجد الباشورة . وكانت طريقة الشيخ محمد عبده في قراءة الدرس في التفسير على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير كما يحدثنا عن ذلك تلميذه محمد رشيد رضا (٢) . وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكل في ذلك على عبارة تفسير الجلالين الذي هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرأها أو ينتقد منها ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة (٣) .

(١) تفسير المنار : ١ / ١٥ .

(٢) انظر كتاب التفسير والمفسرون : ٣ / ٢٢٣ .

(٣) انظر تفسير المنار : ١ / ١٤ وما بعدها - الطبعة الرابعة .

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلى كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حق لا يتأثر بفهم غيره . وكل ما كان منه أنه إذا ما عرض له وجه غريب من الإعراب ، أو كلمة غريبة في اللغة رجع إلى بعض كتب التفسير ، ليرى ما كُتب في ذلك ، وقد حدث عن نفسه بذلك فقال : « إنني لا أطلع عندما أقرأ ، لكنني ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الإعراب ، أو كلمة غريبة في اللغة » (١) .

ويجب علينا - قبل البدء بدراسة اتجاه الشيخ محمد عبده في التفسير الذي يرمي إلى التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية - أن نشير إلى جملة من الأمور التي لا يمكن - في تصورنا - توضيح هذا الاتجاه وتبيين معالمه إلا بها . وهي هذه :

أولاً : إن الاتجاه الذي تزعمه الشيخ محمد عبده في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ظهر بين نزعتين : غربية وإسلامية . وهذا الاتجاه الجديد عرضة لسخط المتفرنجين والداعين بدعوة الاسلام كليهما - كما يقول كرومر - وإن كان سخط الاولين أقل من سخط الآخرين .

ولنحس نذهب الى ما ذهب اليه الدكتور محمد محمد حسين في أن حقيقة الأمر في حركة الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين الافغاني الذي اقترن اسمه به في الشطر الأول من حياته لا تزال تحتاج إلى مزيد من الوثائق التي توضح موقفها وتزيل ما يحيط به من غموض ومن تناقض فيما اجتمع حولها من أخبار . فبينما ينزله محمد رشيد رضا - ومعه كل أتباع الشيخ محمد عبده الذين ازداد عددهم على الأيام - منزلة الاجتهاد في الدين ويرفعونه إلى أعلى درجات البطولة والإخلاص الذي لا تشوبه شائبة ، كان كثير من علماء الشريعة المعاصرين له يتهمونهم بالمروق من الدين والانحراف به وتسخيرهم لخدمة العدو . فإذا تركنا هؤلاء وأولئك ممن قد يجد الطاعنون سبيلاً إلى رميهم بالتحيز والمحاباة أو التحامل

(١) انظر المرجع السابق : ١٤/١

والتزمت وجدنا كثرة من النصوص في كتب ساسة الغرب ودارسيه تصور رأيهم فيه وفي مدرسته وتلاميذه ومكانه من الفكر الحديث . وهي جميعاً تتفق على تمجيده والإشادة به وبما أداه للاستعمار الغربي من خدمات بإعاقته على تخفيف حدة العداء بينه وبين المسلمين ، وهو عداء يستتبع آثاراً سياسية تضر مصالحه وتهدد بإذكاء الثورات التي لا تفتر ولا تنقطع ^(١) .

ونحن - على سبيل المثال لا الحصر - نورد هذا النص للمستشرق ه . أ . ر . جيب ، يقول : « فمحمد عبده بالنسبة للمبدأ كان يرفض قبول مبدأ السلطة أو التقليد بلا مناقشة كما يقال في الإسلام . وكان هذا الرأي بمثابة خشبة إنقاذ للنزعة العلمانية الجديدة . إلا أنه أثار في مؤلفاته المنشورة كما في كتابه عن الفقه الموحد الديالكتيكية العقلانية التي عرفها الفقهاء القدماء . وتطرف تلامذته ومن بينهم الشيخ السوري رشيد رضا في اتباع هذه الطريق إلى حد ينطوي على دلالة . فها هم يرفضون حدود التقليد المعترف به في نطاق مؤسسي المذاهب الأربعة ، والاقتصار في هذا التقليد على رأي من يطلق عليهم السلف الأكبر من فقهاء القديم ، كما تعرضوا للمفاهيم الحنبلية المتزمتة » ^(٢) .

ثانياً : اتخذ محمد عبده تفسير القرآن أساساً لنزعته الإصلاحية ؛ إصلاح المجتمع ، والتجديد الديني . وهذه النزعة الإصلاحية وإن كانت تتصل جذورها بالإسلام ومواقف بعض علماء المسلمين إلا أنها تأثرت بشكل قوي بمفاهيم الفكر الرأسمالي .

ثالثاً : يمثل اتجاه محمد عبده في تفسير القرآن مرحلة الدفاع عن الإسلام وكأنه في قفص الاتهام . وقد رد على هانوتو وفرح انطون . وله كتاب : « الإسلام والرد على منتقديه » ، وكتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » .

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٣٠٧/١ وما بعدها .

(٢) الاتجاهات الحديثة في الإسلام : ص ٦٢ ،

رابعاً : علاقاته المريبة باللورد كرومر وبالمستشرقين ورجال الفكر الغربي .
ويتمثل ذلك في هذه المواقف :

أ - صدور العفو عن الشيخ محمد عبده وهو في منفاه ببيروت ليعود إلى مصر بسبب الضغط البريطاني أو ضغط اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر . وقد عفا عنه الخديوي توفيق . ويحاول الاستاذ أحمد أمين الدفاع عن هذه العلاقة بحجج ومعاذير غير مقبولة ^(١) . وعندما هم الخديوي عباس بعزل محمد عبده من منصب الإفتاء لم ينقذه إلا اللورد كرومر ، فقد صرح : « إنه لا يوافق على عزله من منصب الإفتاء مهما كانت الأحوال ، ما دام موجوداً » ^(٢) .

ب - في بداية صيف ١٨٨٤ رحل محمد عبده إلى إنجلترا ، مندوباً عن « العروة الوثقى » في لندن . وقد استقبل الشيخ المصري صديقه « ول فرد بلنت » الكاتب الإنجليزي ، مؤلف كتاب « التاريخ السري للإحتلال الإنجليزي لمصر » . وقد أمد بلنت صديقه المصري بمعونته القيمة في إبلاغ صوته عن طريق الصحافة إلى الرأي العام الإنجليزي ، ودعوته إلى الاهتمام بالقضية المصرية . كذلك يسّر للشيخ المصري سبيل مقابلات مع بعض رجال السياسة وأعضاء البرلمان الإنجليزي ، ومن أولئك « راندولف تشرشل » والد رئيس الوزارة الإنجليزية السابق ^(٣) .

ج - وفي بيروت لم تقتصر جهود الشيخ محمد عبده على التعليم هناك ، فقد أسس ، وبمعونة أشخاص آخرين ، جمعية دينية سرية ، من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والإسلام . وكانت القس « اسحاق تيلر » راعي الكنيسة الإنجليزية أحد الأعضاء العاملين في تلك

(١) انظر : من زعماء الإصلاح - محمد عبده . ص ٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٨ وما بعدها .

(٣) انظر عثمان أمين : رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده ، ص ٤٧

الجمعية ، وهو الذي حاول - فيما يبدو - نشر أفكارها في إنجلترا . ويقال إنه قد جرت بين هذا القس وبين محمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدث القس عن الإسلام حديثاً ودياً ، ونشر بهذا المعنى مقالات في صحف لندن . ولكن يبدو أن نشاط الشيخ المصري في هذه الجمعية قد فسر - في تركيا - تفسيراً سياسياً يناقض مصالح الخلافة العثمانية ، مما حدا بالسلطان عبد الحميد إلى السعي لدى الحكومة الإنجليزية ، لإصدار العفو عن الشيخ المصري ، ودعوته إلى مغادرة سوريا في أقرب وقت ممكن ^(١) .

د - وقد كان المستشرق الإنجليزي « إدوارد براون » شديد الإعجاب بالفتي ، فقدم إلى مصر ليشهد دروس التفسير التي كان يلقيها محمد عبده في الأزهر . وتحت يد الدكتور عثمان أمين عددٌ من الخطابات أرسلها « براون » إليه في حياته وإلى تلميذه محمد رشيد رضا بعد وفاته ^(٢) .

هـ - محمد عبده يثني على سياسة الإنجليز في التسامح والعدل . وفي فتوى من فتاواه أجاز لأهل الهند من المسلمين أخذ القوانين الإنجليزية والخضوع لأحكام القضاة الإنجليز ^(٣) .

و - كان يوقر ويعظم البحوث الإسلامية التي كتبها مفكرو الغرب ممن يسمونهم (المستشرقين) ، وهي بحوث متحررة لا تصدر عن احترام الإسلام أو توقير السابقين المقدمين من رجاله ^(٤) .

خامساً : تنقسم حياة الشيخ محمد عبده الفكرية والسياسية إلى قسمين ، يتميز أحدهما عن الآخر . القسم الأول هو الذي عمل فيه تحت إشراف الأفغاني ،

(١) انظر المرجع السابق : ص ٤٨ وما بعدها

(٢) أنظر عثمان أمين : رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده : ص ٦١

(٣) أنظر الإسلام والنصرانية مع العلم والدنيء ص ١٧٩ وما بعدها ، وتفسير المنار :

٤٠٥/٦ - ٤٠٩

(٤) أنظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١/٢٢٣

وكان فيه خادماً لأهدافه ؛ يرى بعينيه ، ويعمل بعقله ، ويكتب بوحيه .
والقسم الثاني من حياته هو الذي عمل فيه بعد عودته إلى مصر في ظل صداقة
اللورد كرومر والمستر بلنت مما تشهد به تقارير كرومر السنوية وكتابه عن
مصر الحديثة ، وعن عباس الثاني ، ومذكرات المستر بلنت وكتابه « التاريخ
السري للاحتلال البريطاني لمصر » ، وهي صداقة تركت أثرها في سلوك محمد
عبده وفي آرائه .

والقسم الأول من حياة الشيخ محمد عبده الفكرية والسياسية يدعو إلى
التأمل والتفكير . وإني أوافق الدكتور محمد محمد حسين وأشاركه فيما
ذهب إليه ؛ إذ يقول : « وأول ما يريب الباحث في أمر هذا الرجل (جمال
الدين الأفغاني) تعميته أصله ونسبه . فقد زعم أنه أفغاني سُني ، ثم
أثبت البحث الحديث بأدلة كثيرة أنه كان إيرانياً شيعياً . وزعم أنه
شريف النسب حسيني الجَدّ ، وهو زعم لم يقم عليه دليل . والذي يكذب
على الناس في بلده ؛ خليق ألا يَصْدُقَ في نسبه . أما الأدلة على أنه إيراني
شيعي ، فهي صريحة متعددة في الكتاب الذي ألفه ابنُ أخته ميرزا لطف الله
خان ، الذي كان يلزمه في زيارته لإيران . وقد مات ابنُ أخته هذا سنة
١٣٤٠ هـ فعهد ابنه صفات الله الأسد آبادي إلى حسين كاظم زاده بنشره ،
فنشره في برلين لأول مرة سنة ١٩٢٦ م حيث كان ولا يزال يقيم منذ أربعين
سنة . ثم ترجم الكتاب إلى العربية سنة ١٩٥٧ م تحت عنوان : (جمال الدين
الأسدآبادي) . وقد أثبت المؤلف والمترجمان بأدلة كثيرة أن جمال الدين كان
إيرانياً من أسد آباد (بالقرب من همدان) ، وكان شيعياً جعفري المذهب .
ولم يكن أفغانياً من أسعدآباد (من أعمال كابل بأفغانستان) ، كما لم يكن
سُنيّاً حنفيّاً المذهب ، على ما كان يزعمه وعلى ما هو مشهور حتى الآن بين
الناس . فبقية أسرته لا تزال في أسد آباد . وقد حقق نسبه وزار أسرته
عنايت الله خان ، عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق . واسم والده

واسم خادمه يدلان على أنه شيعي إيراني . فاسم والده صفدر، يعني « مفرق الأعداء » وهي عند الشيعة صفة لسيدنا علي رضي الله عنه . والاسم وقف على الشيعة ، لا يتسمى به أحد من الأفغانيين . واسم خادمه الذي كان يلزمه دائماً ، والذي تركه بعد رحيله عن مصر في رعاية تلميذه محمد عبده ، هو « أبو تراب » ، وهي كنية سيدنا علي ، ولا وجود لهذا الاسم في غير إيران . ولهجة جمال الدين الفارسية تقطع بأنه إيراني . وأصدقاءه المقربون الذين كانوا يلزمونه في الآستانة كانوا من الإيرانيين . وكان تفكيره دائماً متجهاً إلى إيران وإلى اتخاذها مركزاً للجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها كما يبدو من مقال له في العروة الوثقى .

ولكن جمال الدين أخفى أصله الإيراني ، لأنه كان يريد أن يخفي تشيعه عن الناس في البلاد العثمانية التي تنقل فيها ، وأهلها سنية حنفية كالأفغان . وقد استفاد جمال الدين من انتسابه للأفغان ، لأنه أصبح بعيداً عن سلطة ممثلي إيران وقناصلها في الخارج . وكان من السهل أن تروج أفغانيته بين الناس في البلاد التي نزلها ، لأن أفغانستان لم يكن لها تمثيل خارجي في ذلك الوقت ، وكان الإنجليز نفوذ كبير فيها ، فكانوا يرعون اتباعها في الخارج .

ومما كان يريب الباحث في أمر جمال الدين وأهدافه أيضاً أن أكثر نشاطه كان سرّياً . فقد كان أول من أدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث في مصر . وكان حينما حل يؤسس الجمعيات السرية وينشرها . وأنشأ جمعية مصر الفتاة السرية ، وأنشأ صحيفة تنطق باسمها هي صحيفة « مصر الفتاة » ، ولم يكن فيها مصري واحد كما روى تلميذه محمد عبده في كتاب « أسباب الحوادث العربية » ، وكان أغلب أعضائها من شبان اليهود . ثم أنشأ محفلاً ماسونياً تابعاً للشرق الفرنسي ، ضم إليه عدداً كبيراً من أصحاب النفوذ في مصر بمساعدة رياض باشا رئيس الوزراء . وهو الذي استقدمه إلى مصر وتولى

رعايته فيها ، وأجرى عليه راتباً شهرياً ، وأعد له مسكناً في خان الخليلي ،
ويقال إنه كان في حارة اليهود

وقد غمس جمال الدين يده فعلاً في الدم الحرام ، وكان مستعداً دائماً لأن
يغمس يده فيه . فهو مسئول عن اغتيال ناصر الدين شاه إيران . كان لا
يزال يؤلب عليه في كل مكان منذ طرده من إيران سنة ١٨٩١ م وأخرجه من
الضريح المقدس عند الشيعة الذي كان قد عاذ به ولجأ إليه ، وهو « بقعة
حضرة عبد العظيم المقدسة » . فاتصل برجل هارب من إيران يدعى « ميرزا
رضا الكرمانى » وحرضه على قتله ، فتسلل إلى إيران واغتاله سنة ١٨٩٦ م
في المكان نفسه الذي طرد منه الأفغاني . وقد فكر الأفغاني بموافقة محمد
عبدالله في اغتيال الخديوي إسماعيل أثناء مروره على كوبري قصر النيل ، لأن
جمال الدين كان متفقاً على برنامج الحكم مع ابنه توفيق ، الذي كان قد نجح
في ضمه إلى محفلة الماسوني . وقد اشترك من بعد مع نوبار باشا في السعي
لعزل إسماعيل .

إن الدارس المدقق لسيرة جمال الدين لا يملك إلا ان يتوقف أمام كثير
من الظواهر الغريبة في سيرته . انه يتساءل : فيم تنقله السريع المفاجيء
الذي لا يفتر ، بين إيران وبلاد الأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا
والنمسا وإنجلترا والروسيا ؟ وفيم هذه الأزياء المختلفة التي كان يلبسها لكل
بلد ، والتي يحفل بها كتاب ابن أخته ميرزا لطف الله خان ؟ فهو في زي
عربي ثارة ، وفي زي علماء الشيعة ثارة أخرى ، ومع جماعة من كبار علماءهم
ومجتهداتهم ثارة ثالثة ، وفي طربوش تركي ثارة رابعة ، وفي زي أفغاني ثارة
خامسة . فيم كل هذا ، وباغي الخير لا يحتاج إلى التستر والتخفي ، وإنما
يتخفى المريب ؟؟ ومن أين كان ينفق على هذه الرحلات ؟ وفيم كانت صلته
بالمستر بلنت ، ذلك الرجل الغريب ، الذي كان لا يفتر عن التنقل بين مضارب
الأعراب في مصر وفي سوريا وفي نجد ؟ يدعو المصريين إلى الثورة ، ويتكلم

بعد وقوعها باسم عرابي ، ويقدم له صوراً مضللة عن صفته الرسمية وقدرته السياسية وقوة الجيوش الإنجليزية ، ثم يدافع عنه بعد اعتقاله ؟ ! فم كانت صلة الأفغاني بهذا الرجل ، ينزل ضيفاً عليه عندما زار إنجلترا ، ويكتب الى محمد عبده من بور سعيد وهو في طريقه اليها يطلب اليه أن يكون رده بعنوان المستر بلنت ؟ بل فم كانت صلته بإنجلترا ، يلجأ الى سفيرها في الآستانة ، لكي يساعده على الخروج من تركيا حين غضب عليه السلطان عبد الحميد ؟ وباسم من كان يفاوض الإنجليز في الوصول إلى اتفاق مع تركيا ضد روسيا ؟ ومع المهدي للاعتراف باستقلال السودان ؟ وما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذي يجتمع حول الرجل الذي كان صوته أعلى الأصوات في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وفي التنديد بفساد المجتمع الإسلامي والدعوة إلى إصلاحه ؟ سليم نقاش صاحب الكتاب الذي يحمل عنواناً غريباً في إبان الدعوة إلى الجامعة الإسلامية وهو : « مصر للمصريين » شامي نصراني . وأديب اسحق من نصارى الشام أيضاً . وكان إذا ذكر بعد موته في مجلس الأفغاني جاشت نفسه بالحزن وهو يقول : (إنا لله وإنا إليه راجعون) . وطبيبته الخاص يهودي يدعى هارون . وقد كان هو ونصراني آخر يدعى جورجى كونيحي هما اللذان شهدا احتضاره وحدهما . والذي كان يساعده في تحرير صحيفة العروة الوثقى مع محمد عبده رجل مريب من إيران يدعى ميرزا باقر ، كان قد تنصر وصار داعية للنصرانية هناك مع جمعية للمبشرين ، ثم عاد الى الإسلام ليشارك في تحرير الجريدة الداعية الى الجامعة الإسلامية . ومجالس الأفغاني كانت تضم خليطاً من المسلمين والنصارى واليهود . هذا بالإضافة الى ما أشيع من أنه كان ينزل في حارة اليهود ، ومن أنه ألف جمعية سرية أعضاؤها من شباب اليهود . ولماذا كانت عداوته الشديدة للاستعمار الإنجليزي وحده دون الاستعمار الفرنسي والاستعمار الهولندي ؟ فلم ترد في صحيفة العروة الوثقى إشارة للاستعمار الفرنسي للجزائر ، كما لم ترد فيها

إشارة للاحتلال الهولندي لاندونيسيا ، ولم تشر الصحيفة إلا إشارة عابرة لاحتلال الهند الصينية .

نحن نعرف أن الأفغاني كان ينتسب حين دخل مصر الى المحفل الماسوني الاسكتلندي ، ثم اختلف معه فتحول الى المحفل الماسوني الفرنسي . فهل كانت عداوته للإنجليز مبنية على هذا الخلاف مع المحفل الماسوني الاسكتلندي ، مع ما هو معروف من استغلال الاستعمار للمحافل الماسونية ، الى جانب ما هو معروف من صلتها بالصهيونية ؟! « (١) .

وإني أعتقد أن ماسونية جمال الدين الإيراني المتأفغن هي الباعث والمحرك لكل أعماله المريبة . وقد يظن بعض القراء أن النص السابق لا يكفي لإثبات أن جمال الدين كان ماسونياً . ولذلك فإني أدعمه بقول للأستاذ أحمد أمين الذي يوقر جمال الدين ويعظمه كما يوقر تلميذه محمد عبده المصري . وعندما قصد أحمد أمين الآستانة سنة ١٩٢٨ رأى واجباً أن يزور قبر جمال الدين ليستعيد عنده ذكرى عظيمته وسلسلة أعماله (٢) ، يقول أحمد أمين : « ومن تمام برنامجي في هذا الباب أن انضم إلى المحفل الماسوني الاسكتلندي لأنه يضم كثيراً من علية القوم ، لعله بذلك يتمكن من إيصال أفكاره اليهم ، ويضم طائفة من المصريين والأجانب ، فلعل حرية القول فيه تكون أتم ؛ ولكن ما دخل السيد فيه حتى ثارت ثائرتة ، وأخذ يهاجمه في تصرفه وينقده بخطبه المتوالية . غاظه من المحفل أنه وجد أعضائه لا يحبون أن يتكلموا في السياسة فقال : « أول ما شوقني للعمل في بناية الأحرار عنوان كبير خطير : - حرية - مساواة - إخاء ، وأن غرضها منقعة الإنسان - سعي وراء ذلك صروح الظلم - تشييد معالم العدل المطلق ، ولكن كنت أنتظر أن أسمع

(١) الإسلام والحضارة الغربية : ص ٧٥ - ٨٥ .

(٢) انظر زعماء الإصلاح في العصر الحديث : ص ١١٥ .

وأرى في مصر كل غريبة وعجيبة ، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونية !

إذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون ، وفيها كل بناء حر ، وإذا كانت آلات البناء التي بيدها لا تستعمل لهدم القديم وتشيد معالم حرية صحيحة وإخاء ومساواة ؛ وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور ، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ، ولا قامت لبنائتهم زاوية قائمة . وأخيراً استقال من هذا المحفل ، وأنشأ محفلاً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؛ وسرعان ما بلغ أعضاؤه أكثر من ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين والناهضين المصريين ؛ وكان في هذا المحفل مطلق الحرية ، نظم شعبة للأعمال المختلفة ؛ فشعبة للحقانية ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجهادية . وهكذا لكل وزارة ومصلحة شعبة ، تدرس كل شعبة شؤون وزارتها أو مصلحتها ، وتصرف ما يقع من الظلم ووجوده الإصلاح فيها ، ثم كل شعبة تتصل بالوزير المختص وتبلغه رغباتها في أسلوب حازم صريح . فكان لذلك هزة في الأندية والمجتمعات ^(١) .

وقد ينخدع القارىء بحملة جمال الدين على المحفل الماسوني الاسكتلندي . وإلا لماذا استقال من هذا المحفل وأنشأ محفلاً ماسونياً آخر تابعاً للشرق الفرنسي ؟ مع العلم أن جميع المحافل الماسونية في العالم تُدار من قبل محفل الماسونية الكونية التي لا يدخلها إلا اليهود الأشكناز . ألا يمكن إصلاح المسلمين وإصلاح حكوماتهم بغير الاستعانة بالمحافل الماسونية مع العلم أن الماسونية جهاز ضخم يخدم اليهودية العالمية ؟!

فإذا كان جمال الدين الإيراني المتأفغن على ما ذكرنا فإننا نرجح ترجيحاً يكاد يقترب من اليقين أن محمد عبده ماسوني كذلك ، لأنه كان خادماً

(١) زعماء الإصلاح في مصر الحديث . ص ٧٣ وما بعدها .

لأهداف جمال الدين ، يرى بعينيه ، ويعمل بعقله ، ويكتب بوحيه . ومما يؤكد ذلك أننا نجد إشارات صريحة في كتاب لاحد كبار رجال الماسونية في مصر ، تؤكد أن جمال الدين المتأفغن هو مؤسس « محفل كوكب الشرق » ورئيسه . كما تؤكد أن محمد عبده كان عضواً في هذا المحفل ، إذ يقول : « وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العُرابية سنة ١٨٨٢ م فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذين جاءوا سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم ، ودعواهم إلى محافلهم ومنازلهم . وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وغيرهم يحضرون معنا في محفل لبنان ويخطبون فيشتمون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطليّة . ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلع والصدف من المندوب الأمريكي الذي حضر محفل لبنان .

ومما يؤكد هذه النصوص ويزيد قيمتها أن الشيخ محمد رشيد رضا - وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له - قد أيدّها في كتابه : « تاريخ الأستاذ الإمام » (١) .

وهذا قول يؤيد ما ذهبنا إليه أورده أستاذ يوقر الشيخ محمد عبده ، وهو الدكتور عثمان أمين الذي عد محمد عبده رائد الفكر المصري ورسولاً من رسل الوعي الإنساني. والدكتور عثمان أمين تلميذ للشيخ مصطفى عبد الرازق والأخير هو تلميذ للشيخ محمد عبده . يقول الدكتور عثمان أمين أثناء حديثه عن محمد عبده بعد أن صار مدرساً : « وفي هذه الفترة من حياته يبدو أنه انضم إلى الفرع الماسوني « كوكب الشرق » التابع للمحفل الماسوني الأعظم في إنجلترا ، وكان هذا الفرع يضم حوالي ثلاثمائة عضو من صفوة البلاد . وكان

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ١ / ٣٠٨ .

المحفل يجذب تبادل الأفكار بين الرجال الواقفين على دخائل السياسة ، وينشئ بينهم رابطة من التضامن والتعاون ، وكان هذا نواة للحزب الوطني الذي سيكون له بعد شأن عظيم ، (١) .

وقد أخطأ الدكتور عثمان أمين إذ جعل « كوكب الشرق » تابعاً للمحفل الماسوني الأعظم في إنجلترا الذي استقال منه جمال الدين ، والصحيح أن « كوكب الشرق » كان يتبع محفل الشرق الفرنسي الأعظم .

وقد أخطأ الأستاذ عبد الله التل إذ ذكر انسحاب جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من الماسونية وكشف خططها الجهنمية وخطرهما على العالم (٢) .

ويبدو أن الأستاذ عبد الله التل استند فيما ذكره إلى قول محمد رشيد رضا أورده الأب لويس شيخو ، يقول : « فراجعنا » ملخص سيرة الإمام محمد عبده « الذي نشر في مجلة المنار الإسلامية لمنشئها السيد محمد رشيد رضا ، فإذا هو يقول في الصفحة (٤٠٢) من المجلد الثامن سنة (١٩٠٥) : « إن الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى ترك الماسونية من زمن طويل ، وقد أكثر ابناؤها من دعوته الى محافلها بعد رجوعه من النفي إلى مصر فلم يجب ، وأهدوا اليه وساماً فلم يقبله . وقد سألته عن حقيقتها مرة فقال : إن عملها في البلاد التي وجدت فيها للعمل قد انتهى وهو مقاومة الملوك والباباوات ... وأخبرني أن دخوله فيها كان لغرض سياسي اجتماعي وأنه تركها من سنين فلن يعود اليها » (٣) .

فهذا اعتراف من الشيخ محمد عبده بأنه دخل في الماسونية ، وإن كان أخفى طبيعة الغرض السياسي الاجتماعي الذي دفعه للدخول فيها .

(١) رائد الفكر المصري ، محمد عبده . ص ٥٠ ، الطبعة الثانية .

(٢) انظر جذور البلاء . ص ١٣٧ .

(٣) أسرار الماسونية : ص ١٩٥ .

ونحن نعلم أن الماسونية حركة سرية ، وأن أعضائها يخفون أسرارها عن الغرباء .

فلما علم محمد عبده أن تلميذه محمد رشيد رضا اكتشفه زعم ما زعم وادعى أنه خرج منها . ويؤكد ذلك القسم الذي يتلوه كل طالب يريد الدخول في الطقوس السكوتلندي الماسوني : « إني أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشي أسرار الماسونية ولا علاماتها ولا ملامساتها ولا أقوالها ولا تعاليمها ولا عاداتها ، وأني أصونها مكتومة في صدري إلى الأبد ، ثم إني أعد أقسم باسم مهندس الكون أنني لا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالإشارة ولا بالكلام ولا بالحركات ، وأني لا أكتب شيئاً منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير . وأرضى إذا حنثت بودي بأن تحرق شفتاي بحديد حمي وأن تقطع يداي ويحز عنقي وتعلق جثتي في محفل ماسوني ليراه طالب آخر ويتعظ بمثلي ، ثم تحرق هذه الجثة ويذر رمادها في الهواء لئلا يبقى أثر من خيانتني » (١) .

ومن يرجع إلى الكتاب الذي كتبه محمد رشيد رضا - وهو أكثر تلاميذ محمد عبده تعصباً له - في تاريخ أستاذه يتبين له بكل وضوح ماسونية محمد عبده ونياله رتبة البلح والصدف من المندوب الأمريكي الذي حضر إلى محفل لبنان (٢) .

من كل ما سبق نستطيع أن نقول إن محمد عبده كان ماسونياً مثل أستاذه جمال الدين الإيراني المتأفغن .

وقد يقال : وليكن محمد عبده ماسونياً ، فهل لذلك أثر على اتجاهه في التفسير ؟ فنقول : نعم له كل التأثير . لأن الماسونية جمعية تعمل في الظلام

(١) انظر لويس شيخو . أسرار الماسونية - ص ٣٦ .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام : ١ / ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٨١٩ ، ٨٧٣ .

وغايتها خدمة مصالح اليهودية العالمية . وإلا فما معنى أن يؤسس محمد عبده جمعية دينية سرية من أهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة : اليهودية والمسيحية والإسلام ، وكان القس « إسحاق تيلر » راعي الكنيسة الإنجليزىة أحد الأعضاء العاملين في تلك الجمعية ؟ وعندما علم السلطان عبد الحميد رحمه الله بأمرها سعى لدى الحكومة الإنجليزىة لإصدار العفو عن الشيخ محمد عبده ودعوته إلى مغادرة سوريا فوراً .

والذي يدرس الماسونية يلاحظ أن عمل محمد عبده منسجم مع مبادئها وأهدافها القريبة والبعيدة .

ألم يقرأ هذا المصلح الاجتماعى الاستاذ الإمام مفتى الديار المصرية ورائد الفكر المصرى الآىة القرآنية : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ... الآىة) ؟ وفى الأسطر التالية نقدم للقارىء بعض قواعد الماسونية وخطوطها العريضة مستندين فى ذلك إلى مضابط المجالس الماسونية ومنشوراتها :

أولاً : لا يقبل المتدينون فى المحافل الماسونية ، لأن الذى ينخرط فى المحافل يجب أن يكون حُرّاً ، والماسونى الحقيقى لا يكون متديناً .

ثانياً : إن الغاية من وجود الماسونية هى النضال ضد الجمعيات المستبدة المنتمية إلى الماضى ، ولأجل هذه الغاية يقاتل الماسونيون فى الصفوف الأولى ، لأنها هى المنظمة الوحيدة التى تناهض الأديان والقوميات والتقاليد .

ثالثاً : من أهداف الماسونية محاربة الأديان وصيانة الدول اللادينية العلمانية ، ولذا فهى تستسيغ الإرهاب بالتجرد عن مفاهيم الاخلاق والضمير .. ويجب أن تكون الماسونية متمرنة حسب الظروف

والأوضاع^(١).

وبعد ، فهل كان محمد عبده متديناً حقاً؟ ألم يطلق العنان لعقله في تأويل آي القرآن؟ وهل هاجم المقلدين وطالب بفتح باب الاجتهاد؟؟ وهل أباح ربا الفضل؟ ألم يُعجز لمسلمي الهند العمل بقوانين الإنجليز التي هي قوانين كفر؟ ألم يرفض فكرة تعدد الزوجات؟ كل هذه الاستفسارات وغيرها سنعرف الإجابة عنها من خلال عرضنا لاتجاهه في التفسير وبيان خصائصه .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول في غير مجانبه للحق إن محمد عبده كان في القسم الأول من حياته الفكرية والسياسية تحت إشراف أستاذه جمال الدين كان ماسونياً ، وكان في القسم الثاني من حياته بعد عودته من المنفى إلى مصر يعمل في ظل صداقة اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر والمستر بلنت ذلك البريطاني الغريب الخطير الذي كان مصطفى كامل زعيم الحزب الوطني في مصر أول من تنبه إلى خطورته .

ومهما يكن ، فنحن نتوقع أن يسير محمد عبده في بعض اتجاهه التفسيري مسار السلف من المفسرين فلا يكاد يخالفهم كثيراً ، وفي بعض اتجاهه يحاول بقدر طاقته أن يوفق بين القرآن كتاب الإسلام وبين الحضارة الغربية الحديثة انسجاماً مع ماسونيته . وسأقوم بكشف قناعه معتمداً على الأدلة والحجج لئلا يكون كلامي تهجماً أو رجماً بالغيب ، وذلك ما لا نرتضيه ولا نوافق أحداً عليه .

وأنا أعلم بأن كلامي هذا لن يرضي الفئة الباغية العلمانية من أنصاره ومؤيديه ، لأنهم اتخذوا منهجه ديناً يتعبدون به ، وإماماً لهم من دون الله . ولن نعبأ بسخطهم لأننا نبغي وجه الله في كل حركاتنا وسكناتنا .

(١) انظر جواد رفعت آتلخان . أسرار الماسونية ، ص ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ .

طريقته في التفسير :

اتخذ الشيخ محمد عبده لنفسه منهجاً في تفسير القرآن الكريم بسبب اعتماده على هذا التفسير في أن يكون أساساً لدعوته الإصلاحية للمجتمع ولتنقية الدين من البدع والأوهام والخرافات ، ويخالف به جماعة المفسرين من السلف الصالح رضي الله عنهم . وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة ، وذلك لأنه يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن ، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له ، أو وسيلة لتحصيله (١) .

وقولنا إن الشيخ محمد عبده خالف بهذا المبدأ أو المنطلق جماعة المفسرين القدامى فلأن القدامى فسروا القرآن الكريم عندما كان دستورهم ونظامهم الذي يرجعون إليه في كل أمر من أمورهم . فكان تفسير القرآن غاية عندهم وهدفاً . وجميع المعارف والثقافات التي وضعت في القرن الثاني والثالث كانت لخدمة القرآن الكريم . فالفقيه يصب اهتمامه على آيات الأحكام ، والنحوي على الاحتجاج للقراءات المتواترة والشاذة ، والمتكلم على الآيات التي يدعم بها مذهبه الكلامي ، وهكذا ... فلا نستطيع أن نقول إن الإكثار من هذه الأدوات التي استخدمها المفسرون أخرجت الكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي وذهبت بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي كما يقول محمد عبده (٢) ، لسبب بسيط وهو أن المعاني الأولى المتبادرة من كلام الله تعالى كانت مستوعبة عند المفسرين بالمأثور . أما المفسرون بالرأي الجائز وغيره فقد رأوا أن يجتهدوا ويعملوا عقولهم في تأويل آي القرآن الكريم اعتماداً على الثقافات المطروحة في الساحة الإسلامية النشطة . ودعاهم ذلك الترف العقلي إلى الاستعانة بألوان المعارف والثقافة الإسلامية على توضيح كتاب الله وشرحه

(١) انظر تفسير المنار ١ / ١٧ .

(٢) انظر تفسير المنار - ١ / ١٨ وما بعدها .

وتبيينه ، تماماً كما كان يفعل الفقهاء والنحاة عندما يبحثون مسألة أو مشكلة بعيدة الوقوع . وهذا فضل ونشاط وحيوية لا بد أن نعترف بها للمفسرين والعلماء القدامى . أما محمد عبده فقد تصدى لتفسير كتاب الله في وقت غاب فيه الحكم بكتاب الله بفعل الكفار المستعمرين الذين رأوا قوة المسلمين في الحكم بهذا القرآن . ولا ننسى أن انحطاط المسلمين الفكري بسبب الجهل بالإسلام قد وصل إلى مداه . فخرج علينا محمد عبده بنزعته الإصلاحية الترقية التي لم يكن من برنامجها تصحيح أوضاع المسلمين كاملة بالرجوع إلى الإسلام ، فاعتمد على التفسير واتخذ منطلقاً لنزعته الإصلاحية الجزئية التي تبقى على النظام الرأسمالي في مصر وغيرها من بلاد الإسلام . فتفسير القرآن عند محمد عبده وسيلة لا غاية .

والتفسير عند محمد عبده ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : جاف "مُبْعِدٌ" عن الله وعن كتابه ، وهو ما يُقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية ، وهذا لا ينبغي أن يُسمى تفسيراً ، وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها .

وثانيهما : هو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام ، على الوجه الذي يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ، ليحقق فيه معنى قوله تعالى (هُدًى ورحمة) ونحوهما من الأوصاف . فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون هو الاهتمام بالقرآن . وهذا هو الغرض الأول الذي يرمي إليه في قراءة التفسير (١) .

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن :

يرى محمد عبده أن القرآن الكريم تؤخذ منه العقيدة ويُستنبط منه

(١) انظر المرجع السابق - ١ / ٢٤ وما بعدها .

الرأي ، ولا يجوز أن يحمل المسلم مذهباً وينظر للقرآن من خلال هذا المذهب أو الاعتقاد ، فهو يقول : « إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى ، من غير أن ندخلها أولاً فيه ، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرناها فيه أولاً فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال ، لاختلاط الموزون بالميزان ، فلا يُدرى ما هو الموزون من الموزون به . أريد أن يكون القرآن أصلاً تُحْمَلُ عليه المذاهب والآراء لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها كما جرى عليه المخذولون ، وقاه فيه الضالون ^(١) .

وانسجاماً مع الخطة التي وضعها محمد عبده لنفسه في تفسير القرآن فإنه يرى عدم التعرض في بيان القرآن إلى المسائل الخلافية التي لا تدل عليها عبارته . ويعني بها اختلافات النحاة والفقهاء والمتكلمين متأثراً بطريقة أبي حيان الأندلسي في تفسيره المسمى البحر المحيط ، يقول محمد عبده : « ويذكر بعض المفسرين في هذا المقام مسائل خلافية في الميئة كحل الانتفاع بجملدها وغير ذلك مما ليس بأكل . وقد قلنا إننا لا نتعرض في بيان القرآن إلى المسائل الخلافية التي لا تدل عليها عبارته ، إذ يجب أن يبقى دائماً فوق كل خلاف ^(٢) .

يجل القرآن عن أن يكون فيه كلمة زائدة :

يقول الشيخ محمد عبده في تفسير قوله تعالى في الآية (٨٨) من سورة البقرة (فقليل ما يؤمنون) : « ومن مباحث اللفظ في الآية أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن (ما) زائدة . وما هي بزائدة وفاقاً لابن جرير الطبري وجل القرآن أن يكون فيه كلمة زائدة ، وإنما تأتي (ما) هذه لإفسادة

(١) تفسير الفاتحة وسبب سور من خواتيم القرآن - ص ٥٤ .

(٢) تفسير النار - ٩٨ / ٢ .

العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة أخرى . ويقول ابن جرير : إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كمبتدأ كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيماناً قليلاً ذلك الذين يؤمنون به . وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى : (فبما رحمة من الله لنت لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم ، وقد بيّن الله هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (١) .

وَوَافاقاً لهذه النظرة إلى وضع ألفاظ القرآن الكريم ، فقد رأى محمد عبده أن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها ، فليس فيها كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى : (إن الله بالناس لرؤوف رحيم) (٢) : « قال الجلال : والرأفة : شدة الرحمة ، وقدم الأبلغ للفاصلة . وأنكر الأستاذ الإمام هذا القول أشد الإنكار وينكر مثله في كل موضع ، فيقول : إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة . لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قالوا في كثير من السجع والشعر إنه قدّم كذا وأخّر كذا لأجل السجع ولأجل القافية . والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو من الله الذي لا تعرض له ضرورة ، بل هو على كل شيء قدير ، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه . وما قال بعض المفسرين مثل هذا القول إلا لتأثرهم بقوانين فنون البلاغة ، وغلبتها عليهم في توجيه الكلام ، مع الغفلة في هذه النقطة عن مكانة القرآن في ذاته ، وعدم الالتفات إلى ما لكل كلمة في مكانها من التأثير الخاص عند أهل الذوق العربي » (٣) .

(١) المرجع السابق - ١ / ٣٧٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

(٣) تفسير النار ، ٢ / ١٢ .

ويجب أن نذكر في مثل هذا المقام أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن على أساليب العرب وعلى منوالهم في حوك الكلام لتقوم بذلك المعجزة . والتقديم والتأخير هو أحد أساليب البلاغة ، فإنهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع . فالمسألة ليست مسألة إثبات للضرورة التي يترتب عليها عجز الله سبحانه وتعالى ، وإنما مجيء القرآن على طرائق العرب في التعبير والصياغة والاسلوب ولذلك نرى محمد رشيد رضا يُعَقِّبُ على قول أستاذة محمد عبده ، فيقول : إن المسألة خلافية ، والتحقيق أن الفواصل ملتزمة في القرآن ، لكن بغير أدنى ضرورة ، ولا ما يوصف بأنه تكلف بترجيح اللفظ على بلاغة المعنى ، وإنما هو كقوله : (والعاقبة للمتقين) وقوله (والعاقبة للتقوى) .

تحكيم المذاهب النحوية في القرآن جراءة كبيرة على الله تعالى :

يرى محمد عبده أن تحكيم المذاهب النحوية في القرآن ومحاولة تطبيقه عليها جراءة كبيرة على الله تعالى على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها) : « الكاف : زعم الجلال أنها زائدة انتصاراً لمذهب البصريين الذين أنكروا مجيء الكاف بمعنى مثل . ولكن المعنى لا يستقيم كما يليق ببلاغة القرآن إلا على الأول . وإن تحكيم مذاهبهم النحوية في القرآن ومحاولة تطبيقها عليه ، وإن أخل ذلك ببلاغته ، جراءة كبيرة على الله تعالى . وإذا كان النحو وُجِدَ لمثل ذلك فليته لم يُوجَد » (١) .

وحدة القرآن وبلاغة عبارته :

من خصائص تفسير الشيخ محمد عبده الشعور الواضح بوحدة القرآن وبلاغة عبارته . إن من عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يفككون

(١) المرجع السابق ، ٣ / ٤٨

الطائفة الملتزمة من الآيات القرآنية ، إذ يفصلون بعضها عن بعض ، أو يفصلون الجمل الموثقة في الآية الواحدة ، فيجعلون كل جملة سبباً مستقلاً ، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سبباً مستقلاً كذلك . أما محمد عبده فيخالف أولئك المفسرين ، ويرى أن نظرتهم تلك ، فضلاً عن منافاتها لبلاغة القرآن ، تجعله مفككاً مبدداً لا اتصال بين أجزائه ، وهو ما يتنزّه عنه كلام الله . ويحاول في غير موضع إثبات أن بين مختلف الآيات القرآنية اتصالاً جوهرياً عميقاً ، وينتهي إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام ، فإن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه وفقه حكمته وسرّه ، فلا حاجة إلى التماس هاتيك الأسباب في الآيات النافية للشرك ، المقررة للتوحيد ، وهو المقصود الأول من الدين الإسلامي (١) .

نزعة علمية في تفسير إعجاز القرآن :

يرى محمد عبده وفاقاً لنزعة العقلية في التفسير أن إعجاز القرآن يعجز الزمان عن إبطال شيء منه ، وأنه موافق لما تجدّد من العلم الحق والتشريع للعدل أو غير مخالف له ، فلا شك في أن هذه تعد له مزية خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية . مرت العصور وتقلبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صح أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده فادّخر ليكون حجة على أهله . والقرآن مشتمل على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد

(١) انظر عثمان أمين ، رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده ، ص ١٧٨ .

ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق . وهذه مرتبة فوق ما ذكر في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه . فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب ، حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة . فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى (١) .

والذي يعن النظر في أقول محمد عبده 'يدرك مباهاته وتفاخره بمعرفة علم الكون ومعرفة أحوال البشر . ولا جدال في أن محمد عبده ينطلق من قاعدة منهجية هي الدفاع عن الإسلام وكأنه في قفص الاتهام . فأوقع نفسه في ورطة كان في غنى عنها . وهذه الورطة تتمثل في إقحام القرآن في ميدان العلوم وأنه موافق لما تجدد منها .

والصحيح أن القرآن ليس كتاب علم ، وإن كانت فيه آيات كثيرة تحت الإنسان على التفكير والتدبر في أشياء كثيرة في هذا الوجود للوصول إلى معرفة الله تعالى والإيمان بالواجب الوجود وهو الله تعالى . وكيف يصاد كتاب سماوي ليس فيه طب أو هندسة أو كيمياء ما تجدد من علوم البشر التي تعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتاج !

وكيف يجعل محمد عبده عدم تناقض العلوم مع القرآن ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ؟ ومثل هذا التفسير العلمي لإعجاز القرآن غير مأمون بالعواقب ويناقض الواقع في نفس الوقت . لأن القرآن كتاب الإسلام ، والإسلام دين سماوي جاء لتنظيم علاقة الإنسان بخالقه وبنفسه وبغيره من البشر ، ولم يكن كتاب علم حتى ينسجم أو يتناقض مع مستحدثات العلوم .

(١) انظر تفسير المنار ١٠ / ٢٠٨ - ٢١٢ .

قصص القرآن ليست تاريخاً ، بل للعبارة وبيان سُنَن الاجتماع :

ولقد أحسن محمد عبده حين أدرك أنه لا ضرورة للاتفاق بين القصص التي جاءت في القرآن وبين ما جاء في كتب بني إسرائيل أو كتب التاريخ القديمة ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيٍِّّ لَّهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... الآية) (١) : « يظنُّ كثيرٌ من الناس الآن كما ظنُّ كثيرٌ ممن قبلهم أن القصص التي جاءت في القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء في كتب بني إسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة . وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً ، وإنما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكك بها أو الإحاطة بتفاصيلها ، وإنما يذكر ما يذكره لأجل العبرة وبيان سنن الاجتماع (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) وغير ذلك من الآيات .

إن محاولة جعل قصص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يرون فيها على أنه بيان لها هي مخالفة لسنته ، وصرفٌ للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصد حكمته . فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفكارنا في استخراج العبر منه ، ونزع نفوسنا عما ذمه وقبحه ، ونحملها على التحلي بما استحسنته ومدحه . وإذا ورد في كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هذه القصص فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله إلى نبيه ونقل إلينا بالتواتر الصحيح هو الحق وخبره هو الصادق ، وما خالفه هو الباطل ، ونأمله مخطئاً أو كاذب . فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه . فإن حال التاريخ قبل الإسلام كانت مشبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها ، للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يُعتدُّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال إلى حال ، فكان

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٦ .

بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم ، لو أنصفوا ، أن يؤرّخوا به
أجمعين (١) .

موقفه من مبهمات القرآن :

من المعروف أن الله سبحانه وتعالى أبهم في القرآن الكريم أشياء واستأثر
بعلمها ولم يبيّنها ، ولذلك لا يبحث عنها . لأن علم المبهمات مرجعه النقل
المحض بأسانيد صحيحة ، ولا مجال للرأي فيه . وموقف محمد عبده من
مبهمات القرآن الوقوف عند النص القطعي لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا
تتوقف على سواء على شاكّة قوله : « ذلك العمل الذي أمرهم به موسى
عليه السلام هو قتل أنفسهم . والقصة في التوراة التي بين أيديهم إلى اليوم :
دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابه بنو لاوي ، فأمرهم بأن يأخذوا
سيوفهم ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف .
وقال مفسرنا الجلال كغيره إن الذين قتلوا سبعون ألفاً . والقرآن لم يعين
العدد . والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فتمسك عنه . كذا
قال الأستاذ الامام . وهذا مذهبه في جميع مبهمات القرآن يقف عند النص
القطعي لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواء » (٢) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا الصحف نُشرت) (٣) :
« الصحف التي تنشر يوم القيامة بعد البعث هي صحف الأعمال . والذي
يجب علينا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبيّنة لا يرتابون فيها يوم
الجزاء . ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال . أما
كون الصحف على مثال الأوراق التي نكتب عليها في الدنيا أو على مثال

(١) تفسير المنار ، ٢ / ٤٦٩ - ٤٧١ .

(٢) المرجع السابق ، ١ / ٣٢٠ .

(٣) سورة التكوين ، الآية ١٠ .

الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصل علمنا إليه ولن نصل إليه بمجرد العقل ، ولم يُروَ عن المعصوم عليه السلام فيه نصٌ قاطع « (١) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين)^(٢) « ومن الغيب الذي يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به في كتابه من أن علينا حفظاً يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات . ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن أي شيء خلقوا وما هو عملهم في حفظهم وكتابتهم . هل عندهم أوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا وهو ما يبعد فهمه ؟ أو هناك ألواح ترسم فيها الألواح ؟ وهل الحروف والصور التي ترسم هي على نحو ما نعهد أو إنما هي أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد في القرطاس إلى أن يبعث الله الناس ؟ كل ذلك لا نكلف العلم به ، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر في معناه إلى الله . والذي يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل في عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتُحصى لا يضيع منها نقيير ولا قطمير » (٣) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما علييون)^(٤) : « وهذه الكتب التي تكتب فيها أعمال المجرمين أو أعمال الأبرار مما استأثر الله بعلم حقيقته ، فسجّين وعليون موجودان أودعهما الله أعمال الخاسرين والنّاجين . وليس علينا أن نعرف أنها من أوراق أو أخشاب أو معادن أخر أو من أرواح غير أجسام . كل ذلك مما لا حاجة إلى البحث فيه لاستكمال الإيمان . وقد يكشفه المصطفين

(١) تفسير جزء عم ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٢) سورة الانقطار ، الآيتان ١٠ ، ١١ .

(٣) تفسير جزء عم ، ص ٣٦ .

(٤) سورة المطففين ، الآيتان ١٨ ، ١٩ .

من عباده ، ولهذا قال : (يَشْهَدُ الْمُقَرَّبُونَ) « (١) » .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (قَتَلُوا أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ) (٢) ، « أما تعمين أصحاب الأخدود وأناى كانوا ومن هم أولئك المؤمنون وأين كان منزلهم من الأرض فقد كثرت فيه الروايات . والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة . وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء في حقيقة الوثنية . غير أن المؤمن لا يحتاج في الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم والجهة وخاصة الدين الذي كان عليه أولئك أو هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والأساطير المحشوة بالخرافات . وإنما الذي عليه هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا . ولو علم الله خيراً في أكثر من ذلك لتفضل علينا به » (٣) .

ومثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ، فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ، وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) (٤) : « وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء في ذلك اليوم إنما يكون على حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم . فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه مع الإيمان به . ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين « إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ولا يعلم ما هيته إلا الله » . فماذا بقي من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله ! والكلام فيه جراءة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم . ولم يرد في الكتاب إلا كلمة الميزان . وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لتنتفع بما تعتقد . وما عدا ذلك فعليه

(١) تفسير جزء عم ، ص ٤٤ وما بعدها .

(٢) سورة البروج . الآية ٤ .

(٣) تفسير جزء عم ، ص ٥٩ .

(٤) سورة القارعة ، الآيات ٦ - ٩ .

إلى الله سبحانه . وقد قالوا إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يُكفّر خصوصاً إذا كان القائل به يحدد له لساناً وكفتين ، مع أن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون ، أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الحشن الناقص الذي هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه ؟! أياأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل في وزن المعاني والمعقولات إلا ذلك الميزان الذي اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟!

على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون منها دقّ ولطيف إنما هو معيار الأثقال الجسائية والأوزان المحسوسة . وهـلّا يكون الأليق بالمقام الإلهي أن يكون ميزان المعاني المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر منها ارتقت المعارف وسمّت بهم العلوم ! وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرأ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذي يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذي تستعمله القبائل التي لم تزل في مهد الانسانية الأولى ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار الذين لا يعرفون قيمة الإيمان بالغيب ولا لحياة العقل من الله وإطراقه عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه وتعاظمت قدرته ! عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ، ولا تسأل كيف يزن ولا كيف يُقدّر ، فهو أعلم بغيبه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، (١) .

ولكن الشيخ محمد عبده لم يلتزم الوقوف عند النص القطعي لا يتعداه ، بل نجده يخالف منهجه غير مرة فيخوض في مبهمات القرآن مُستعيناً بما عرف من مستحدثات العلوم على شرحها وتوضيحها على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وفتُحت السماء فكانت أبواباً) (٢) : « وقد يكون معنى

(١) تفسير جزء عم ، ١٤٧ .

(٢) سورة النبأ ، الآية ١٩ .

تفتح السماء ما عني بقوله (إذا السماء انشقت) (إذا السماء انفطرت) (ويوم تشقق السماء بالغمام) أي أنه يقع الاضطراب في نظام الكواكب فيذهب التماسك بينها ولا يكون فيما يُسمّى سماء إلا مسالك وأبواباً لا يلتقي فيها بشيء وذلك هو خراب الكون العلوي كما يخرب الكون السفلي «^(١) ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (فإذا جاءت الصاخة) «^(٢) : والصاخة ها هنا كالقارعة في سورتها ، هي الحادثة العظمى التي عبر عنها بالطامة الكبرى يكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذي يحدث من تخريب الكون ووقع بعض أجرامه على بعض . ولكون هذه الحادثة تأتي بذلك الصوت المفزع سميت صاخة وقارعة ، أو أنها سميت صاخة لأنها بما تأتي به من ذلك الصوت تصخّ الآذان أي تصمّها . وهذه الاسماء كلها أسماء يوم القيامة » «^(٣) .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا البحار فجّرت) «^(٤) : «أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً . وهو بمعنى الماء ، فإن كل واحد منها يمتلئ حتى يفيض ويختلط بالآخر . وتسجير البحار على هذا المعنى لازم لما سبقه من تقطع أوصال الأرض وانفصال الجبال ، ويدل على رجحان هذا التأويل ظاهر قوله تعالى في سورة الانفطار (وإذا البحار فجّرت) . وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً ، فإن ما في بطن الأرض من النار يظهر إذ ذاك بتشققها وتمزّق طبقاتها العليا . أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً ، ولا يبقى في البحار إلا النار . أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد وردَ به بعض الاخبار ؛ وردَ أن البحر غطاء جهنم وإن لم يعرف في صحيحها . ولكن البحث العلمي أثبت ذلك ويشهد عليه غليان

(١) تفسير جزء عم ، ص ٥ .

(٢) سورة عبس ، الآية ٣٣ .

(٣) تفسير جزء عم ، ص ٢٢ .

(٤) سورة التكويد ، الآية ٦ .

البراكين وهي جبال النار كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الاطراف كما وقع في « جاوا » من عدة سنوات ، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيها ظهوراً لا شبهة تطراً على الذهن بعده » (١) .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (اذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحُقَّتْ) (٢) : « انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مرّ تفسيره في سورة الانفطار . وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه . وهو يكون بمحاذة من الحوادث التي قد ينجثر اليها سيرُ العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ، فيحدث من ذلك غمام وأي غمام . يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع . فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره (وأذنت لربها) أي استمعت لأمر ربها وفعلت حين أراد انشقاقها فعمل المطواع الذي اذا أُورِد عليه الأمر من جهة أمره أنصت له وأذعن ، فكأنه قال : امتثلت له ، (وحُقَّتْ) أي حق لها أن تتمثل أي يحذر بها ذلك وهي حقيقة بأن تنقاد ولا تمتنع ، لأنها مخلوقة له وهي في قبضته ، وهو الذي يسكها أن تزول ، فإذا أراد تبديد نظامها بدّده وما يكون لها أن تعصي إرادته . ومتى فسّد نظام السماء فتساقط من كواكبها بعضها على بعض أصاب الأرض من ذلك أشد ما يصيبها من الاضطراب فتدك جبالها وتنقطع أوصالها وتفقد التماسك بينها ، فلا يبقى لها هذا الاندماج الذي هي عليه الآن ، فتمدّ مدّ الأديم العكاظي كما روي عن ابن عباس . ولا تكون الا كتلة مائرة تتساوى أعاليها وأسافلها وعظمت بهذا الانتفاش وزادت أقطار حجمها » (٣) .

(١) تفسير جزء عم : ص ٢٦ .

(٢) سورة الانشقاق ، الآيتان ١ ، ٢ .

(٣) تفسير جزء عم : ص ٤٩ وما بعدها .

ومن مثل ذلك عندما عرض لتفسير سورة الفيل ، بعد أن ذكر ما قيل في ارسال الطير على أبرهة ، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذي أصابهم هو داء الجدري والحصبة ، يقول : « وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمه من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح ، فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتّصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة بُعِدَتْ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يُخصي عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . فله جُندٌ من كل شيء :

« وفي كل شيء له آية » تدل على أنه الواحد ، (١)

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن الشيخ محمد عبده قد خالف منهجه ومنهج كثير من مفسري السلف إذ أقحم نفسه في الخوض في الجزئيات والتفصيلات التي أهتمها الله سبحانه في كتابه الكريم . وسبب ذلك سيطرة الناحية العقلية ومستحدثات العلوم على اتجاهه التفسيري . ولا جدال في أنه قرأ بعض الكتب في الفلك . فعندما وقف أمام آي القرآن التي تتناول الحديث عن نهاية العالم « الحياة الدنيا » وتشقق السماء وتسجير البحار أخضع

(١) تفسير جزء عم . ص ١٥٨ .

مفهوم هذه الآيات لما عرّفه عن نظام الجاذبية وتكوّن المجموعة الشمسية في صورة تصل الى درجة المباهاة بمعرفة علم الكون. وهي نزعة علمية في التفسير غير مأمونة العواقب كانت موجودة عند القدماء من المفسرين ، فجاء محمد عبده فضخّمها ولقت الأنظار اليها . ونريد أن نتساءل : هل يعجز الله سبحانه عن إنهاء الحياة الدنيا بطريقة أخرى غير التي ذكرها محمد عبده ؟ وما قيمة الأفكار العلمية التي اعتمد عليها محمد عبده في تفسير الآيات السابقة بعد قرنين أو ثلاثة مثلاً عندما تزداد معلومات الإنسان عن نظام الكون الدقيق المعجيب ؟ إن الله سبحانه هو الذي وضع سنن الحياة وقوانين الأشياء كلّها ، وهو قادر على سلب هذه القوانين لحكمة يريدّها كما سلب خاصية الحرق من النار التي وقع فيها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فقال عز من قائل : (يا نارُ كوني برّداً وسلاماً على إبراهيم) .

وفي تفسير سورة الفيل يجوز أن تكون الطير هي ما يُسمّى اليوم بالميكروبات ، كما يجوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض . فالعرب المعاصرون للرسول محمد عليه السلام لا يعرفون شيئاً عن هذه الميكروبات والجراثيم ، وهم الذين نزل القرآن بلغتهم وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله . وإني أحسّ بل أدرك بأن غرض محمد عبده من هذا الاتجاه في تفسيره هو إقناع المضبوعين بالثقافة الغربية من المسلمين وإقناع المستشرقين والمبشرين بأن القرآن لا يحوي الا الذي يقبله العقل ويدعمه العلم . وهو متعسف في هذا الاتجاه وحاطب ليل . أيعجز الله سبحانه عن تدمير جيش أبرهة الحبشي الذي جاء لهدم البيت بغير الميكروبات والجراثيم ؟ والذي يبدو لي أن محمد عبده كان على حظٍ وافٍ من الانهزام الروحي والفكري . وذلك راجع عندي الى اختلاط العلم والفكر عند محمد عبده وغيره من الانهزاميين . فالدين الإسلامي لا يُعادي العلم ، بل يبحث عليه ويُعني شأن العلم والعلماء في كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ . وقد وقف محمد عبده وغيره

من المسلمين موقفاً فيه انبهارٌ وتحيرٌ إزاء تقدم العلوم ورقى الصناعة في الغرب في القرن التاسع عشر والعشرين . ونظراً لتخلف المسلمين وانحطاطهم وتقدم الغرب الكافر مادياً فقد حسبوا أن كل ما عندهم شرٌّ ، وأن كل ما عند الغربيين خير . ولم يُفسرّ قوا بين العلم التجريبي والفكر . فالعلم عامٌ يأخذه المسلم من أية جهة دون تحفظ ، أما الفكر فهو خاص . وأفكار الغرب وحضارته ومقاييسه في الحياة هي غير أفكار الاسلام وحضارته ومقاييسه في الحياة . ولا يجوز للمسلم أن يخضع مفهوم الآيات القرآنية لثقافة أو مذهب أو معلومات علمية يحملها مسبقاً . والله سبحانه لم يستشر عقول البشر عندما وضع أصول العقيدة الاسلامية ونظام الاسلام .

وهذه النزعة العلمية طغت على اتجاه محمد عبده التفسيري ، ولنستمع اليه إذ يفسر قول الله تعالى : (ولا تقولوا لمن يُقتلُ في سبيل الله أمواتٌ بل أحياءٌ ولكن لا تشعرون) (١) : « وإذا كان من خواص الأثير النفوذ في الأجسام اللطيفة والكثيفة كما يقولون حتى أنه هو الذي ينقل النور من الشمس إلى طبقة الهواء ، فلا مانع أن تتعلق به الروح المطلقة في الآخرة ، ثم هو يحل بها جسماً آخر تنعم به وترزق سواء أكان جسم طير أو غيره ، وقد قال تعالى في آية أخرى (أحياء عند ربهم يُرزقون) . وهذا القول يقرب معنى الآية من العلم » (٢) .

فبفَضْلٍ عن نزعة محمد عبده العلمية في تأويل هذه الآية يخوض في مبهم لا يجوز أن نبحث عنه . ويكفي الايمان بحياة هؤلاء الشهداء بعد قتلهم في سبيل الله يحوار ربهم . ولا نكلف أنفسنا البحث عن كيفية حياتهم ورزقهم . لأن الله سبحانه قادر على إحيائهم ورزقهم بطريقة لا نعرفها ، لأن ذلك من خصائص صنعة الله وإرادته .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٤ .

(٢) تفسير المنار ، ٣٩ / ٢ .

وقد أدرك محمد رشيد رضا خطأ أستاذه في مثل هذا الاتجاه فَعَقَّبَ على ذلك بقوله : « والمعتمد عند الاستاذ الامام في هذه الحياة هو أنها حياة غيبية تمتاز بها أرواح الشهداء على سائر أرواح الناس ، بها يرزقون وينعمون ، ولكننا لا نعرف حقيقتها ولا حقيقة الرزق الذي يكون بها ، ولا نبحث عن ذلك لأنه من عالم الغيب الذي نؤمن به ونفوض الامر فيه الى الله تعالى . »

ثأره بالمعتزلة في تفسيره :

يأخذ المعتزلة بمبدأ التحسين والتقبيح العقليين ، أي أنهم يرون الحسن ما حسنهُ العقل والقبيح ما قبحهُ العقل ، بخلاف أهل السنة الذين يرون أن الحسن ما حسنهُ الشرع والقبيح ما قبحهُ الشرع . والمعتزلة كذلك لا يقولون بالسُّحَر ولا يعتقدون في السُّحرة ، ويُغرقون في الاستهزاء والسُّخرية بأهل السُّنَّة القائلين بحقيقة السُّحر . فالعقل عند المعتزلة خارج دائرة الشرع ، وعند أهل السُّنَّة داخل دائرة الشرع . والعقل له سلطان عظيم عند المعتزلة الى درجة أنهم يعتبرونه حُجَّةً على الناس أمام الله سبحانه قبل بعث الرسل عليهم السلام . ونظراً لأن المعتزلة رفعوا من شأن العقل فإنهم يحملون على التقليد والمقلدين ، لان التقليد في نظرهم يُنافي العقل .

ونحن الآن لسنا بصدد مناقشة أصول المعتزلة وبيان فسادها أو صحتها ، ولكننا نقول ان المعتزلة حاولوا التوفيق بين أفكار الاسلام وأفكار الثقافة اليونانية الوثنية ليقيموا مذهبهم المعروف ، فأخطأوا وبخاصة في قياس أفعال الله سبحانه على الانسان ، كقولهم ان الله يجب عليه أن يفعل الاصلح ، ومثل انكارهم لبعض الاحاديث الصحيحة التي تعارض اصول مذهبهم . فجاء الشيخ محمد عبده ورفع سلطان العقل في فهم القرآن وفي التحسين والتقبيح متأثراً بالمعتزلة ، وانضم الى ذلك تأثر بمنهج ديكرت الذي يرى أن الشك هو وحده الذي يؤدي الى اليقين . وقد وصف الدكتور عثمان أمين هذا الاتجاه العقلي

عند الشيخ محمد عبده في التفسير ، يقول : « ما نحن أولاء نرى الاتجاه العقلي عند الشيخ محمد عبده وقد اتصلت به نزعات جُوانية ، فجعلت من تفسيره تبريراً للمبدأ القائل بأن « الدين المملوء بالخرافات ، والعقل المستنير لا يجتمعان في دماغ واحد » ، واذن فلا يمكن أن يحتوي القرآن على ما يستحيل عند العقل الصريح . ولكي لا يناقض الاسلام صريح العقل يلزم أن يكون هنالك تأويل صحيح لا يراعي الا الدليل العقلي أو الأحاديث الصحيحة ، لا الظنون الشخصية والميول الحزبية » (١) .

وفارق كبير بين عملية التوفيق بين أفكار الاسلام وأفكار الثقافة اليونانية الوثنية التي قام بها المعتزلة لتنزيه الله وإثبات عدله والدفاع عن الاسلام وبين عملية محمد عبده في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . فالعملية الاولى كانت في ظل دولة الاسلام وعلماء المسلمين الواعين المستنيرين . أما العملية الثانية فكانت في ظل الاستعمار البريطاني الكافر وفي وقت كان الكفر بأجمعه يحاول جاهداً القضاء على الخلافة الاسلامية في استانبول . ونحن نسوق الآن مواقف الشيخ محمد عبده التي تأثر فيها بالمعتزلة :

حملته على التقليد والمقلدين؛

ان الذي يُعِينُ النظر في تفسير الشيخ محمد عبده يجده يحمل حملة شعواء على التقليد والمقلدين . والوقوف عند آراء الأئمة الأربعة (أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل) يسمى بالجمود ، وهو ما يطابق عليه لدى الشرعيين بالتقليد .

وقد بدأ عهد الجمود أو التقليد وقفل باب الاجتهاد منذ القرن السادس الهجري وذلك بعد ان انتابت المسلمين منذ منتصف القرن الرابع بعض من العوامل السياسية والاجتماعية كان لها أسوأ الأثر في نهضتهم ونشاطهم الفكري

(١) رائد الفكر المصري ، الامام محمد عبده ، ص ١٧٤ وما بعدها .

والفقهية . فوقفت حركة الاجتهاد واقتصر الفقهاء الاقلية قليلة منهم على تقليد أو اتباع الأئمة المجتهدين الكبار (أبي حنيفة ومالك وأقرانها) ، كما كان على رجال القضاء الأخذ بآراء هؤلاء الأئمة ، ومن ذلك يرى أنهم عاجلوا الفوضى والفساد بالجمود لا بالتنظيم القويم . ويلاحظ أن المقلدين فريقان : (أ) فريق المتعصبين المتطرفين (ب) وفريق المقلدين المعتدلين . أما الفريق الأول فقد كانوا ينظرون إلى أقوال إمامهم كما ينظرون إلى النصوص ، أو بعبارة أخرى أنهم ينظرون إلى النصوص بعين مذهبهم ، فكانوا يعمدون إلى تفسير آيات الأحكام بما يؤيد مذهب الإمام الذي يتبعونه ، أي أنهم كانوا لا يرجعون إلى نص في القرآن أو في الحديث الا ليلتمسوا فيه ما يؤيد مذهب إمامهم ولو أدى بهم ذلك إلى سلوك طريق التعسف في التفسير . أما فريق المعتدلين فقد كانوا ينظرون إلى أقوال إمامهم نظرة الباحث النزيه ، ويقفون منها موقف الإنصاف ، ولا يحجمون أحياناً عن عدم الأخذ ببعض تفاصيل المذهب الذي يتبعونه . وحين انتقلت الخلافة إلى آل عثمان في تركيا كان علماء المسلمين مُستَيطرين على زمام تعليم الأمة الإسلامية فإذا بنا نجدهم لا يسمحون للأفكار الجديدة أن تقترب من ذلك التعليم ، فأدّى ذلك بالجمود إلى أن يسود ، الأمر الذي أدى بالمعاهد الإسلامية في القرن التاسع عشر إلى أن تظل على الحال التي كانت عليها في القرن الثالث عشر (١) .

وإذا كانت حملة المعتزلة على التقليد والمقلدين تنصبُّ على العقائد فإن الشيخ محمد عبده وسع هذه الدائرة فجعل حملته تنصبُّ على التقليد والجمود عند أقوال الأئمة المجتهدين الكبار أو ما يسمى علم الفروع .

ولذلك نجد الشيخ محمد عبده لا يكاد يدع فرصة تواتيه في أثناء التفسير من غير أن يعلن النكير على التقليد والمقلدين على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى :

(١) انظر أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث ، ص ٣٥ - ٣٧ .

(وما بعضهم بتابع قبلة بعض) (١) : « لان كلا منهم قد جمد بالتقليد على ما هو عليه ، والمقلد لا ينظر في آية ولا دليل ، ولا في فائدة ما هو فيه والمقارنة بينه وبين غيره ، فهو أعمى لا يبصر ، أصم لا يسمع ، أغلف القلب لا يعقل » (٢) .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) (٣) : « وقال الجلال وغيره : لا يعقلون شيئا من أمر الدين . وتعقبه الاستاذ الامام بقوله : عقل الشيء معرفته بدلائله ، وفهمه بأسبابه ونتائجه . وأقرب الناس الى معرفة الحق الباحثون الذين ينظرون في الدلائل بقصد صحيح ولو في غير الحق . لان الباحث المستدل اذا أخطأ يوماً في طريق الاستدلال أو في موضوع البحث فقد يصيب في يوم آخر ، لان عقله يتعود الفكر الصحيح ، واستعادة المطالب من الدلائل . وأبعد الناس عن معرفة الحق المقلدون الذين لا يبحثون ولا يستدلون ، لانهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يوصفون بإصابة لان المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، انما يعرف ان فلاناً يقول ان هذا هو الحق ، فهو عارف بالقول فقط ، ولذلك ضرب لهم المثل في الآية الآتية بعدما سجل عليهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم » (٤) .

ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاءً ونداءً صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون) (٥) : « والآية صريحة في أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٥ ،

(٢) تفسير المنار ، ١٧ / ٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٠ .

(٤) تفسير المنار ، ٩٢ / ٢ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٧١ .

الكافرين ، وأن المرء لا يكون مؤمناً إلا إذا عقل دينه ، وعرفه بنفسه حتى أقتنع به ، فمن ربي على التسليم بغير عقل ، والعمل — ولو صالحاً — بغير فقه ، فهو غير مؤمن ، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان ، بل القصد منه أن يرتقي عقله وتتركي نفسه بالعلم بالله والعرفان في دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضي لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته في دينه ودنياه ، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل في اعتقاده ، فلا يأخذ بالتسليم لأجل آبائه وأجداده ، ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بأنهم ('صم') لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم ('بكم') لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم ('عمي') لا ينظرون في آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق حتى تبين لهم أنه الحق (فهم لا يعقلون) مبدأ ما هم فيه ولا غايته كما يطلب من الإنسان ، وإنما ينقادون لغيرهم كما هو شأن الحيوان ، ولذلك اتبعوا من لا يعقلون ولا يهتدون . فالعاقـل لا يقلد عاقلاً مثله ، فأجدر به ألا يقلد جاهلاً ضالاً هو دونه « (١) .

وكان الشيخ محمد عبده يلح إلحاحاً شديداً على فتح باب الاجتهاد ، ويرى أن قفل باب الاجتهاد لا مسوغ له فضلاً عن أنه منافي لمبادئ الشريعة الإسلامية . والذي يسمع كلام محمد عبده في فتح باب الاجتهاد لا يسمعه إلا أن يدعمه ويؤيده لأول وهلة .

والاجتهاد في اصطلاح الأصوليين : بذل الفقيه جهده في استنباط الحكم الشرعي من دليله على وجه يحس فيه العجز عن المزيد . والدليل على اعتباره الكتاب والسنة والعقل . فكان ﷺ يجتهد ، ويأمر أصحابه بالاجتهاد .

وللمجتهد صفات أو شروط ثلاثة يجب أن تجتمع فيه ، فضلاً عن كمال العقل والدين ، وهي :

(١) تفسير المنار : ٩٤/٢ وما بعدها .

١ - العلم باللغة وطرق دلالتها على المعاني . ولا يمكن ذلك إلا لمن زاول علومها المختلفة .

٢ - العلم بالقرآن والسنة وما جاء فيها من احكام ، ولا يشترط في ذلك أن يكون حافظاً لكل ما ورد ، بل يكفي أن يكون قادراً على جمع ما يرتبط بموضوع بحثه منها ، وعلى معرفة ما قاله المختصون في الحديث من صحة أو ضعف ، وما قالوه في رجاله من جرح أو تعديل .

٣ - العلم بمقاصد الشرع ، وأحوال الناس وما جرى عليه عرفهم وما فيه صلاح لهم أو فساد ، والقدرة على معرفة علل الأحكام وقياس الأشباه على الأشباه ، ليستطيع فهم الوقائع ، واستنباط الأحكام الملازمة لمقاصد الشارع ، والمحققة لمصالح العباد المعبرة ^(١) .

والاجتهاد هو الأصل الثالث بعد الكتاب والسنة ، فمجاله إذن هو ما لم يُنص على حكمه في واحد منها ، وهو أوسع المجالات . وكل ما عُلِم من الدين بالضرورة ليس مجالاً للإجتهاد ، فلا يكون مجالاً للاختلاف ، والحق فيه واحد غير متعدد . أما ما كان مجالاً للإجتهاد فهو مجال "لاختلاف المجتهدين بسبب اختلاف الفطر والأنظار . ومن المعروف أن الأئمة الأربعة الكبار كانوا يستنكرون التقليد أو التعصب لمذاهبهم مما يؤدي إلى الجمود .

ومحمد عبده كان يرى أن فتح باب الاجتهاد هو الوسيلة العملية للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وبين تعاليم الإسلام ، وأن القرآن يستطيع أن يساير حركة التطور. ومن الضروري ذكره في مثل هذا المقام أن بلاد المسلمين كانت تحكم في الوقت الذي ألح محمد عبده على فتح باب الاجتهاد ، كانت تحكم بالنظام الرأسمالي الكافر ، ولا تزال حتى الآن تحكم به ما عدا الافغان والمملكة العربية السعودية ، فإنهما تحكمان بالإسلام أكثر من غيرهما من بلاد الإسلام .

(١) انظر أصول التشريع الإسلامي . ص ٧٤ وما بعدها .

والحياة التي كان يحياها المسلمون في عصر محمد عبده ليست من صنع الإسلام ، بل هي حياة من صنع الأنظمة الرأسمالية الكافرة .

ودولة الخلافة في استانبول كانت قد أحدثت دستوراً اقتبس من الدساتير الغربية والكفار يتربصون بدولة الخلافة للقضاء عليها . ومصر بالذات وقعت بعد حركة 'عرايى تحت قبضة الاحتلال البريطاني منذ سنة ١٨٨٢ م .

ونريد الآن طرح هذه الأسئلة :

١ - ما قيمة فتح باب الاجتهاد في الوقت الذي كانت مصر تحكم بنظام الغرب الرأسمالي الكافر الذي يختلف عن الإسلام في قاعدته الفكرية وأنظمته؟

٢ - من الذي يتبنى الأحكام الشرعية التي يستنبطها المجتهدون من الأدلة التفصيلية وأعني بها الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؟ أهو اللورد كرومر الكافر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر ، أم المحفل الماسوني (كوكب الشرق) الذي انضم إليه محمد عبده ؟ ومن المعروف أن الخليفة وحده هو الذي يتبنى الأحكام الشرعية ، أو كما يقولون : الإمام يرفع الخلاف .

٣ - هل يجوز الاجتهاد في مورد النص ، والشيخ محمد عبده أفتى لأهل الهند من المسلمين بالعمل بالقوانين الإنجليزية ، وهي قوانين كفر . وعد ذلك 'رخصة' ، مع العلم بأن نصوص الكتاب والسنة القولية والفعلية وإجماع الصحابة وجميع فقهاء الإسلام تؤكد على ضرورة الحكم بما أنزل الله ؟

٤ - هل تجتمع في الشيخ محمد عبده شروط المجتهد ؟

والحق يقال إن محمد عبده لم يلح على فتح باب الاجتهاد لمصلحة الإسلام والمسلمين ، أي ليستنبط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية ويأمر المسلمين بالعمل بها ، بل ليستطيع التوفيق ما أمكنه بين الإسلام وبين الحضارة الغربية ، أو ليلأثم بين أحداث الحياة المتجددة التي هي ليست من صنع أحكام الإسلام ومقاييسه في الحياة وبين تعاليم الإسلام ، وذلك ليزيل الجفوة المتأصلة عند

المسلمين والعداء الدفين لكل ما هو من الغرب الصليبي . ومن هنا نستطيع أن نقول ان إلحاح محمد عبده على فتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد كانت كلمة حق يراد بها باطل .

إنكاره السحر :

أعطى محمد عبده نفسه حرية واسعة في فهم القرآن الكريم . وخالف أقوال أهل السنة ، وتابع المعتزلة في قولهم إن السحر لا حقيقة له ، وذلك على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد ^(١)) : « والنفاثات من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة يستعمل للذكر والانثى . والنفاثات جمعه . والمراد بهم هنا النامون المقطعون لراوِبط الألفه المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نائمهم . وإنما جاءت العبارة كما في الآية لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلاً - مثلاً - فيما يوهمون به العامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوا لها ، ليكون ذلك حلاً للعقدة التي بين الزوجين . والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة خفية كاذبة ، والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الفاسق إذا وقب ، ^(٢) .

إنكاره بعض الأحاديث الصحيحة :

ويتابع الشيخ كلامه متأثراً بالمعتزلة فيرفض ما جاء من الروايات في سحر الرسول ﷺ على شاكلة قوله : « وقد رووا ما هنا أحاديث في أن

(١) سورة الفلق ، الآية ٤ .

(٢) تفسير جزء عم : ص ١٨١ .

النبي ﷺ سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتي شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنباء بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بشر ، وعوفي ﷺ مما كان تزل به من ذلك ، ونزلت هذه السورة .

ولا يخفي أن تأثير السحر في نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض في الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان في بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل ، آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه : (ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) . وليس المسحور عندهم إلا من خولط في عقله وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيخيل إليه أنه يوحى إليه ، ولا يوحى إليه ، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هي النبوة ولا ما يجب لها : إن الخبر بتأثير السحر في النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر . فأنظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح في نظر المقلد بدعة ، ونعوذ بالله . . . يحتاج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن في نفيه السحر عنه ﷺ ، وعده من افتراء المشركين عليه ، ويؤول في هذه ولا يؤول في تلك ، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلبسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تُعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد ، فإنه خولط في عقله وإدراكه في زعمهم . والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يشبهه ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه . وقد جاء بنفي السحر عنه عليه السلام ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذا هو ليس بمسحور قطعاً .

وأما الحديث فعلى فرض صحته ، هو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها في باب العقائد ، وعصمة النبي من تأثير السحر في عقله عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ في نفسها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون . على أن الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد ، إنما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة .

وعلى أية حال ، قلنا بل علينا أن نفوض الأمر في الحديث ، ولا نحكمه في عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فإنه إذا خولط النبي ﷺ في عقله كما زعموا ، جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه ، أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه . والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان ثم إن نفي السحر عنه لا يستلزم نفي السحر مطلقاً . فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه ، لأن الله عصمه منه . ما أضر المحب الجاهل وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه ، نعوذ بالله من الخذلان . على أن نافي السحر بالمرة لا يجوز أن يُعَدَّ مُبْتَدِعاً ، لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون في قوله (آمن الرسول ... الآية) ، وفي غيرها من الآيات وردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلماً ، ولم يأت في شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الإيمان بشبوته أو وقوعه على الوجه الذي يعتقد به الوثنيون في كل ملة ، بل الذي ورد في الصحيح هو أن تعلم السحر كفر . فقد طلب منا ألا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسمه . وجاء ذكر السحر في القرآن في مواضع مختلفة . وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، ^(١) .

وإني أوافق الأستاذ محمد حسين الذهبي على ما ذهب إليه في هذه المسألة

(٢) تفسير جزء عم : ١٨١ - ١٨٣ .

إذ يقول : « وهذا الحديث الذي يردده الأستاذ الإمام رواه البخاري وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة . وليس من وراء صحته ما يُخل بمقام النبوة ، فإن السحر الذي أصيب به النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الأمراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شيء من العقل ، وقد قالوا إن ما فعله لبيد بن الأعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العقد عن النساء ، وهو الذي يسمونه « رباطاً » ، فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه ، فإذا ما هم بحاجته عجز عن ذلك . أما السحر الذي نفى عنه ﷺ فمراد به الجنون ، وهو نخل ، ولا شك بمقام النبوة ، وقد قالوا : (يأبها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون) .

ثم إن الحديث رواية البخاري وغيره من أصحاب الصحيح ، ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخاري وغيره ، فلا مانع عندهم من عدم صحة ما يرويه البخاري ، كما أنه لو صح في نظرهم فهو لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يثبت به إلا الظن ، وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التي هي بالنسبة للكتاب في منزلة المبين من المبين ، وقد قالوا إن البيان يلتحق بالمبين . وليس هذا الحديث وحده هو الذي يضعفه الشيخ ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد ، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسي ، فمن ذلك أيضاً حديث الشيخين (كل بني آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) فإنه قال فيه : « إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة » . فهو لا يثنى بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ، ثم يتلخص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة ، يجعل الحديث من باب التمثيل ، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة الذين يرون أن الشيطان لا تسلط له على الإنسان إلا بالوسوسة والاغواء فقط ، (١) .

(١) التفسير والمفسرون : ٣ / ٢٤٠ وما بعدها .

وها هو ذا الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ محمد عبده ومترجم أفكاره وآرائه لا يوافق أستاذه على ما ذهب إليه في جعل الحديث ماساً بالعقل ومخلًا بالتالي بمقام النبوة ، ويعده صريحاً في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء على شاكلة قوله : « فهذا الحديث صريح في أن المراد من السحر فيه خاص بمسألة مباشرة النساء . ولكن فهم أكثر العلماء أنه ﷺ سحر سحراً أثر في عقله كما أثر في جسده ، فأنكره بعضهم وبالفوا في إنكاره وعدوه مطعناً في النبوة ومنافياً للعصمة لقول عائشة : حتى أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله . فعظمت هذه الرواية على علماء العقول وعدوها مخالفة للقطعي في النقل وهو ما حكاها الله تعالى عن المشركين من طعنهم فيه كمادة أمثالهم في رسولهم بقولهم (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) وتفنيده تعالى لهم بقوله (أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً) ، ومخالفة للقطعي في العقل من عصمة النبي ﷺ من كل ما ينافي النبوة والثقة بها ، إذ يدخل في ذلك التخيل ما هو من التشريع ، ومخالفة لعلم النفس الذي يعلم منه أن الأنفس السافلة الخبيثة لا تؤثر في الأنفس العالية الطاهرة . فأنكر صحة الرواية بعض العلماء ، وأقدم من عرفنا ذلك عنهم من المفسرين الفقهاء أبو بكر الجصاص الحنفي المعتزلي في كتابه « أحكام القرآن » ، وآخرهم شيخنا الأستاذ الإمام في تفسيره « جزء عم » . وقد أطال شيخنا في هذا وبالغ فيه . وبني إنكاره على القاعدة المتفق عليها عند علماء العقائد وأصول الفقه في معارضة الظني للقطعي ، إذ الحديث آحادي ، وهو يفيد الظن فيرد بالقطعي عقلاً ونقلاً وهو ما ذكرناه آنفاً .

وقد اتفقوا على أن أحاديث الآحاد لا يُحتجُّ بها في أصول العقائد ، وقال : إن كونه يفيد الظن خاص بمن صح عنده وإن له أن يتأوله أو يفوض الأمر فيه على قاعدتهم الأخرى في النصوص المعارضة للعقل . ولعمري إن ما نعرفه عن شيخنا محمد عبده — قدس الله روحه — من إجلاله وإكباره لشأن محمد

رسول الله وخاتم النبيين في نفسه الزكية ، وروحه القدسية ، وعلو مداركه العقلية ، مما لم نعرف مثله عن أحد من العلماء العقليين كفلاسفة المسلمين ومتكلميهم ، ولا من العلماء الروحيين كالصوفية ، ولا من علماء النقل كجامعي الروايات الكثيرة في معجزاته ﷺ ، وحسبك منها تلك الآثار البليغة في رسالة التوحيد ، بل كان يقول إن روجه ﷺ كانت منظومة على جملة هداية الدين ومدارك التشريع التي فصلت في كتاب الله تعالى وسنته تفصيلاً تاماً كما نقلناه عنه في تاريخه .

وأجاب عن الرواية المحدثون المصححون لها علماء والمقلدون لهم بأن غاية ما تدل عليه أن ذلك السحر إنما أثّر في بدنه دون روجه وعقله ، فكان تأثيره من الأعراض الجسدية كالأمراض التي لم يُعصم الأنبياء عليهم السلام منها ^(١) .

فأنت ترى أن الشيخ محمد رشيد رضا ينقد أستاذه محمد عبده لإنكاره الحديث الصحيح ومبالغته في الإطالة في إنكار صحة الحديث بدون مسوغ لذلك . ومع ذلك فإنه يدافع عن شيخه ويستر انحرافه بحجة إجلاله وإكباره لشأن محمد رسول الله وخاتم النبيين . وهذا الدفاع ساقط في نظر أهل التقوى والورع وأتباع الحق . إذ كيف يحلُّ محمد عبده ويُكبر شأن محمد ﷺ وينكر أحاديث رواها الشيخان البخاري ومسلم رضي الله عنهما ؟ ومن المعروف أن صحيح البخاري ومسلم هما أصح كتب الحديث إطلاقاً بإجماع الجمهور .

ويلاحظ الباحث أن محمد عبده دأب على إزالة الهيبة عن أحاديث رسول الله ﷺ التي ثبتت صحتها إذا لم توافق هواه ومنحاه العقلي الغالب عليه في تفسيره وفتاواه . ورأينا كيف أنه ألح إلحاحاً شديداً على فتح باب الاجتهاد على مصراعيه في صورة تقلل من الجهد الذي بذله الأئمة الأربعة المجتهدون

(١) تفسير الفاتحة وست سور من خواتم القرآن ، ص ١٣٠ - ١٣٢

الكبار رضي الله عنهم بحجة محاربته للتقليد والمقلدين .

وأما المفسرون الأسلاف رضي الله عنهم فقد أصابهم من لاذع قوله واستخفافه بجهودهم واجتهادهم في توضيح وشرح كتاب الله ما أصابهم ، ومن الأمثلة على ذلك أنه لما أبدى رأياً طريفاً في تفسير بعض الآيات قال له أحد المجاورين : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل^(١) - يعني بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشي على تفسير الجلالين - فقال محمد عبده على الفور : إنني أقرّ ما يدل عليه المعنى الجليل ، والكلام البليغ ، ولا يعنيني أوافق عليه الجمل أو الجمار^(٢) .

من هذا النص نلاحظ قسوته على المفسرين السابقين بالكلام اللاذع . وكان من الواجب ألا يتفوّه بمثل هذا القول ولكنها نزعة عدم التوقير للأقدمين . ولكل مجتهد نصيب .

وأما شيوخ الأزهر فقد شنع عليهم وآذام وطمعن فيهم^(٣) ، وقد قاد حملة تنقّب عن أسوأ ما في الأزهر وما في كتبه لتعرضه على الناس . وقديماً قالوا (من فتش عن عيب وجده) .

ولا جدال في أن الاعتماد على العقل وحده عند محمد عبده في فهم كتاب الله هو الذي أوقعه في هذه الأخطاء الشنيعة . فلو نظرنا إلى كتاب الله لوجدنا أن العبادات وبعض الأحكام الشرعية مثلاً لا يمكن أن يخوض فيها العقل أو يوجد لها علة . فالصلاة مثلاً أمر تعبدي لا يُعقل معناه وقس عليها . والعقل في نظر الإسلام يكون ويعمل في دائرة الشرع وليس في خارج هذه الدائرة كما فعل محمد عبده ومن سبقه من المعتزلة .

وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الشرع أوجب التعفف أي غضّ البصر

(١) انظر التفسير والمفسرون ، ٢٢٥/٣

(٢) انظر مثلاً كتاب تفسير الفاتحة ، ص ٤٤ وما بعدها ،

بالنسبة إلى الحرية الشوهاء شعرها وبشرتها مع أن الطبع لا يميل إليها ، ولم
يوجب غض البصر بالنسبة إلى الأمة الحسناء التي يميل إليها الطبع ، وأيضاً
فقد أوجب الله تعالى القطع في سرقة القليل دون غضب الكثير ، وأوجب
الجلد على القاذف بالزنا بخلاف القاذف في غير الزنا مع أنه قد يكون أفظع منه
كالقذف بالكفر ، وشرط في شهادة الزنا أربعة رجال واكتفى بشهادة القتل
بأثنين مع أن القتل أغلظ من الزنا ، وأوجب الزكاة في الذهب والفضة ولم
يشرعها في الماس والياقوت وغيرهما من المعادن النفيسة ، وأحل البيع وحرم
الربا مع أن كلا منها بيع وهما متماثلان ، وشرط في شهادة الرجعة أن يكون
الشاهد مسلماً وأجاز في الوصية أن يكون الشاهد كافراً ، ونهى عن تقديس
الأحجار وأمر بتقبيل الحجر الأسود ، وغير ذلك كثير . فلو جعل للعقل أن
يفهم من مجموع الشرع علة ، أو يفهم من ظاهر النص علة ، أو يفهم من مجرد
التماثل بين حكيم وجود القياس بينها لحرم كثيراً مما أباحه الله وأحل كثيراً
مما حرمه الله .

ويتحدث الدكتور عبد الحليم محمود عن الذين نهجوا النهج العقلي في الدين
في الماضي والحاضر ، يقول : « أما الطائفة الثالثة التي لم تسجد لله إلا شكلاً
فإنها طائفة المعتزلة من علماء الكلام : إنهم لم يسجدوا لله سجود خضوع وإذعان ،
ومذهبهم قائم على تحكيم العقل في الدين ، ووصل بهم الأمر إلى أنهم يوجبون
على الله بعض الأعمال ، سبحانه وتعالى ، ويحرمون عليه إتيان بعضها سبحانه
وتعالى ، فوضعوا أنفسهم بعملهم هذا موضع المشرعين لله ، سبحانه ،
يلزمونه سلباً ويلزمونه إيجاباً ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، وصدق فيهم
قول الله تعالى : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء
ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون) .
وكل من نهج النهج العقلي في الدين ، في العصر الحاضر ، إنما هو تابع من
أتباع المعتزلة ، ولا مناص من الإقرار بأن مدرسة الشيخ محمد عبده ، إنما

هي مدرسة اعتزالية في مبادئها وأصولها ، وهي مدرسة اعتزالية في غاياتها وأهدافها ، ذلك أنها تضع قضايا الدين في ميزان عقلها ، فتنتفي وتثبت ، حسبما تقتضيه الأهواء والنزعات .

والمدرسة العقلية في الدين ، أيا كانت وفي أي مكان وجدت ، وفي أي زمان نشأت لم تسجد لله سجود خضوع وإذعان ، وانما سجدت للعقل ، وعبدت العقل فتفرقت الى ما لا يكاد يحصى من الفرق (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) . وسبيل المؤمنين ، انما هو السجود لله وحده ، وذلك ، ايضاً سبيل الراسخين في العلم ، اذ الراسخون في العلم ، هم دائماً مؤمنون ساجدون لأمر الله ، واليههم تشير الآية الكريمة : (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولوا الألباب) (١) .

والدكتور سليمان دنيا ينتقد محمد عبده ويصفه بأنه قد عول على العقل تعويلاً يجعله في عداد المفكرين الاحرار ، وكان يرى أن العقل كفيل بحل المشاك (٢) .

ويقول الدكتور سليمان دنيا : « إن الذي لا شك فيه عندي أن الشيخ محمد عبده ، قد تحيف من حق النصوص ، وبالع في تقدير قيمة العقل ، والكتاب كله شواهد على هذا الذي أذهب إليه » (٣) .

موقفه من حقيقة الملائكة وابليس :

ولأن الشيخ محمد عبده يعتمد على عقله في فهم كثير من آيات القرآن التي

(١) الاسلام والعقل : ص ٣١ - ٣٣ .

(٢) انظر الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين : ج ١ / ص ٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢٦/١ .

لا يجوز للعقل أن يخوض فيها ألَبته كالمغيبات مثلاً ، فإننا نجد يؤول قصة الملائكة وإبليس تأويلاً بعيداً مردوداً ومتأثراً بالغزالي في التعبير عن معنى بعينه . وغرضه من هذا التأويل الذي أرتآه وعبر عنه بالإيماء والاشارة إقناع منكري الملائكة من معاصريه بوجودهم بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، فجعل الملائكة قوى لا تعقل مخالفاً منطوق الآيات ومفهومها وما فهمه المسلمون من أن الملائكة عباد الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا لا يتأتى إلا إذا عقلوا وأدركوا بطريقة لا نعرفها نحن على شاكلة قوله في تأويل قوله تعالى : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر وكان من الكافرين) (١) :

وزهد بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة ، من كونهم موكلين بالأعمال ، من إنماء نبات ، وخلق حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص ، نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان ، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكاً ، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يُسم هذه المعاني القوى الطبيعية ، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة .

والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن العاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٤ .

في الشرع . فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تُحجبه الاسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول : لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس ؟ وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه ، وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب - وقد أعترف بما 'غيب' عنه - لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟

يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عندما هم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا ، كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شوري ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : افعل ، وآخر يقول : لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ، وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تُكتنه حقيقتها ، لا يبعد أن يسميه الله ملكاً ، أو يسمي أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجب فيها على الناس ، فكيف يحجب فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ ، والعلم الواسع . فإذا صنع الجري على هذا التفسير ، فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حُدده من الأثر الذي خص به ، خلق بعد ذلك الإنسان ، وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد

الذي لا حد له ، والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه ، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبّر عنها بإبليس ، وهي القوة التي لزمها الله بهذا العالم لزاماً ، وهي التي تميل بالمستعد للكمال ، أو بالكامل إلى النقص ، وتعارض مدّ الوجود لتردّه إلى العدم ، أو تقطع سبيل البقاء ، وتعود بالموجود إلى الفناء ، أو التي تعارض في اتباع الحق وتصدّ عن الخير ، وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته ، فيصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلّق مستعداً للوصول إليها ، تلك القوة التي ضللت آثارها قوماً فزعموا أن في العالم إلهاً يسمى إله الشر ، وما هي بإله ، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو . ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنحها من ذلك . والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق « (١) » .

أرأيت كيف يحنح محمد عبده جتوحاً واضحاً إلى التمثيل والتخييل في قصة الملائكة وإبليس ؟ وقد صرف الألفاظ عن ظاهرها بغير قرينة تدعو إلى ذلك . وهو وإن كان متأثراً بالمعتزلة الذين يحنحون إلى التمثيل والتخييل في كل جملة قرآنية تعارض مذهبهم إلا أنه فاقهم في المسلك وجاوزهم بحجة إقناع منكري الملائكة بوجودهم على نحو يبدو فيه متأثراً أيضاً بالغزالي وإشارات الصوفية وتأويلات الباطنية .

والإيمان بالملائكة جزء من الإيمان في شريعة الإسلام . والملائكة من المغيّبات ، مثل الجنة والنار . وهذه المغيّبات يؤمن بها المسلم إيمان تسليم وإذعان وتصديق . وإنكارها يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله . وإذا أولها المسلم على نحو يؤدي إلى إنكارها فقد كفر .

(١) تفسير المنار ، ٢٦٧/١ - ٢٦٩ .

والأساس هو الإيمان بالله الواجب الوجود عن طريق العقل . وعندما يؤمن الإنسان بالله الواجب الوجود الذي خلق الكون والإنسان والحياة ونظمها وأبدعها ، فلا يمكن بأية حال أن يترك الناس هملاً بدون تنظيم ، ومن هنا كانت الكتب السماوية من عند الله سبحانه وينزل بها جبريل عليه السلام على الأنبياء عليهم السلام .

والقرآن الذي بين أيدينا نزل على محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين . فهو إما أن يكون من عند الله سبحانه أو من عند محمد عليه السلام أو من عند العرب . والقرآن تحدّثي العرب بأن يأتوا بسورة من مثله فمجزوا وتطامننت كبرياؤهم وسلّموا بالعجز . ومحمد عليه السلام له الحديث ، وهو يختلف عن أسلوب القرآن ، ويعرف ذلك كلُّ من له أدنى فهم بمعرفة الفصاحة والبلاغة . فلو كان القرآن من عنده لكان الحديث على أسلوب القرآن . إذن فالقرآن الكريم ليس من عند العرب ولا من عند محمد ﷺ ، وهو من الله سبحانه وتعالى نزل بلسان عربي مبين . والقرآن الكريم ، كتاب الإسلام هو الذي عرفنا ما الإيمان ؛ الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى .

إذن فما قيمة أن يتعسف الشيخ محمد عبده ويميل إلى التمثيل في قصة الملائكة وإبليس على النحو الذي رأينا ليقنع منكري الملائكة بوجودهم ؟ ! فمنكر الملائكة كافر . والكافر لا يؤمن بالملائكة إلا إذا آمن بالخالق الواجب الوجود ، وهذا هو الأساس . ومن هنا يتبين لنا تحبط الشيخ وسوء مسلكه وانتهزامه الروحي والفكري .

ويقول الشيخ محمد عبده في موضع آخر إلى تقرير التمثيل والتخييل في القصة ، يقول : « وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : أن إخبار الله الملائكة يجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه ، التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات

يُتصرف فيها ، فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يُفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ، ويعطي استعداداً في العلم والعمل لا حدة لها ، هو تصوير لما في استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافته في الأرض . وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان ليعلم كل شيء في هذه الأرض ، وانتفاعه به في استعمالها . وعرض الأسماء على الملائكة ، وسؤالهم عنها ، وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته . وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك . وإبائه إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ، وإبطال داعية خواطر السوء التي هي مثارُ التنازع والتخاضم والتعدي والإفساد في الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمنٌ يكون فيه أفرادُه كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشري ، (١) .

وهذا التأويل الذي جوزه محمد عبده تأويل بعيدٌ مردود . وفيه صرف الحقيقة إلى المجاز والتمثيل من غير قرينة تدعو إلى ذلك . ولو حكنا هذه النزعة على فهمنا لمراد الله تعالى في القرآن الكريم لصُرّفت الأحكام الشرعية إلى التمثيل الذي يؤدي إلى تعطيل الشريعة الإسلامية . والملاحظ أن محمد عبده بذل الجهد الكبير ليروج لهذا التأويل يجعل الأوامر التي وردت في الآية من قبيل الأمر التكويني لا الأمر التكليفي .

تأثره بأبن تيمية في الحملة على البدع والأوهام

وجه محمد عبده النقد العنيف إلى البدع المذمومة والأوهام المنتشرة بين المسلمين في أخريات القرن التاسع عشر . وهذا الموقف شبيه بموقف ابن تيمية

(١) تفسير النار : ٢٨١/١ وما بعدها .

الحراني من بدع الصوفية المنتشرة في القرن الثامن الهجري .

وإذا كانت البدع قد انتشرت في بلاد الإسلام بفعل الصوفية في القرن الثامن الهجري القريب العهد بحركة الاجتهاد فإن من الأولى أن تنتشر في القرن الثالث عشر الهجري بفعل انحطاط المسلمين فكرياً واستمرار توقف الاجتهاد وإهمال الدولة العثمانية الأعجمية للغة العربية لغسة القرآن الكريم ، كتاب الإسلام ، مصدر العقيدة الأول والأحكام الشرعية التي يعالج المسلمون بها مشاكلهم .

ولأن محمد عبده اتخذ تفسير القرآن ودروس التفسير الأساس لدعوته الإصلاحية الجزئية كان من البدهي أن يتصدى لهذه البدع والأوهام ينقدها بعنف ويطلب من المسلمين التخلي عنها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن محمد عبده متأثر بالحركة الوهابية التي استوحت برنامجها الإصلاحية من مواقف ابن تيمية الحراني الذي كان يدور في نطاق المذهب الحنبلي في معظم أحواله . وهو أيضاً متأثر بالدعوة السنوسية الإصلاحية في ليبيا .

وما هوذا يتحدث عن المبتدعة في دين الإسلام والمنحرفين في اعتقادهم في أثناء تفسيره لقوله تعالى (ولا الضالين) من سورة الفاتحة على شاكلة قوله : والقسم الثالث : من بلفتهم الرسالة وصدقوا بها ، بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على اصولها ، فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ، ومنهم المبتدعون في دين الإسلام ، وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن ، وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ، ففرقوا الأمة الى مشارب ، يغص بمائها الوارد ولا يرتوي منها الشارب ، واني أشير الى طرف من آثارهم في الناس : يأتي الرجل إلى دوائر القضاء ، فيستحلف بالله العلي العظيم ، أو بالمصحف الكريم ، وهو كلام الله القديم أنه ما فعل كذا ، فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه

المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية فيتغير لونه وتضطرب أركانه ، ثم يرجع في قسمه ويقول الحق ، ويُقر بأنه ما حلف أولاً أنه لم يفعله ، تكريراً لاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة إذا حلف باسمه كاذباً . فهذا ضلال في اصول العقيدة يرجع الى الضلال في الايمان بالله تعالى وما يجب له من الوجدانية في الافعال .

ولو أردنا ان نسردها وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقام واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال . ومن اشنعها أثراً وأشدّها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد « (١) » .

ويحمل على العلماء الذين يجارون أهل البدع والاهواء في تفسيره لقوله تعالى : (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين) (٢) : « هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله تعالى هو اشد وعيداً لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل . فإنه افرده بالخطاب مع أن المراد به أمته .

نقرأ هذا التشديد والوعيد ، ونسمعه من القارئ ، ولا نزدجر عن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالاتهم ، حتى أنك ترى الذين يشكون من هذه البدع والاهواء ويعترفون ببُعدها عن الدين يجارون أهلها عليها ، ويمارجونهم فيها ، وإذا قيل لهم في ذلك قالوا ماذا نعمل ؟ ما في اليد حيلة العامة عسى ، آخر زمان ! وأمثال هذه الكلمات هي جيوش

(١) تفسير المنار ، ٧٠/١ وما بعدها .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٥ ،

الباطل تؤيده وتمكنه في الأرض ، حتى يحل بأهل البلاء ويكونوا من الهالكين ، (١) .

وفي موضع آخر من تفسيره ينقد أعمال مدعي التصوف مثل إحياء الموالد وما ينفق فيها من أموال في غير سبيل الله : « ولقد تشوهت سيرة مدعي التصوف في هذا الزمان ، وصارت رسومهم أشبه بالمعاصي والأهواء من رسوم الذين أفسدوا التصوف من قبلهم ، وأظهرها في هذه الاحتفالات التي يسمونها الموالد . ومن العجيب أن تبع الفقهاء في استحسانها الأغنياء ، فصاروا يبذلون فيها الأموال العظيمة ، زاعمين أنهم يتقربون بها إلى الله تعالى . ولو طلب منهم بعض هذا المال لنشر علم أو إزالة منكر أو إعانة منكوب لضنوا به وبخلوا ، ولا يرون ما يكون فيها من المنكرات منافياً للتقرب إلى الله تعالى ، كأن كرامة الشيخ الذي يحتفلون بمولده تبيح المحظورات ، وتحل للناس التعاون على المنكرات . فالموالد أسواق الفسوق ، فيها خيام للعواهر ، وحانات للخمر ، ومراقص يجتمع فيها الرجال لمشاهدة الراقصات المتهتكات ، الكاسيات العاريات ، ومواضع أخرى لضروب من الفحش في القول والفعل يقصد بها إضحاك الناس . وبعض هذه الموالد يكون على المقابر ، ويرى كبار مشايخ الأزهر يتخطون هذا كله لحضور موائد الأغنياء في السراقات والقباب العظيمة التي يضربونها وينصبون فيها الموائد المرفوعة ، ويوقدون الشموع الكثيرة ، احتفالاً باسم صاحب المولد ، ويهنيء بعضهم بعضاً بهذا العمل الشريف في عرفهم ، (٢) .

التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية :

ذهب محمد عبده إلى أن الإصلاح الاجتماعي وإصلاح التعليم الإسلامي هما

(١) تفسير المنار ، ٢ / ١٨ . وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ٢ / ٧٤ وما بعدها .

الوسيلة الى الإصلاح السياسي وتحرير المسلمين من سيطرة الغرب . وقد رأينا كيف كان يحض على التفكير المتحرر الذي لا يوقر رأياً ولا ينتهي عند الحدود التي يُخشى معها الزلل فيما يستعصي على طاقة العقل ويخرج عن حدود صلاحيته ^(١) . ولقد رأينا كيف حمل المبعوثون الى الغرب من مصر وغيرها أفكار الغرب ومقاييسه وقيمه ، من مثل الحرية والوطن وحرية المرأة وغيرها ، وألقوا بها في التربة الإسلامية التي تحمل عداءً دفيناً أصيلاً للغرب وأفكاره منذ قرون خلت . وبلغ العداء ذروته في أيام الحروب الصليبية الكافرة ، واستمر الى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . ومن الطبيعي ألا تنبت هذه البذور الغربية في التربة الإسلامية إلا اذا توفرت لها عوامل الإنبات والنماء .

والغرب الصليبي الكافر عندما غزا بلاد المسلمين في الحروب الصليبية كان همجياً متخلفاً . ولذلك لم يتأثر به المسلمون عندما احتل بلاد الشام . والصحيح أن الصليبيين هم الذين استفادوا من المسلمين من حيث الرقي المادي العلمي . وهذه قضية لا تحتاج الى أدلة باعتراف المستشرقين وكتّاب الغرب . أما الحال في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين فمختلف عن الهجمة الأولى . لأن الغرب شهد نهضة ورقياً مادياً وصناعياً وعلمياً منذ القرن الثامن عشر . ولما استولى على مصر وغيرها من بلاد الإسلام ظن المسلمون أو المضبوعون بثقافة الغرب من المسلمين أن التقدم العلمي والصناعي في الغرب لا بد أن يصاحبه تقدم ونهوض فكري . وهذه النظرة أفاحت لهذه البذور الغربية بعض عوامل الإنبات .

ورأى مفكرو الغرب ورجالاته أنهم لكي يضمّنوا استعمارهم واحتلالهم لبلاد المسلمين فلا بد من إزالة الجفوة والعداء بينهم وبين المسلمين ، فلا بد من

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ١ / ٢٢٢ .

حركة توفيقية تجعل من المعالجات والأحكام الرأسمالية وكأنها من الاسلام أو على الأقل لا تتعارض مع الاسلام . فكان محمد عبده في مصر التي احتلتها بريطانيا ، وكان أحمد خان في الهند الذي كانت تقوم حركته على الافتتان بالعلم الطبيعي والحضارة الغربية المادية لإفساد عقول المسلمين بعد زوال دولة المغول الاسلامية في الهند . وحاول أحمد خان أن يجعل الولاء للسلطة البريطانية مشتقاً من تعاليم الاسلام ، وينشئ جيلاً من شباب الهند يعاون الاستعمار باسم التقدمية في الاسلام ^(١) . وهو في ذلك لا يختلف عن حركة الشيخ محمد عبده .

والذي ساعد على هذه الحركة التوفيقية على الحياة ، مع وجود علماء من المسلمين في مصر والهند يدركون خطورتها ويقاومونها ، كون هذا الجيل من الأمة الاسلامية لم يتسلم من سلفه أية أفكار إسلامية ، ولا أفكار غير إسلامية ، وبالطبع لم يتسلم طريقة تفكير منتجة . فهو قد ورث الأفكار الاسلامية باعتبارها فلسفة خيالية ، تماماً كما يرث اليوم اليونان فلسفة أرسطو وأفلاطون . وورث الاسلام باعتباره طقوساً وشعائر للتدين ، كما يرث النصارى دين النصرانية . وهو في نفس الوقت عشق الأفكار الرأسمالية من مجرد مشاهدته نجاحها لا من إدراكه لواقع هذه الأفكار ، ومن خضوعه لتطبيق أحكامها عليه ، لا من إدراك انبثاق هذه المعالجات عن وجهة النظر الرأسمالية للحياة . ولذلك بات خالياً من الأفكار الرأسمالية تفكيرياً ، وإن كان يخوض غمار الحياة على منهجها ، وأضحى خالياً من الأفكار الاسلامية عملياً ، وإن كان يتدين بالاسلام ويدرس أفكاره .

وأتاح لحركة محمد عبده التوفيقية الحياة بعض الشيء اعتماده على فكرة انّ ما لا يخالف الاسلام ولم يرد نص على النهي عنه يجوز أخذه . وهذه

(١) انظر الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٢٣ وما بعدها .

فكرة باطلة من أساسها . ويتضح من تدقيق الأدلة أن أخذ أي حكم من غير ما جاء به الشرع أخذٌ لحكم كفر ، لأنه أخذٌ لغير ما أنزل الله . فإن الله سبحانه وتعالى نهى عن تحكيم غير الشرع ، وفوق نهيه هذا من مثل قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) وقول الرسول ﷺ (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) ، فإنه جل شأنه قد نهى نهياً صريحاً عن أخذ الحكم الذي لم ينزله ، فهو يقول للرسول عليه السلام (وإن احكمم بينهم بما أنزل الله) . والمعروف أن احكام الإسلام ومعالجاته تقوم على قاعدة فكرية مفادها الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى .

والنظام الرأسمالي يقوم على قاعدة فكرية مؤدّاها فصل الدين عن الحياة بعد عملية صراع رهيب بين رجال الدين في أوروبا وعلى رأسهم البابا وبين المفكرين والحكام .

والفكر الماركسي - اللينيني يقوم على قاعدة فكرية تقول بأن الكون مادي يدير نفسه بنفسه وإن الحياة مادة . وكل نظام من هذه الأنظمة يقوم على قاعدة فكرية . ونظراً لأن القاعدة الفكرية للإسلام تختلف عن القاعدتين الفكريتين الرأسمالية والشيوعية ، فإن نظام الإسلام يختلف تماماً عن النظام الرأسمالي وعن النظام الشيوعي ، وإن كانت بعض احكام الاسلام تشبه ما عند النظام الرأسمالي من إباحة الملكية الفردية وكذلك المشابهة بين الملكية العامة لكل ما هو ضروري للجماعة في الإسلام وإلغاء الملكية الفردية في المرحلة الشيوعية . فالإسلام ليس ديموقراطياً ولا رأسمالياً ولا شيوعياً .

ونحن الآن نوضح جوانب التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية والاحكام والمعالجات الغربية التي قام بها محمد عبده خدمة لأهداف الماسونية

أولاً، التي من أهدافها العظيمة ترويض العلمانية والقضاء على كل نظام أصيل ،
وخدمة لبريطانيا التي كان يمثلها اللورد كرومر صديق محمد عبده الحميم
وولي نعمته

جانب اصلاحي خلقي :

رأى محمد عبده ان الإصلاح الأخلاقي يجب ان يسبق الإصلاح السياسي .
وهذه الرؤية من صميم الأفكار الرأسمالية الغربية .

وكل من يتتبع إنتاج محمد عبده في التفسير يخرج بنتيجة مؤداها ان المحور
الذي يدور عليه نشاطه في ذلك التفسير مشاغله الأخلاقية بوجه خاص .
وهذا الصدد يقول الدكتور عثمان أمين : « ولعل المحور الذي يدور عليه
نشاط الإمام في ذلك التفسير مشاغله الأخلاقية بوجه خاص : فما كتبه الأستاذ
بنفسه ، والدروس التي قيدها عنه تلاميذه تبين ما ذهبنا اليه بياناً لا ريبه
فيه . والواقع ان كتاباته وآثاره جميعاً تفيض بالمعاني الأخلاقية التي يريد ان
تقسم بها نفوس المصريين ، كتنمية الشخصية ، وتحرر الفكر ، وبذل الجهد ،
والتسامح ، والاستقلال . وإنا لنجد هذه الافكار تمتد امتداداً طبيعياً حتى
تصل إلى الاعتبارات الاجتماعية العصرية عن العدالة والتعاون والاحسان ، تلك
الاعتبارات التي لم تفتأ ماثلة في ذهن المصلح المصري . وعندنا ان طرافة تفسير
الأستاذ الامام للقرآن تتلخص في انه كان وسيلة فعالة لاصلاح المجتمع
الاسلامي ، وكان مشبعاً بروح اخلاقية خالصة ، وكان في الوقت نفسه ملائماً
لذوق العصر ومطالبه ، (١) .

فالدكتور عثمان أمين يعترف بأن تفسير الشيخ محمد عبده كان ملائماً لذوق
العصر ومطالبه . أي أن تفسيره لم يكن دعوة انقلابية تصحيحية للأوضاع
القائمة على اساس الافكار الرأسمالية الكافرة ، بل كان توفيقاً وملائمة بين الاسلام

(١) وائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده : ص ١٨٧ .

وذوق العصر ومطالبه ، أو بمعنى آخر بين الاسلام وبين الاحكام والمعالجات الرأسمالية . ولنستمع إليه كيف ينقد حكم الخديوي وفساده وطفيلانه وبغبيته وعدم قبوله للنصيحة على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وإذا قيل له اتق الله اخذته العزة بالإثم ... الآية) (١) : « هذا الوصف ظاهر جداً في تفسير التولي بالولاية والسلطة ، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة أو يحذّر من مفسدة ، لأنه يرى أن هذا المقام الذي ركبه وعلاه يجعله أعلى الناس رأياً وأرجحهم عقلاً ، بل الحاكم المستبد الذي لا يخاف الله تعالى ويرى نفسه فوق الحق ، كما أنه فوق اهله في السلطة ، فيجب أن يكون أفن رأيه خيراً من جودة آرائهم ، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم ، فكيف يجوز لاحد منهم أن يقول له : اتق الله في كذا ؟ وإن الأمير منهم ليأتي أمراً فيظهر له ضرره في شخصه أو في ملكه ويود لو يهتدي السبيل إلى الخروج منه فيعرض له ناصح يشرع له السبيل فيأبى سلوكها ، وهو يعلم أن فيها النجاة والفوز إلا أن يحتال الناصح في اشراعتها ، فيجعلها بصيغة لا تشعر بالارشاد والتعليم ، ولا بأن السيد المطاع في حاجة إليه . وقد عرضت نصيحة على بعضهم مع ذكر لفظ النصيحة بعد تهديد له بالحديث (الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) وبيان معناه . فعظم عليه أن يقول أحد إنني أنصح لك لأنك إمامي ، وكان ذلك آخر عهد الناصح به .

فانظر كيف لم يرض حاكم مسلم بأن يبذل له ما يجب أن يبذل لله ولرسوله ولأئمة . وقد كان العلماء ينصحون للخلفاء والملوك المسلمين ، فيأخذون بالنصح بحسب مكانهم من الدين ، وأما الطغاة البغاة الذين ليس لهم من الاسلام إلا ما يخدعون به العامة من إتيان المساجد في الجمع والاعياد والمواسم المبتدعة فإنهم يؤذون من يشير إشارة ما إلى أنهم في حاجة إلى تقوى الله في انفسهم ، أو في عيال الله الذين سلطوا عليهم ، وإن لم يبق لهم من السلطان والحكم ،

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٦ .

ما يمكنهم من كل ما يهون من الإفساد والظلم . وإذا كان هذا شأن أكثر الملوك والأمراء الذين ينسبون إلى الدين ويدعون اتباعه ، فهل تجدد دعوى فرعون الألوهية غريباً عجيباً؟! « (١) .

وقد يُعجب كثير من المسلمين اليوم بكلام محمد عبده هذا لأول وهلة . ولكن المدقق لا يسهه إلا أن يتساءل : لماذا صبَّ الشيخ محمد عبده جام غضبه على الخديوي عباس وسكت عن النظام الرأسمالي الكافر الذي فرضه الانجليز على المسلمين في مصر ؟ ونحن لا ندافع عن الخديوي ، فهو عميل للإنجليز مثله مثل غيره من الحكام المسلمين . ولكن : هل تنتهي مصيبة المسلمين في مصر لو أبعد الخديوي عباس عن الحكم ؟ والصحيح أن مصيبة المسلمين في مصر وغيرها من بلاد المسلمين تتمثل في النظام الرأسمالي الكافر الذي يطبقونه على أمة لا تدين به ، وفي الاحتلال الغربي لبلاد المسلمين . والمعروف أن الاستعمار الغربي الكافر فرض أنظمتة وأحكامه فرضاً على المسلمين ، ووضع على كل بلد من بلاد المسلمين حاكماً يطبق أنظمتة وأحكامه ويرعى مصالحه .

ولكن كيف يهاجم محمد عبده النظام الرأسمالي الكافر والاحتلال البريطاني وهو الصديق الحميم للشورد كرومر ممثل الاحتلال البريطاني في مصر ! وعين الرضا ، كما يقول الشاعر ، عن كل عيب كيلة . والدليل على صدق قولنا أن الاحتلال العسكري لبلاد المسلمين قد زال اليوم تقريباً ، ما عدا فلسطين ، فهل المسلمون اليوم ينعمون بالحياة السعيدة والعزّة والمنعة ؟ كلا بالطبع . والسبب بقاء النظام الرأسمالي الكافر الفاسد مطبقاً على المسلمين . وكان الاحتلال العسكري في السابق لتطويع المسلمين وتذليلهم لتقبل نظامه وأفكاره

(١) تفسير النار ، ٢/٢٥٠ وما بعدها .

ومقاييسه في الحياة . ولما اطمأن الى حكام من أبناء المسلمين يعجبون بنظامه وأفكاره خرج من بلاد المسلمين يحيوش .

وفي موضع آخر من تفسيره نراه يحمل حملة شعواء على 'بختل' المسلمين بالإنفاق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة على شاكلة قوله : « ترى كثيراً من أغنياء المسلمين عارفين بما عليه أمتهم من الجهل بأمور الدين ومصالح الدنيا وفساد الاخلاق وتقطع الروابط وتراخي الأواخي وما نشأ عن ذلك من هضم حقوقها وانتزاع منافعها من أيدي أبنائها . ويعلمون إصلاحهم يتوقف على بذل شيء من أموالهم ينفق على التربية والتعليم ونحوهما من المنافع العامة . ثم هم يدعون الى بذل قليل من كثير ما خزنوه في صناديق الحديد وما ينفقونه في شهواتهم ولذاتهم وتأييد أهوائهم وحظوظهم ، فيبخلون بذلك ويرونه مغرمًا ثقيلًا . ولا يحفلون بوعد الله للمنفقين في سبيله ولا بوعيده للباخلين بفضله . وأمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا من المسلمين ، لأنه لا يوجد في نفس الواحد منهم عرق ينبض بالتألم لمصائب الاسلام وأهله ،^(١) .

ويبحث الشيخ محمد عبده على الإنفاق في وجوه البر العامة مثل إزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة المعجزة والضعفاء وترقية الصناعات وإنشاء المستشفيات والملاجئ ، وغير ذلك على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم^(٢) » : « إن من سنة القرآن الحكيم مزج آيات الأحكام بآيات المواعظ والعبر والتوحيد ، ليقرر أمر الحكم وينصر النفوس على القيام به .

وإن أمر الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس ، لا سيما إذا أتسمت دائرة المنفعة فيما ينفق فيه ، وبعدت نسبة من 'ينفق' عليه من المنفق . وإنما يصعب على المرء الإنفاق على منفعة من يبعد عنه ، لأنه فطر على ألا يعمل عملاً

(١) تفسير المنار ، ٢٢ / ٣

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦١

لا يتصور لنفسه فائدة منه . واكثر النفوس جاهلة بأتصال منافعها ومصالحها بالبعداء عنها . فلا تشعر بأن الانفاق في وجوه البر العامة كإزالة الجهل بنشر العلم ومساعدة العجزة والضعفاء وترقية الصناعات وإنشاء المستشفيات والملاجيء وخدمة الدين المذهب للنفوس . وهو الذي تقوم به المصالح العامة ، حتى تكون كلها سعيدة عزيزة . فعلمهم الله تعالى ان ما ينفقونه في المصالح يضاعف لهم أضعاف كثيرة ، هو مفيد لهم في دنياهم . وحشهم على ان يجعلوا الإنفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ليكون مفيداً لهم في آخرتهم ايضاً ، (١) .

ويبين مساوئ ضعف الصبر في نفوس المسلمين وان ذلك سبب جهلهم وشقاؤهم على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (٢) : والصبر ملكة في النفس يتيسر معها احتمال ما يشق احتماله ، والرضى بما يكره في سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق . وما أتى الناس من شيء مثلاً أتوا من فقد الصبر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر في نفوس افرادها ضعف فيها كل شيء وذهبت منها كل قوة . ولنضرب لذلك مثلاً : نقص العلم عند أمة من الامم كالمسلمين اليوم ، إذا دقت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر . فإن من عرف باباً من ابواب العلم لا يجد من نفسه صبراً على التوسع فيه ، والتعب في تحقيق مسائله ، وينام على فراش من التقليد حين لا يكلفه مشقة ولا يحشمه تعباً ، ويسلي نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه . ولو كان عنده احترام حقيقي لسلفه لا تخدم اسوة له في عمله فحذا حذوهم ، وسلك مسلكهم ، وكلف نفسه بعض ما حملوا انفسهم عليه ، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين . ثم هو إذا تعلم لا يجد صبراً على مشقة دعوة الناس الى علم ما يعلم ، وحملهم على عرفان ما يعرف ،

(١) تفسير المنار ، ٣ / ٥٩ .

(٢) سورة العصر ، الآية ٣ .

ولا جلدأ على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده ، بل متى لاقى أول معارضة قبع في بيته ، وترك الخلق للخالق كما يقولون . يحلس الطالب للدرس سنة أو سنتين ، ثم تعترضه مشقة التحصيل فيترك الدرس أو يتساهل في فهمه ، أو يكل والده من الإنفاق عليه ، فيصرفه إلى حرفة أخرى يظنها اربح له فينقطع عن الطلب ، ويذهب في الجهل كل مذهب . وكل هذا من ضعف الصبر . يبخل البخيل بماله ، ويجهد نفسه في جمعه وكنزه ، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ، ولا ينفق درهما في شيء منها ، فيؤدي بذلك وطنه وملته ، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته . ولو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر . ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح في ذهنه يهدده بالنزول به ، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله . يُسرف المسرف في الشهوات ، ويتمتلك المتهتك في المنكرات حتى ينفذ المال . وتسوء الحال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره في مقاومة الهوى ، وضبط نفسه عن مواقع الردى . ولو صبر في مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله . (١) .

هذه المسائل الاجتماعية والمشاكل الخلقية التي وجدناها في تضاعيف تفسير محمد عبده تستحق منا وقفة قصيرة ، فنقول : ان محمد عبده لم يكن داعياً الى تصحيح جذري للأوضاع القائمة في مصر وفي غيرها من بلاد المسلمين التي كانت اوضاعاً صاغها النظام الرأسمالي المطبق بقوة الاحتلال ، بل نجده ينحو نحواً فيه مهادنة وخضوع لأحكام النظام الرأسمالي ومعالجاته ومقاييسه في الحياة . ونحن نعلم ان طريقة الرسول عليه السلام في نشر الدعوة الاسلامية كانت تعتمد على التكتل حول الاسلام ، ثم الانطلاق والجهار بالدعوة ، ثم التماس النصرة لإقامة حكم الله في الأرض بإقامة دولة الاسلام .

واتباع هذه الطريقة حكم شرعي ، لأن الرسول عليه السلام لا ينطق عن

(١) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : ص ٨٧ / ٨٩ .

الهوى ان هو إلا وحي يوحى . وبإقامة الدولة الإسلامية صار المجتمع صالحاً ، فأدى ذلك الى اصلاح الفرد . وان الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن . والدليل على ان افراد المجتمع لم يكونوا كلهم صالحين عند إقامة دولة الاسلام وجود كثير من المنافقين في جيش الرسول عليه السلام . فصلاح هؤلاء المنافقون فيما بعد وجبرهم سيل الاسلام الجارف . ولو انتظر الرسول عليه السلام حتى يصلح كل أفراد المجتمع المسي او المدني لما انتشرت دعوة الاسلام أبداً ولبقي الشرك مسيطراً . هذه هي سنة الله ولن تجد لسنة تبديلاً . هذه هي طريقة الرسول عليه السلام في قلب الأوضاع المشركة الكافرة وإخضاعها لأحكام الاسلام ومعالجاته ومقاييسه في الحياة .

إصلاح المجتمع يصلح الفرد ولا يعكس . وما عدا ذلك مضیعة للوقت وركون الى العدم . أما الشيخ محمد عبده فمتأثر في معالجته للمسائل الاجتماعية بالمصلحين البروتستانت من أمثال مارتن لوثر الماسوني . والنظام الرأسمالي الذي يقوم على فصل الدين عن الحياة يعتبر المجتمع قائماً على الفرد . ومن حق هذا الفرد حرية التملك والفكر وما يسمونه بالحرية الشخصية . والدولة في نظر الفكر الرأسمالي شر لا بد منه . ووظيفتها الأولى حماية حقوق الأفراد . والفرد هو أساس المجتمع . فإذا صلح الفرد صلح المجتمع .

والمجتمع في الواقع ليس مجموعة من الأفراد وحسب ، وإنما هو مجموعة من الأفراد يؤمنون بفكر معين ويطبق عليهم نظام منبثق عن هذا الفكر ، وتصدر عنهم مشاعر منسجمة بسبب الإيمان بهذا الفكر وتطبيق النظام المنبثق عن هذا الفكر .

وهناك نقطة هامة أود أن أشير إليها ، وهي أن كثيراً من المفكرين المعاصرين ينظرون الى الأخلاق والفضائل التي حث عليها الاسلام نظرة قائمة بذاتها . وهذا خطأ فادح ، لان الأخلاق والفضائل الاسلامية نتيجة حتمية للإيمان بالعقيدة الاسلامية ، ولا يجوز الفصل بينها . فالصدق والوفاء وعدم

الحيانة وحسن المعاملة كلها ترتبط بأوامر الله ونواهيه . ولا يمكن الارتباط بأوامر الله والبعد عن نواهيه إلا بالآيمان بالعقيدة الاسلامية . ولا يمكن أن تظهر هذه الاخلاق والفضائل ظهوراً مشرقاً إلا بتطبيق احكام الاسلام تطبيقاً كاملاً وليس تطبيقاً جزئياً ، لأن الاسلام لا تظهر روعته ظهوراً جلياً إلا إذا طبق تطبيقاً شاملاً .

ونظراً لأن النظام الرأسمالي يعنى بالفرد وحرياته الشخصية فقد أهمل الجماعة ، وأخذ المفكرون الغربيون يحاولون ترقيع هذا النظام الفاسد من مثل تشجيع الجمعيات الخيرية المختلفة واليانصيب لمساعدة المعجزة والمرضى في المستشفيات وغير ذلك من هذه الوجوه الضرورية للمجتمع التي لا يعنى بها النظام الرأسمالي عناية اساسية . أضف إلى ذلك تشجيع النقابات وقوانين العمل والعمال وشركات التأمين على الحياة . اما الاسلام فإنه يضمن لكل من يحمل التابعية للدولة الاسلامية المأكل والملبس والسكن .

والتعليم في الاسلام يكون مجانياً وكذلك المعالجة الطبية وغيرها من الأمور الضرورية التي يجب على الدولة توفيرها للمجتمع . إذن فلا حاجة في النظام الاسلامي إلى إيجاد الجمعيات الخيرية والنقابات وشركات التأمين على الحياة واليانصيب وغير ذلك من هذه الهيئات التي تعد مظهراً من مظاهر عجز النظام الرأسمالي وفساده وعفوفته .

إذن ، فهذه الاوضاع والاخلاق الفاسدة التي دعا محمد عبده الى التخلي عنها ونبذها هي نتيجة حتمية من نتائج تطبيق نظام الغرب الرأسمالي الكافر وسيطرة النظرة النفعية الانانية على المجتمع في مصر وبلاد المسلمين . فعندما يزول هذا النظام وافكاره ومقاييسه في الحياة تزول بالتالي كل اوضاعه الفاسدة التي يشكلها ويصوغها .

أما أن يفض محمد عبده الطرف عن هذا النظام الفاسد ولا يدعو المسلمين

الى نبذته وإبعاده كلياً عن حياتهم ، وينادي بإصلاح جزئي وتربية خلقية من وجهة النظر الرأسمالية فهذا كله توفيق بين الاسلام وبين افكار الغرب واحكامه ومعالجاته الرأسمالية .

فما قيمة أن يدعو مصلح مسلم اليوم الى اغلاق الخانات في بلاد المسلمين والنظام الرأسمالي الذي يطبق على المسلمين يعطي الرخص بفتح هذه الخانات؟ وقس على هذه اموراً كثيرة . من هذا نستطيع ان نقول ان دعوة محمد عبده الاصلاحية الخلقية التربوية لاوضاع ليست من تخطيط الاسلام ولا تخضع لمقاييسه هي ابقاء وسكوت عن هذا النظام الفاسد الكافر الذي يجب على المسلمين جميعهم الاطاعة به . فلفظة إصلاح تعني الابقاء على شيء وترك شيء . أما الدعوة التصحيحية الانقلابية فتعني نفس هذا الوضع الفاسد من جذوره وتطبيق نظام صالح عادل أصيل ، هو النظام الاسلامي ، نظام الله سبحانه وتعالى الذي خلق الكون والانسان والحياة ونظمها وأبدعها . النظام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . كتاب الله وسنة نبيه محمد عليه السلام . ولن يضل المسلمون ما ان تمسكوا بها . فالامراض الاجتماعية والخلقية والتربوية التي جهد محمد عبده في حث المسلمين في مصر وغيرها على نبذها واطراحها هي من آفات النظام الرأسمالي الذي يناقض الواقع وفطرة الانسان .

والمثل المأثور يقول درهم وقاية خير من قنطار علاج .

ولا يزال المسلمون يعانون الى يومنا هذا من فساد هذا النظام وفساد مؤسساته وأوضاعه التي يصوغها ويشكلها .

اباحة ربا الفضل

عالج الشيخ محمد عبده قضية الربا الذي حرمه الاسلام عند تفسير قوله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم

الربا (الى قوله تعالى : (و اتقوا يوماً تُرجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يُظلمون) (١) . يقول محمد عبده : « نزلت هذه الآية في تحريم الربا الذي كان معروفاً في الجاهلية يأتيه اليهود والمشركون . وهي من آخر القرآن نزولاً كما سيأتي . وذكرت في النظم بعد آيات الصدقة التي كان آخرها آية الكاملين في السخاء والجود الذين ينفقون في عامة الاوقات والأحوال ، لما بينهما من التناسب بالتضاد . فالمتصدق يعطي المال بغير عوض يقابله ، والمرابي يأخذ المال بغير عوض يقابله . واننا نذكر تفسير الآيات ثم نفيض الكلام في مسألة الربا ، وحكمة تحريمه . لأن لهذه المسألة شأنًا كبيراً في حياة الأمة السياسية والاجتماعية في هذا العصر . ويزعم بعض المتفرنجين من المسلمين أن تحريم الربا هو العقبة الكثيرة في طريق مجارة المسلمين للأمم الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة ، (٢) .

ويتحدث محمد عبده عن الربا المحرم بنص القرآن والربا المحرم بأحاديث الأحاد والقياس ، يقول : قد علم مما تقدم في تفسير الآيات أنها نزلت في وقائع كانت للرايين من المسلمين قبل التحريم . فالمراد بالربا فيها ما كان معروفاً في الجاهلية من ربا النسئة أي ما يؤخذ من المال لأجل الإنشاء أي التأخير في أجل الدين . فكان يكون للرجل على آخر دين مؤجل يختلف سببه بين أن يكون ثمن شيء اشتراه منه أو قرضاً اقترضه ، فاذا جاء الأجل ولم يكن للمدين مال يفي به ، طلب من صاحب المال أن يُنسى له في الأجل ويزيد في المال ، وكان يتكرر ذلك حتى يكون أضعافاً مضاعفة . فهذا ما ورد في القرآن بتحريمه ، لم يحرم فيه سواه . وقد وصفه في آية آل عمران التي جاءت غيرها بصيغة النهي ، وهو قوله عز وجل (يأيا الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) . وهذه أول آية نزلت في تحريم الربا ، فهو تحريم لربا

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢٧٥ - ٢٨١

(٢) تفسير النار : ٩٣/٣ وما بعدها .

مخصوص بهذا القيد ، وهو المشهور عندهم ، (١) .

ويقول محمد عبده : « ولا يدخل الربا المحرم الذي لا يشك فيه من يعطي آخر مالا يستغله ، ويجعل له من كسبه حظاً معيناً لأن مخالفة الفقهاء في جعل الحظ معيناً قبل الربح قل أو كثر لا يدخل ذلك في الربا الجلي المركب المخرب للبيوت ، فإن هذه المعاملة نافعة للعامل ولصاحب العمل معاً ، وذلك الربا ضار بواحد بلا ذنب سوى الاضطرار ، ونافع لآخر بلا عمل سوى القسوة والطمع فلا يمكن أن يكون حكمها في عدل الله واحداً » (٢) .

ويأخذ محمد عبده برأي ابن قيم الجوزية في أعلام الموقعين « وهو أن الربا نوعان : جلي وخفي ، فالجلي حرم لما فيه من الضرر العظيم ، والخفي حرم لأنه ذريعة إلى الجلي ، فتحريم الأول قصد ، وتحريم الثاني وسيلة . فأما الجلي فربا النسئية ، وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده في المال . والخفي هو ربا الفضل الذي حرم لسد الذريعة » (٣) .

ويذهب إلى أن المحرم إما أن يكون لذاته كربا النسئية ، وإما أن يكون لسد الذريعة كربا الفضل . ويرى أن المحرم لذاته لا يباح إلا لضرورة كأكل الميتة ولحم الخنزير وشرب الخمر ، وإن المحرم لسد الذريعة قد يباح للحاجة والمصلحة الراجعة . لذلك فهو يرى أن الحاجة تدعو إلى إباحة هذا النوع من ربا الفضل (٤) .

ونحن الآن نناقش رأي ابن قيم الجوزية الذي تبناه محمد عبده المتضمن أن الربا نوعان : نوع محرم لذاته ، ونوع محرم لغيره ، وعلة الربا المحرم لذاته

(١) تفسير المنار ، ١١٣/٣ وما بعدها

(٢) مجلة المنار ، ٣٣٢/٩ . مطبعة المنار ، الطبعة الأولى .

(٣) تفسير المنار ، ١١٤/٣ وما بعدها .

(٤) أنظر تفسير المنار ، ١٢٧/٤

(وهو الربا الجلي) ما فيه من الضرر العظيم ، وعلة الربا المحرم لغيره (وهو الربا الخفي) كونه ذريعة للربا الجلي .

ونحن نذهب مع الدكتور عبد العزيز الحياط إذ يقول بهذا الصدد :
« والواقع أن وصف الربا بأنه جلي وخفي ، وتحريم الجلي وإباحة الخفي لداعي الضرورة أمر لا يستقيم مع معنى الربا نسيئة أو فضلاً ، فالربا هو كل زيادة لأحد المتعاقدين في عقد المفاوضة من غير مقابل ، أو هو الزيادة في مقابل الاجل ، وقد ورد النص بتحريم المعنيين ، فضلاً عن أن الربا المحرم لذاته لا يعلل ، لأنه إذا علل انتفى أن يكون محرماً لذاته وإنما يكون محرماً لعلته ، فإذا انتفت العلة انتفى التحريم ، ولم يقل أحد بهذا ، بل الربا محرم بالنص سواء علل أم لم يعلل ، وسواء حصل منه ضرر أو نفع ، ولا يصح القول بتحريم الربا المعلن بتخريب البيوت ، وإباحة الربا الغير المخرب للبيوت اضطراراً ، لأن منع تخريب البيوت حكمة تحريم الربا وليس علة ، وفرق بين الحكمة والعلة ، وسواء تحققت الحكمة أو لم تتحقق فالربا محرم ولا وجه للفرقة بين ربا محرم لذاته وربا محرم لغيره .

إن الله تعالى أطلق لفظ الربا في التحريم إذ قال : (وأحل الله البيع وحرم الربا) فأنصرف إلى قليله وكثيره ، ظاهره وخفيه ، المحرم لذاته أو لغيره ، وهذا ما يقرره الشيخ خلافاً نفسه بقوله والخلاصة أن القيد في آية آل عمران ليس للتخصيص والاحتراز عما عداه وإنما هو لمراعاة الواقع والغالب والتوبيخ والتبشيع ، والإشارة إلى حكمة التحريم ، ولا تعارض بينها وبين إطلاق التحريم في آية البقرة ، ولا نسخ لآية آل عمران بآيات البقرة ، فأكل الربا محرم شرعاً على الإطلاق ، وآية آل عمران خصت بالذكر صورة من أبشع صورته التي كانت فاشية فيهم .

إن قوله تعالى (لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) نص في تحريم الربا المضاعف ، أما غير المضاعف فهو مسكوت عنه حتى جاءت آيات البقرة

فبيّنته ، لأنها أطلقت لفظة الربا وفسرت المقصود بآية آل عمران بأنه لتقبيح ما كان عليه نوع الربا في الجاهلية وليست لإباحة ما عداه ، ولا عبرة بخصوص السبب ، وإنما العبرة بعموم اللفظ ، فعموم لفظة (الربا) محرم لكل أنواعه ، وقد صورت آية البقرة بشاعة آكل الربا بأنه (لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) وجسدت هذه البشاعة في الصورة الحسية مما لم يصوره القرآن لأي فاسق يرتكب محرماً من المحرمات ، ولم يتوعد الله تبارك وتعالى مرتكبي منكر بحرب كما توعد آكلي الربا الذين لا ينتهون بعد التحريم ، ولا يكتفون برؤوس أموالهم ويتركون ما بقي من الربا ، قال تعالى : (وذرّوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فآذّنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) وهذا الوعيد لم يكن إلا في الربا لشدة النهي عنه .

ورد حديث النبي ﷺ (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد ، فإذا اختلفت الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يداً بيد ، وفي رواية أخرى (مثلاً بمثل ، يداً بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى والآخذ والمعطي سواء) . وورد حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : (لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها غائباً بناجز) .

وهذه الأحاديث صريحة في بيان ان الزيادة رباً لا شك فيه ، وأنها محرمة فهي تؤكد لمعنى الربا العام الوارد في النص القرآني ، وما ورد من حديث (لا ربا إلا في النسيئة) فمعمول على نفي الكمال لا نفي الأصل ، قال الصنعاني : وإلى ما أفاده الحديث « يعني تحريم ربا الفضل وربا النسيئة » ذهب الجلة من العلماء الصحابة والتابعين والعترة والفقهاء ، فقالوا : يحرم التفاضل فيما ذكر غائباً أو حاضراً ، وذهب ابن عباس وجماعة من الصحابة إلى أنه لا يحرم الربا

إلا في النسبة مستدلين بالحديث الصحيح (لا ربا إلا في النسبة) فالمراد نفي الكمال لا نفي الأصل ، وحديث أبي سعيد منطوق ، ولا يقاوم المفهوم المنطوق فإنه مطرح مع المنطوق ، وقد روى الحاكم ان ابن عباس رجع عن ذلك القول أي أنه لا ربا إلا في النسبة واستغفر الله من القول به .

ورد من أحاديث النبي عن أكل الربا قوله ﷺ (الربا ثلاثة وسبعون باباً أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه) وهذا منتهى التقييد لا كل الربا ومنتهى المبالغة في تحريمه ، وفيه دلالة صريحة على ان الربا أنواع كثيرة تربو على السبعين نوعاً كلها محرمة صغيرها وكبيرها جليها وخفيها ، فمهما اختلفت الأسماء وتعددت الأشكال من ربا نسبة او فضل او فائدة في مصرف او صندوق توفير او سند او غير ذلك فهو ربا ما دام زيادة بين مثلين من غير عوض او في مقابل الأجل ، ولعل تصوير النبي صلى الله عليه وسلم هو أبلغ تصوير لانتشار الربا بأنواعه المختلفة في زماننا حين قال : سيأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا ، قال قائل : يا رسول الله : كلهم ؟ قال : من لم يأكله ناله غباره .

إن دعوى الاضطرار التي أستند اليها من قال يجوز الفائدة في التعامل بالربا دعوى غير قائمة لاعتبارين : الاول : ان النص في الاباحة للاضطرار ورد في عدة آيات في القرآن الكريم تبيح كلها أكل ما حرم الله من المنصوص عليها للاضطرار الذي يخشى منه لو لم يباح الاكل مما حرمه الله ان يموت الانسان جوعاً او يهلك عطشاً ، قال تعالى : (إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ان الله غفور رحيم) وقال تعالى في سورة المائدة (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) فما أباح الله الأكل منه هو لحم الميتة والدم وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع وكلها من المطاعم ، وهي التي أبيحت عند الاضطرار في الجماعة المهلكة لكي

يحفظ الانسان حياته ، ولو أخذنا بقاعدة التوسع في الضرورة ، وتعمدية النص الى غير الطعام فإننا لا نجد الضرورة هنا بمعناها الشرعي قائمة في التعامل الربوي في الشركات ، فأية ضرورة يخشى معها الانسان على نفسه الهلاك لكي يأخذ المال بالربا ؟ .

على ان الربا في واقع الامر تبع للنظام الرأسمالي المسيطر على البلاد الاسلامية وهو مظهر من مظاهره الشنيعة ، وهو نظام ابتدعه اليهود ونشروه ، وأستغلوا به حاجات الفقراء والمحتاجين واستذلوا به الدول والشعوب ، وليست الحاجة ملحة الى وجوده ، بل ليس للمسلمين حاجة فيه . وبإمكانهم ان يمنعوه ويلغوه ، وتقيم دولهم بدله مصارف تقوم بإقراض المحتاجين ، وتشغيل أموال الأغنياء بالوجه المباح شرعاً . ونحن نرى ان المصارف حلت محل الافراد المرابين في تخريب البيوت ، والتحكم في مصائر الأمم والشعوب .

والحقيقة التي لا مرية فيها ان الذين أباحوا الربا انساقوا مع الواقع الغربي وقد بهرهم في مطلع نهضته معاملات المصارف واعانتها للمحتاجين واقراضها لهم ، ورأوا - ظاهراً - الفوائد التي تترتب على التعامل بالفائدة البسيطة كما يقولون ، ولكن سرعان ما تكشف ولا يزال يتكشف بشاعة التعامل بالربا بجميع أنواعه وأنه السبب في الأزمات العالمية فضلاً عن تحكم المصارف في الافراد والحكومات ، وعن تضخم أموالها بسرعة مذهلة ، هذا بالإضافة الى أن هذه المصارف لا تساعد إلا الأفراد المليئين أو المضمونين ، والشركات المضمونة لتنمية أموالها أو لمن يجد كفيلاً مليئاً أي له مركز مالي مضمون ، ولا تساعد الفقير والمحتاج حقيقة . ومن ذلك يظهر لنا أن ما استند اليه المبيحون للشركات بما فيها من ربا سواء أ كان ذلك مطلقاً أو مقيداً بالضرورة لا وجه له وأن التعامل الربوي في الشركات حرام مطلقاً ، (١) .

(١) الشركات في الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي : القسم الثاني ، ص ١٦٨ - ١٧٤

مما تقدم نستطيع أن نقول إن محمد عبده أباح ربا الفضل للضرورة والحاجة والمصلحة الراجحة . وقد بينا فساد ذلك وتهافته وإن مصلحة المسلمين لا تكون بالتعامل بأي نوع من أنواع الربا مهما كانت الفائدة بسيطة . وهذه الإباحة منسجمة مع اتجاهه في التوفيق بين الإسلام وبين أحكام ومعالجات النظام الرأسمالي ، والربا والمصارف والفوائد مظهر من مظاهر هذا النظام . ولو كان الرجل مخلصاً في دعوته لدعا المسلمين إلى الرجوع إلى الحياة الإسلامية بتطبيق نظام الإسلام الذي 'يلغي الربا إلفاء تاماً ويطرده من حياة المجتمع الاسلامي . ولكن أنتى لمحمد عبده أن يفعل ذلك ، ففاقد الشيء لا يعطيه كما يقولون ، والشيء من معدنه لا يستغرب .

ومن الجدير ذكره في هذا المقام أن علماء المسلمين والفقهاء اتفقوا على تحريم قليل الخمر وإن كان لا 'يسكر ، وعلى تحريم الخلوة بالأجنبية وإن كان عنثناً ، وعلى تحريم النظر إلى وجه المرأة الشابة ، إلى غير ذلك مما يكثُر ويعلم على القطع والثبات أن الشرع حكم فيها بالمنع ، لأنها ذرائع المحرمات . والربا أحق ما 'حميت مراتعه وسُدَّت طرائقه .

إنكار تعدد الزوجات للمصريين

أباح الإسلام تعدد الزوجات ، وحَدَّد القرآن عددهن بأربع ، يقول تعالى : (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا)^(١) . لكننا نرى الشيخ محمد عبده يفسر هذه الآية وغيرها تفسيراً ينكر فيه أشد الإنكار تعدد الزوجات ، لأنه ينتج عنه فساد في العلاقات الزوجية التي تقوم على نظام يحو الثقة بين الرجل والمرأة ، ويوغر

(١) سورة النساء ، الآية ٣

صدور الضرائر بالأحقاد ، وينقل جرائم العداوة منهم الى أبنائهم وبناتهم وعشيرتهم .

وقبل دروس التفسير بنيف وعشرين سنة كتب محمد عبده نفسه في « الوقائع المصرية » مقالاً تحت عنوان « حكم الشريعة في تعدد الزوجات » قال فيه : « أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة ، إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهما ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة .. وإن هذا الإلزام بالعدل أمر حتمي لا يحتمل تأويلاً ، فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن إلا قضاء شهوة فانية ، واستحصال لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفساد ، ومخالفة الشرع الشريف » (١) .

ويقول محمد عبده في دروس التفسير عند تفسيره للآية الثالثة من سورة النساء : « جاء ذكر تعدد الزوجات في سياق الكلام عن اليتامى والنهي عن اكل اموالهن ولو بواسطة الزوجية فقال إن احسستم من انفسكم الخوف من اكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها فإن الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما أباحه لكم من التزوج بغيرهن الى أربع نسوة ، ولكن ان خفتم إلا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم أن تلتزموا واحدة فقط . ولما قال (فإن خفتم إلا تعدلوا فواحدة) علله بقوله (ذلك أدنى ألا تعملوا) أي أقرب من عدم الجور والظلم ، فجعل البعد من الجور سبباً في التشريع ، وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحرّيه ومنبه الى ان العدل عزيز . وقد قال تعالى في آية اخرى من هذه السورة (ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) ... فمن تأمل الآيتين علم ان إباحة تعدد الزوجات في الاسلام أمر مضيق فيه اشد التضييق كأنه ضرورة من الضرورات التي تباح لمحتاجها بشرط الثقة بإقامة العدل والأمن من الجور . واذا تأمل المتأمل مع

(١) تاريخ الأستاذ الإمام : ١٢٥/٢ ، ١٢٧

هذا التضييق ما يترتب على التعدد في هذا الزمان من المفساد جزم بأنه لا يمكن لأحد أن يربي أمة فشا فيها تعدد الزوجات ؟ فإن البيت الذي فيه زوجتان لزوج واحد لا تستقيم له حال ولا يقوم فيه نظام ، بل يتعاون الرجل مع زوجاته على إفساد البيت كأن كل واحد منهم عدو للآخر ، ثم يحيي الأولاد بعضهم لبعض عدو ، فمفسدة تعدد الزوجات تنتقل من الأفراد إلى البيوت ومن البيوت إلى الأمة .

كان للتعدد في صدر الاسلام فوائد اهمها صلة النسب والصهر الذي تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن ، لان الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال وكان اذى الضرة لا يتجاوز ضررتها . أما اليوم فإن الضرر ينتقل من كل ضرة إلى ولدها إلى سائر اقاربه فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء : تغري ولدها بعداوة إخوته وتغري زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها ، وهو بحماقته يطيع أحب نسائه إليه فيدب الفساد في العائلة كلها . ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات لأتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين ؛ فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير ، بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد ولده . والزوجة زوجها والزوج زوجته ، كل ذلك واقع ثابت في المحاكم ... أما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل إلى تربية الأمة مع 'فشو' تعدد الزوجات فيها ، فيجب على العلماء النظر في هذه المسألة خصوصاً الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم ، فهم لا ينكرون أن الدين أنزل لمصلحة الناس وخيرهم ، وأن من أصوله منع الضرر والضرار ، فإذا ترتب على شيء مفسدة في زمن لم تكن تلحقه فيما قبله ، فلا شك في وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحال الحاضرة : يعني على قاعدة درء المفسد مقدم على جلب المصالح . وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرّم قطعاً عند الخوف من عدم العدل ، (١) .

(١) تفسير المنار ، ٤/٣٤٨ - ٣٥٠ ، الطبعة الرابعة .

فأنت ترى أن محمد عبده ينكر أشد الإنكار تعدد الزوجات للمصريين ومن على شاكلتهم من سائر المسلمين، وهو ينطلق من أن إباحة تعدد الزوجات في الإسلام أمر مضيئ فيه كأنه ضرورة من الضرورات بشرط الثقة بإقامة العدل، ومن فساد أحوال التعدد في عصره بين المصريين الذين تزوجوا أكثر من واحدة، ومن دفاعه عن الإسلام في إباحته تعدد الزوجات؛ وكان كثير من المستشرقين ورجالات أوروبا وأمريكا يحملون على الإسلام بفعل إباحة تعدد الزوجات.

والآن نناقش محمد عبده فيما ذهب إليه، فنقول: إن قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) تحديد عدد الزوجات بأربع، وكانوا في الجاهلية يزيدون على الأربع. وهذه الآية نزلت على النبي ﷺ في السنة الثامنة للهجرة، وكان نزولها لتعديد عدد الزوجات بأربع، وقد كان إلى حين نزولها لا حد له. ومعنى الآية: تزوجوا ما لذ لكم وطاب من النساء اثنتين وثلاثاً وأربعاً. والآية تبيح تعدد الزوجات وتحدده بأربع، ولكنها تأمر بالعدل بينهما، وترغب في الاقتصار على الواحدة في حالة الخوف من عدم العدل، لأن الاقتصار على الواحدة في حالة الخوف من عدم العدل أقرب إلى عدم الجور وهو ما يجب أن يتصف به المسلم.

إلا أنه يجب أن يعلم أن العدل هنا ليس شرطاً في إباحة تعدد الزوجات، وإنما هو حكم لوضع الرجل الذي يتزوج عدداً من النساء فيما يجب أن يكون عليه في حالة التعدد، وترغب في الاقتصار على الواحدة في حالة الخوف من عدم العدل، وذلك أن معنى الجملة قد تم في الآية في قوله (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع). وهذا معناه جواز حصول التعدد مطلقاً، وقد انتهى معنى الجملة، ثم استأنف جملة أخرى ركلاماً آخر فقال: (فإن خفتم)، ولا يتأتى أن تكون (فإن خفتم) شرطاً لأنها لم تتصل بالجملة

الاولى اتصال الشرط ، بل هي كلام مستأنف ، ولو أراد أن تكون شرطاً لقال : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ان عدلتم) . وذلك لم يكن ، فثبت ان العدل ليس شرطاً ، وإنما هو حكم شرعي آخر غير الحكم الاول . فإنه أولاً أباح تعدد الزوجات بأربع ، ثم جاء بحكم آخر وهو ان الاولى الاقتصار على واحدة اذا رأى ان تزوجه بأكثر من واحدة يجعله لا يعدل بينهما . ومن ذلك يتبين ان الله تعالى أباح التعدد دون قيد ولا شرط ودون أي تعليل ، بل لكل مسلم ان يتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً مما يطيب له من النساء ، ولهذا تجدد الله تعالى يقول (ما طاب لكم) أي ما وجدتموه من الطيبات لكم ، ويتبين ان الله قد أمرنا بالعدل بين النساء ورغبنا في حالة خوف الوقوع في الجور بين النساء أن نقتصر على واحدة ، لأن الاقتصار على واحدة أقرب الى عدم الجور .

ومحمد عبده يرى ان التعدد في صدر الاسلام له فوائد أهمها صلة النسب والصهر ولم يكن له من الضرر مثل ما له الآن ، لأن الدين كان متمكناً في نفوس النساء والرجال . ولست أدري كيف يكون لحكم شرعي فوائد في عصر ثم تنقلب هذه الفوائد الى ضرر في عصره ؟ وكأن أحكام الاسلام تصلح في عصر ولا تصلح في عصر آخر . وهل عدم تمكن الدين في نفوس النساء والرجال مسوغ للإقتصار على زوجة واحدة وإنكار التعدد ؟ مع ان الاولى ان يدعو محمد عبده مسلمي عصره الى الرجوع الى الاسلام وإعادة الإيمان به إيماناً قوياً وتطبيقه عليهم . ولكنه يريد ان يوفق بين الاسلام وبين أوضاع المسلمين التي يصوغها ويشكلها النظام الرأسمالي وأحكامه ومعالجاته وأنا على يقين من أن محمد عبده لا يقف هذا الموقف من تعدد الزوجات لو كانت أوروبا وأمريكا تبيع تعدد الزوجات . ولا يجوز لمحمد عبده أن يتخذ أخطاء بعض المصريين في تعدد الزوجات سبباً أو حجة لإنكار التعدد .

فالخطأ هنا خطأ بعض المصريين وليس خطأ الاسلام وأحكامه . والله سبحانه

عندما وضع لنا الاحكام والمعالجات كان يعلم أن هذه الاحكام والمعالجات تصلح لكل زمان ومكان ، لانه خالق الكون والإنسان والحياة ، وهو ادرى بما يصلح للبشر وبما يؤذيهم . ومن كلام محمد عبده "نحس" انهزاميته الفكرية وانه مضبوع بالفكر الرأسمالي والاحكام والمعالجات الرأسمالية . والغريب انه في حالة التوفيق والتلفيق يستند الى بعض القواعد الفقهية مثل قاعدة دَرءِ المفسد مقدم على جلب المصالح ، والضرورة والمصلحة الراجحة ، والرخصة . ومعلوم انه لا يجوز الاجتهاد في مورد النص أبداً . ولا يجوز ان يعالج الخطأ بالخطأ ، بل يعالج بالرجوع الى الصحيح ، وهو نظام الاسلام واحكامه ومعالجاته .

ونريد أن نسأل الآن انصار الشيخ محمد عبده هذا السؤال : هل المخطاط المسلمين الآن راجع الى اباحة تعدد الزوجات ؟ واذا كان ذلك كذلك فلماذا كانوا خير امة اُخرجت للناس وكانت دولتهم دولة الدنيا مع ان اباحة التعدد موجودة وقائمة ؟ لا شك ان المخطاط المسلمين وتخلفهم راجع الى تطبيق النظام الرأسمالي الفاسد عليهم . والى نفس النتيجة التي خرج بها محمد عبده في تحريم تعدد الزوجات عند الخوف من عدم العدل انتهت ايضاً حركة الارشاد الهندية « أمير علي » ، اذ صرح قادتها بأن تعدد الزوجات في الاسلام غير مطابق للشرع مطلقاً ، وهو اقتناع نفذ في مصر ايضاً الى دوائر من الشيوخ ظلت فيما عدا ذلك بعيدة عن اتجاهات الارشاد الحديث . والمعروف أن السيد أمير علي الهندي يشبه السيد أحمد خان الهندي في دعوته الاصلاحية . ومثل هذين مثل محمد عبده في مصر في مهادنة الانجليز والتوفيق بين الاسلام وبين احكام ومعالجات النظام الرأسمالي .

وقد كان أمير علي مضبوعاً بالثقافة الغربية ، وقد خاصمه كثير من المسلمين لانه متزوج انجليزية ، ويتبع النمط الانجليزي في معيشته الخاصة (١) .

(١) انظر زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ١٤١ .

أرأيت بريطانيا عدوة الاسلام الاولى كيف كانت تسخر محمد عبده في مصر وأحمد خان وأمير علي في الهند لتحريم ما احل الله وإباحة ما حرمه ؟ وكيف كان هؤلاء يهدمون ويعطلون احكام الاسلام بهذا التأويل السخيف المتهافت ؟ وكيف اباح محمد عبده ربا الفضل للضرورة والمصلحة الراجحة وحرّم تعدد الزوجات عند الخوف من العدل وقد بينا ان الله اباح التعدد دون قيد أو شرط ودون أي تعليل ؟ ويجب أن نذكر أن الماسوني الكبير مصطفى كمال اتاتورك اليهودي الاصل الفى تعدد الزوجات على الاثراك المسلمين واجبرهم على التزوج بواحدة بقانون وضعه لهذا الغرض ، كما اجبرهم على لبس البرنيطة تشبهاً بالغرب ومنع لبس الطربوش .

المساواة الأدبية بين الرجل والمرأة

إن نزعة الدفاع في تفسير محمد عبده عن الاسلام جعلته يخطو خطوة ابعد من قوله ان تعدد الزوجات في الامة لا يتفق مع التربية السليمة وفيه حط من مقام الزوجة ومكانتها ، بل تعدى ذلك الى اقامة الحجّة على أن الفهم المنطقي للقرآن يثبت المساواة الادبية الكاملة بين الرجل والمرأة ، وهو متأثر في هذا الرأي بأفكار الغرب وقيمه ومقاييسه في الحياة ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضهم من بعض .. الآية) (١) « وذكر أن الذكر والانثى متساويان عند الله تعالى في اجزاء ، تساويًا في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن انه اقرب الى الله منها ، ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم ان جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي ان يكون أرفع منزلة عند الله تعالى منها . وقد بين الله تعالى علة هذه المساواة بقوله (بعضكم من بعض) ، فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل ، فلا فرق بينهما في البشرية

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٥ .

ولا تفاضل بينها إلا بالأعمال، أي وما تترتب عليه الأعمال ويترتب هو عليها من العلوم والأخلاق،^(١) . وعندما يسمع الرجل الفُمر هذا الكلام لا يجد به بأساً ، وقد يعجب به . ولكن المدقق ذا العقل الحصيف يرى فيه غير ذلك. فنحن لا نخالف محمد عبده في قوله إن الذكر والأنثى متساويان أمام الله في الجزاء . ولكننا نخالفه في إطلاق المساواة بين الرجل والمرأة . فالمرأة في عرف الإسلام كائن إنساني له روح إنسانية من نفس النوع الذي منه روح الرجل (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء) . وحرمة الدم والعرض والمال والكرامة حقوق مشتركة لا تميز فيها بين جنس وجنس . والأوامر والتشريعات فيها عامة للجميع . والجزاء في الآخرة واحد للجنسين . وتحقيق الكيان البشري في الأرض متاح للجنسين : الأهلية للملك والتصرف فيه بجميع أنواع التصرف من رهن واجارة ووقف وبيع وشراء واستغلال .

ولكن الإسلام بعد تقرير المساواة الكاملة في الإنسانية ، والمساواة في جميع الحقوق التي تتصل مباشرة بالكيان البشري المشترك بين الجميع - يفرق بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق وبعض الواجبات . وقبل الدخول في تفصيل هذه المواضع التي يفرق فيها الإسلام بين الرجل والمرأة ينبغي أولاً أن نرد المسألة إلى جوهرها الحقيقي ، إلى أصولها الفسيولوجية والبيولوجية والسيكولوجية وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم في المهمة والأهداف اختلفت طبيعة الرجل والمرأة ، ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة ، ومنحته التكيف الملائم لوظيفته^(٢) .

وإن محمد عبده في مقولته بإطلاق المساواة بين الرجل والمرأة دون تقييد

(١) تفسير المنار ، ٣٠٥/٤ وما بعدها .

(٢) انظر شبهات حول الإسلام ، ص ١٠٠ - ١٠٤ .

قد فتح الباب على مصراعيه لقاسم أمين الذي يسمى محرر المرأة زوراً وزيفاً لأن يكتب كتابه : « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .

وأخطر ما في هذه الدعوة وأمثالها مما يراد به حملنا على كل فاسد من مذاهب الغرب أن اصحابها يريدون إقحامها على إسلامنا زاعمين انها لا تعارضه . وقد كان قاسم أمين هو أول من جرأ الناس على تحريف النصوص حين طلع علينا بطائفة من المزاعم التي تقوم على المجازفة ، ومن النصوص المحرفة عن مواضعها والمخلوعة من سياقها خلعاً يخرجها عن مدلولها ، وحين تصيد من كتب التاريخ ورواياته - على اختلاف درجاتها ودرجات مؤلفيها - كل شاذ غريب فحشدها في حيز واحد وضم بعض اشتاتها الى بعض ، حتى خيل الى قارئها انها - على شذوذها وقلتها - شيء مألوف كثير الوقوع .

ومع أن هذا الذي جمعه هو خلاصة ما في الكتب - صحيحها وسقيمها - من غرائب الأخبار والآراء التي تصور حالات شاذة نادرة لا تنهض بها حجة ولا يبطل بها عرف ، ومع أن كثيراً من النصوص التاريخية أو الفقهية التي اقتطفها ناقصة الدلالة غامضة العبارة ، فقد استطاع أن يروج ذلك كله بين الناس بمرور الأيام ، بفضل قوة حزبه الذي كان يسميه اللورد كرومر حزب الشيخ محمد عبده ، حتى أصبحت هذه النصوص من بعد - على فساد الاستدلال بها - هي البضاعة المشتركة لمتابعي دعوته ومطوريها ^(١) .

فمحمد عبده هو الذي اعطى إشارة الضوء الاخضر لقاسم أمين وأمثاله ، وحزب محمد عبده هو الذي روج لهذه الأفكار بين الناس بمرور الأيام .

وقاسم أمين في كتاب « تحرير المرأة » الذي طبع سنة ١٨٩٩ انصرف فيه جهده الى التدليل على ما زعمه من ان حجاب المرأة بوضعه السائد ليس من الاسلام ، وان الدعوة الى السفور ليس فيها خروج على الدين أو مخالفة لقواعده

(١) انظر حصوننا مهددة من داخلها ، ص ١١٥ وما بعدها ،

بينما غلب المنهج الغربي الحديث على كتابه الثاني « المرأة الجديدة » الذي طبع سنة ١٩٠٠ م . ومعنى ذلك ان الكتابين 'طبعاً في حياة محمد عبده .

ويتضح من منهج المؤلف في كتاب « تحرير المرأة » التوفيق بين الاسلام وبين مذاهب الغربيين . والكتاب هذا ليس كتاب فقه ، وصاحبه ليس فقيهاً يعرض لشرح النصوص الاسلامية شرحاً نزيهاً ليستنبط منها ، ولكنه كتاب موجه لخدمة فكرة معينة يحاول المؤلف ان 'يسخر' النصوص لخدمتها . لذلك جاء كتابه مملوءاً بالمغالطات ، سواء كان ذلك في تفسير الآيات القرآنية أو في النصوص التاريخية والفقهية أو الادلة العقلية . وهذا الاتجاه الذي 'يفسر' النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها هو جزء من اتجاه عام تزعمه الشيخ محمد عبده متذرعاً اليه بالدعوة الى فتح باب الاجتهاد الذي زعم ان الفقهاء قد أغلقوا بابه ، وهو يدعو الى الملاءمة بين الاسلام وبين الحضارة الغربية . ومن المعروف المشهور ان مؤلف الكتاب « تحرير المرأة » ليس له إلمام بالعلوم الاسلامية . ولذلك شاع بين الناس وقتذاك أن مؤلفه في الحقيقة هو الشيخ محمد عبده أستاذ قاسم أمين (١) .

ومن الغريب أن قاسم أمين وأمثاله جاءوا بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول القرآن ليخرجوا للناس حقائق التنزيل التي غاب عنها عن الأولين والآخرين من الفقهاء والمفسرين ، ويضربوا بإجماع المسلمين في الاجيال المتعاقبة والقرون المتطاولة 'عرض الحائط' . أليس ابتداع هذه الدعوة في ظل الاحتلال الإنجليزي وتزعم فريق من المتفرنجين الذين 'عرفوا' بموالاة ذلك الاجنبي المهتل ، هو وحده دليلاً كافياً على انها طارئة علينا من الغرب تقليداً لمذاهب أهله المبتدعين في دينهم بأهوائهم وأهواء رؤسائهم والخارجين على نصرانيتهم وكتائبها ؟

وأول أخطاء هؤلاء أنهم يجعلون أكبر همهم مصروفاً الى إثبات ان المرأة

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٢٧٣/١ - ٢٨٢ .

تستطيع القيام بأعمال الرجل ، وأنها إنسان مثله لا فرق بين عقلها وعقله .
ومن الواضح ان عمل الانثى الاول الذي لا يصلح له غيرها هو النسل وحفظ
النوع . ومن الثابت ان إرهاق المرأة بالعمل يترك أثراً في مزاجها وفي أعصابها ،
ومن الثابت ايضاً ان ذلك الاثر ينتقل الى جنينها في حالة الحمل ، كما ينتقل
الى طفلها في حالة الرضاعة . واعتماد المرأة العاملة على الخدم . وعلى دور الحضانة
في رعاية وليدها لا يؤدي الى كمال تنشئته ، لان الاخلاص له والحرص على
ابتغاء الكمال من كل وجه لا يتوافر في أحد توافره في الام ، لأن من وراء
اخلاصها وحرصها غريزة الامومة .

ولجوء الام العاملة الى الوسائل الصناعية في ارضاع طفلها خيانة للأمانة
وتفريط فيها وتعطيل لسنة الله ، لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الانثى لتبرزه في
السهرات وتكشف عن جماله وتنصبه شركاً في الطرقات ، ولكنه أوجده
أصلاً للإرضاع (١) .

وهكذا نرى خطر أقوال محمد عبده التي كان يبثها في أثناء دروس
التفسير وفي كتابة التفسير من مثل قوله بالمساواة الأدبية بين الرجل والمرأة .
وكيف جاء تلاميذه في حياته وبعدها ليروجوا لأفكار غريبة عن الاسلام في
بلاد المسلمين ، مسخريين النصوص بطريقة تعتمد على المغالطات والتلفيق
لخدمة هذه الأفكار . ونرى كيف سار قاسم أمين على خط أستاذه محمد عبده
في تفسير النصوص تفسيراً جديداً مخالفاً لكل ما هو ثابت متواتر في تفسيرها
ليقوم بالملاءمة والتوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .

فتوى لأهل الهند بالعمل بالقوانين الانجليزية

لم يتوقف محمد عبده عند حد التوفيق بين الاسلام وبين الأحكام والمعالجات
الرأسمالية ، بل وصل الى حد مدح سياسة الانجليز في التسامح وإقامة العدل ،

(١) - انظر كتاب « حصوننا مهددة من داخلها » ص ١٢٤ - ١٢٧ .

والتساهل في العمل بالقوانين الانجليزية ولا يرى ضيراً في ترك أحكام الاسلام بحجة الرخصة ومصلحة المسلمين .

ومحمد عبده في غير إنتاجه التفسيري يروج لفكرة سياسة الانجليز في التسامح وإقامة العدل على شاكلة قوله تحت عنوان « سياسة الانجليز في التسامح » : « نعم ، نحن لا ننكر أن بين الأمم الاوروبية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الامة الانجليزية ، فهي وحدها الامة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره ، ولا يصعب علينا أن نقول : إن منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه . وقد امتاز الانجليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم ، فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً الى بلادهم ، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إِبصار ضوء الحق ، وظهر أثر ذلك في أقلام كثير من كتّابهم مثل ولتر سكوت وشيل وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكتّاب من غير الانجليز بأزمات طويلة . فلنا أن نقول ولا نخشى لاثماً : إن هذه الخصلة الشريفة - خصلة إطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون - هي من أجل الخصال ورثها غير المسلمين عن المسلمين . وهل أجد من يأبى عليّ القول بأن الاسلام السليم من البدع هو أستاذ الانجليز وعنه أخذوا هذه الخصلة ؟ ألا ترى أن نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين : يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين وأداء ما يفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة لا يفرقون بين دين ودين . وهكذا كان حال المسلمين وإن كان ذلك على قاعده أبرّ وأرحم » (١) .

وهذا الموقف يؤكده محمد عبده في جواب أو فتوى لسؤال سأل مولوي

(١) - محمد عبده « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » ص ١٧٩ وما بعدها .

نور الدين مفتي بنجاب من الهند عن مسألة الحكم بالقوانين الانجليزية . وقد حوّل محمد عبده هذه المسألة الى تلميذه محمد رشيد رضا ليجيب عنها كما كان يفعل في أمثالها أحياناً . وهذا نص جواب محمد رشيد رضا عن مسألة الحكم بالقوانين الانجليزية في الهند ، وهو الفتوى السابعة والسبعون من فتاوى المجلد السابع من المنار . وهذه الفتوى وإن كانت من كلام محمد رشيد رضا ، فإنها تعدّ من كلام محمد عبده الاستاذ . وقد ذكرنا في أول حديثنا عن مدرسة محمد عبده في التفسير أن محمد رشيد رضا ترجمان أفكار محمد عبده وموضّحتها وشارحها وإن شئت فقل إنه الناطق الرسمي للشيخ محمد عبده . وفضلاً عن ذلك فإن كلام محمد عبده الذي أورده في كتاب « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » لا يختلف عن جوهر هذه الفتوى ، يقول محمد رشيد رضا : « يجوز للمسلم المستخدم عند الانجليز الحكم بالقوانين الانجليزية وفيها الحكم بغير ما أنزل الله ؟ (ج) : إن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر . كحكم المؤلفين للقوانين ووضعيها لحكوماتهم وحكم الحاكمين بها والفرق بين دار الحرب ودار الاسلام فيها . واننا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الاهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . ويستلزم الحكم بتكفير القاضي الحاكم بالقانون تكفير الأمراء والسلاطين الواضعين للقوانين ، فانهم وإن لم يكونوا ألقوا بمعارفهم فإنها وضعت بإذنهم ، وهم الذين يولّون الحكم ليحكموا بها ، ويقول الحاكم من هؤلاء : أحكم باسم الامير فلان لأنني نائب عنه بإذنه ، ويطلقون على الامير لفظ « الشارع » .

أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين ، بل لم يقل به أحد قط . فإن ظاهرها يتناول ما لم يحكم بما أنزل الله مطلقاً سواء حكم بغير ما أنزل الله تعالى أم لا ، وهذا لا يكفّره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفّرون الفساق بالمعاصي ومنها الحكم بغير ما أنزل الله . واختلف أهل السنة في الآية ، فذهب بعضهم الى أنها خاصة باليهود ، وهو ما رواه

سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : إنما أنزل الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، والظالمون والفاسقون » في اليهود خاصة . وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : الثلاث الآيات التي في المائدة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) الخ ليس في أهل الاسلام منها شيء هي في الكفتار . وذهب بعضهم الى أن الآية الأولى التي فيها الحكم بالكفر للمسلمين والثانية التي فيها الحكم بالظلم لليهود ، والثالثة التي فيها الحكم بالفسق للنصارى ، وهو ظاهر السياق . وذهب آخرون الى العموم فيها كلها ، ويؤيده قول حذيفة لمن قال انها كلها في بني اسرائيل : نعم الاخوة لكم بنو اسرائيل ان كان لكم كل حلوة ولهم كل مرّة ، كلا والله لتسلكن سبيلهم قدّ الشراك . رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصحّحه . وأول هذا الفريق الآية بتأويلين : فذهب بعضهم الى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوي للتغليظ لا معناه الشرعي الذي هو الخروج من الملة - واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصحّحه والبيهقي في السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكفر الواقع في إحدى الآيات الثلاث انه ليس بالكفر الذي تذهبون اليه ، انه ليس كفرأ ينقل عن الملة ، كفر دون كفر . وذهب بعضهم الى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة ، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكرأ له أو راغباً عنه لاعتقاده بأنه ظلم مع علمه بأنه حكم الله أو نحو ذلك مما لا يجامع الايمان والإذعان .

ولعمري إن الشبهة في الأمراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل في حقهم لا يظهر . وأن العقل ليسر عليه أن يتصور ان مؤمناً مدعياً لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكماً ثم هو يغيّره باختياره ويستبدل به حكماً آخر بإرادته إعراضاً عنه وتفضيلاً لغيره عليه ويعتدّ مع ذلك بإيمانه وإسلامه . والظاهر أن الواجب على المسلمين في مثل هذه الحال مع مثل هذا الحاكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفاً لحكم الله ولا يكتفوا بعدم مساعدته عليه ومشايعته فيه ، فان لم يقدرُوا فالدار لا

لا تعتبر دار إسلام فيما يظهر ، وللاحكام فيها حكم آخر . وهما هنا يحییء
سؤال السائل ، وقبل الجواب عنه لا بد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها
على كثير من المسلمين وهي : إذا غلب العدو على بعض بلاد المسلمين وامتنعت
عليهم الهجرة فهل الصواب أن يتركوا له جميع الأحكام ولا يتولوا له عملاً
أم لا ؟ يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحل بحال ، والظاهر لنا أن
المسلم الذي يعتقد أنه لا ينبغي أن يحكم المسلم إلا المسلم وأن جميع الأحكام
يجب أن تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ينبغي له أن يسعى
في كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام ، وأن يحول دون
تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان - وبهذا القصد يجوز له أو يجب
عليه أن يقبل العمل في دار الحرب إلا إذا علم أن عمله يضر بالمسلمين ولا
ينفعهم ، بل يكون نفعه محصوراً في غيرهم ، ومعيناً للمتغلب على الإجهاز
عليهم . وإذا هو تولى لهم العمل وكلف الحكم بقوانينهم فماذا يفعل وهو
مأمور بأن يحكم بما أنزل الله ؟ أقول : إن الأحكام المنزلة من الله تعالى منها
ما يتعلق بالدين نفسه كأحكام العبادات وما في معناها كالنكاح والطلاق
وهي لا تحل مخالفتها بحال ، ومنها ما يتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود
والمعاملات المدنية . والمنزل من الله تعالى في هذه قليل وأكثرها موكول الى
الاجتهاد . وأهم المنزل وآكده الحدود في العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير
مفوض الى اجتهاد الحاكم ، والربا في الأحكام المدنية . وقد ورد في السنة
النهي عن إقامة الحدود في أرض العدو . وأجاز بعض الأئمة الربا فيها ، بل
مذهب أبي حنيفة أن جميع العقود الفاسدة جائزة في دار الحرب واستدل له
بمراهنه أبي بكر رضي الله عنه لأبي بن خلف على أن الروم يغلبون الفرس في
بضع سنين وإجازة النبي ﷺ ذلك ، وصرّحوا بعدم إقامة الحدود فيها ،
روي ذلك عن عمر وأبي الدرداء وحذيفة وغيرهم وبه قال أبو حنيفة . قال
في أعلام الموقعين : « وقد نص أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعي وغيرهم
من علماء الاسلام على أن الحدود لا تقام في أرض العدو » ، وذكرها أبو القاسم

الخرقي في مختصره فقال : « لا يُقام الحد على مسلم في أرض العدو ، وقد أتى بسر بن أرطاة برجل من الغزاة قد سرق مجنته فقال : لولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا تقطع الأيدي في الغزو » لقطعتها » . رواه أبو داود وقال أبو محمد المقدسي : وهو إجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور في سننه بإسناده عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس ألا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلاً من المسلمين حداً وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلاً لئلا تلاحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفتار . وعن أبي الدرداء مثل ذلك . ثم ذكر ترك سعد إقامة حدّ السكر على أبي محجن في واقعة القادسية . وذكر أنه قد يحتج به من يقول : لا حدّ على مسلم في دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علّله تعليلاً آخر ليس هذا محل ذكره . وانظر تعليل عمر نجده يصح في بلاد الحرب . فعمل مما تقدم أن الأحكام القضائية التي أنزلها الله تعالى قليلة جداً . وقد علمت ما قيل في إقامتها في دار الحرب لا سيما عند الحنفية . فإذا كانت الحدود لا تُقام هناك فقد عادت أحكام العقوبات كلها إلى التعزير الذي يفوّض إلى اجتهاد الحاكم . والأحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضاً ، والنصوص القطعية فيها عن الشارع قليلة جداً . وإذا رجعت الأحكام هناك إلى الرأي والاجتهاد في تحري العبد والمصلحة ، وأجزنا للمسلم أن يكون حاكماً عند الحربي في بلاده لأجل مصلحة المسلمين ، فالذي يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لأجل منفعة المسلمين ومصلحتهم . فان كان ذلك القانون ضاراً بالمسلمين ظالماً لهم فليس له أن يحكم به ولا أن يتولى العمل لوضعه إعانة له .

وجملة القول إن دار الحرب ليست محلاً لإقامة أحكام الاسلام . ولذلك تجب الهجرة منها إلا لعذر أو مصلحة للمسلمين ، يؤمن معها من الفتنة في الدين ، وعلى من أقام أن يخدم المسلمين بقدر طاقته ، ويقوّي أحكام الاسلام بقدر استطاعته . ولا وسيلة لتقوية نفوذ الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة ، ولا سيما إذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل

بين جميع الأمم والملل كالحكومة الانجليزية . والمعروف ان قوانين هذه الدولة أقرب الى الشريعة الاسلامية من غيرها ، لأنها تفوض أكثر الأمور الى اجتهاد القضاة ، فمن كان أهلاً للقضاء في الاسلام وتولي القضاء في الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جليلة . وظاهر ان ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثراً عن العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم في دينهم ودنياهم . وما نكب المسلمون في الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة . ولنا العبرة في ذلك بما يجري عليه الأوروبيون في بلاد المسلمين ، إذ يتوسلون بكل وسيلة الى تقلد الأحكام ، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم ، حتى كان من أمرهم في بعض البلاد ان صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها ، وصار حكامها الأولون الآن في أيديهم .

والظاهر مع هذا كله ان قبول المسلم للعمل في الحكومة الانجليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، ان لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين . ذلك ان تعدّه من باب الضرورة التي نفذ بها حكم الإمام الذي فقد أكثر شروط الإمامة ، والقاضي الذي فقد أهم شروط القضاء ونحو ذلك . فجميع حكام المسلمين في أرض الاسلام اليوم حكام ضرورة . وعلم بما تقدم ان من تقلد العمل الحربي لأجل ان يعيش براتبه فهو ليس من أهل الرخصة ، فضلاً عن ان يكون من أصحاب العزيمة ، والله أعلم ، (١) .

وهذه الفتوى وردت بصدد تفسير قوله تعالى ، في الآية ٤٧ من سورة المائدة (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) .

(١) تفسير النار : ٤٠٦/٦ - ٤٠٩

وهذه الفتوى للشيخ محمد عبده ، مع أن الذي خرج بها تلميذه محمد رشيد رضا الناطق الرسمي وترجمان آرائه وأفكاره ، فيها جرأة على دين الله في تفسير هذه الآية ، إذ أجاز لأهل الهند من المسلمين أخذ القوانين الانجليزية والخضوع لأحكام القضاة الانجليز ، بحيث لا يُعتبر تفسير الشيخ محمد عبده ولا يعدّ من كتب التفسير عند المسلمين . ونحن نعتقد أن محمد عبده في مثل هذه التأويلات والفتاوى يخدم أول ما يخدم الانجليز الكفار في الهند ومصر وجميع بلاد المسلمين التي يحتلونها .

ونحن الآن نناقش هذه الفتوى ونثبت بطلانها ونهايتها ونخالفتها لما عرف عند الاسلام والمسلمين من أن الفتوى والاجتهاد لا يجوز في ما ورد فيه نص إطلاقاً .

فالثلاث الآيات التي وردت في سورة المائدة : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) ، (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) ^(١) وان كانت خطاباً خاصاً لأهل الكتاب ، بني إسرائيل والنصارى فإن المراد بها جميعها العموم ، لأن الجملة (ومن لم يحكم بما أنزل الله) تفيد التعميم وإطلاق من أنزل عليهم حكم الله وشرعه . والمسلمون يندرجون تحت هذا الخطاب الذي يفيد التعميم . وليس هناك قرينة تدل على التخصيص . فلو أراد التخصيص لقال : ومن لم يحكم بما أنزل الله من أهل التوراة والإنجيل فأولئك هم الكافرون ، والظالمون ، والفاسقون . ونحن نعلم يقيناً أن القرآن نزل بأسلوب العرب وعلى منوالهم في التعبير . وهذا ما يفهمه العربي الصريح من هذه الآيات . ونحن نعلم أن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا إلا إذا ورد ما يدل على التعميم فينسحب ذلك علينا . هذه واحدة ، والثانية أن آيات عديدة تخاطب الرسول

(١) سورة المائدة ، الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

ﷺ لأن يحكم المسلمين بما أنزل الله ، ومعلوم أن الخطاب في هذه الآيات وإن كان للرسول عليه السلام فإنه ينسحب على المسلمين من بعده ، وغير الآيات الثلاث التي وردت في سورة المائدة قوله تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... الآية) (١) ، وقوله تعالى : (وإن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون) (٢) ، وقوله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) (٣) . فأنت ترى أن هذه الآيات الثلاث التي تأخذ بعضها برقاب بعض ليس فيها خطاب لأهل الكتاب ألبتة ، والخطاب للرسول ﷺ في حياته وللمسلمين من بعده عليه السلام . وفيها كلها تشديد على الحكم بما أنزل الله على محمد عليه السلام وهو القرآن الكريم كتاب الاسلام . وهذه الآيات جاءت بعد تلك الآيات الثلاث التي الخطاب فيها لأهل الكتاب والمراد به التعميم . فهذه الآيات تؤكد ما ذهبنا إليه وتعضده . وقال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (٤) .

ففي هذه الآيات وغيرها أمر صريح واضح بالحكم بما أنزل الله ، ونهي صريح واضح عن تحكيم غير ما أنزل الله . ويعضد هذا قول الرسول ﷺ : (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) . والحكم بما أنزل الله لا يكون إلا بإقامة الدولة الاسلامية . ورسول الله عليه السلام يدرك إدراكاً واضحاً أنه كان يقوم بعمل رئيس الدولة من إقامة حدود الله وتسيير الجيوش وعقد

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .

(٤) سورة النساء ، الآية ٦٥ .

المعاهدات ومخاطبة ملوك الأرض بالدخول في الاسلام .

ومما يعضد ذلك ويدعمه من الأحاديث قوله ﷺ (من مات ولم يكن في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) ، وقوله عليه السلام (اذا بويع لإمامين فاقتلوا الآخر منها) .

ومما يعضد ذلك ويدعمه قول الصاحبين محمد بن الحسن الشيباني وأبي يوسف صاحبي أبي حنيفة النعمان رضي الله عنهم : (تصبح الديار ديار إسلام متى ظهرت أحكام الإسلام فيها ولو كان معظم أهلها غير مسلمين ، وتصبح الديار ديار كفر متى ظهرت أحكام الكفر فيها ولو كان معظم أهلها مسلمين) . فالعبرة اذن ليست بكثرة المسلمين أو قلتهم وانما بإقامة حكم الله في الديار .

وقد أقام الرسول عليه السلام الدولة الاسلامية في المدينة منذ أن هاجر إليها ، وسار الصحابة الخلفاء الراشدون على هدي الرسول عليه السلام ، وتابعهم على ذلك الأمويون والعباسيون والفاطيون والأيوبيون والمماليك والعثمانيون حتى جاء الغادر الخائن لأمتة مصطفى كمال الماسوني اليهودي الأصل وألغى الخلافة الاسلامية في إسلامبول سنة ١٩٢٤م ليصبح بعدها رئيس الجمهورية التركية الحديثة .

وقد ذكرنا سابقاً أن محمد عبده كان يَحْتال في تفسيره وفتاواه على بعض القواعد الفقهية الغير المجمع عليها والتي فيها نظر كما يقال ، كقاعدة الضرورة والمصلحة الراجحة ، والرخصة ، ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح وغيرها .

فقد ذكر محمد عبده على لسان تلميذه رشيد رضا في الفتوى السابقة أن قبول المسلم العمل في الحكومة الانجليزية في الهند (ومثلها ما هو في معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل في قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إن لم يكن عزيمة يقصد بها تأييد الاسلام وحفظ مصلحة المسلمين . والعزيمة هي ما

شرع من الأحكام تشريعاً عاماً وألزم العباد بالعمل به ، والرخصة ما شرع من الأحكام تخفيفاً للعزيمة لعذر مع بقاء حكم العزيمة ولم يلزم العباد العمل به . فمثلاً الصوم عزيمة والفطر للمريض رخصة ، وغسل العضو في الوضوء عزيمة ، والمسح على العضو المجروح أو المكسور رخصة ، والصلاة قائماً عزيمة ، والقعود في الصلاة عند العجز رخصة ، وهكذا فالعزيمة ما كان تشريعاً عاماً فلا تختص ببعض المكلفين دون بعض ، ولا يختار بين العمل بها والعمل بغيرها بل يلزم بالعمل بها وحدها ، والرخصة ما كان تشريعاً طارئاً لعذر فيكون تشريعاً معتبراً ما وجد العذر ، ولا يُعتبر إذا زال العذر ، وهو خاص بالمكلفين المتصفين بهذا العذر وحده .

والرخصة حتى تعتبر رخصة شرعاً لا بد أن يدل عليها دليل شرعي ، وما لم يدل عليها دليل شرعي لا تعتبر رخصة ، فإنها حكم شرعه الله بعذر ، فالعذر سبب شرعية الحكم وهو جزء من شرعيته ، فلا بد أن يدل عليه دليل شرعي ، على أن الرخصة تعتبر من الأسباب الشرعية ، وهي نفسها حكم من أحكام الوضع ، وهي خطاب الشارع المتعلق بأفعال العباد بالوضع ، وما دامت هي نفسها خطاب الشارع فلا بد أن يكون دليل شرعي يدل عليها : فالعمى والعرج والمرض أعذار في القعود عن الجهاد ، قال تعالى : (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) ، والسفر عذر في الإفطار في رمضان ، قال تعالى : (فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر) . فهذه أعذار ورد الدليل الشرعي بها فتعتبر أعذاراً ، وهكذا كل ما وردت فيها أدلة أنها أعذار معينة لأحكام معينة تعتبر أعذاراً ، وما لم يرد فيه دليل لا قيمة له ولا يعتبر عذراً شرعياً مطلقاً . وهذه الأعذار اعتبرت أعذاراً لذاتها لا لما فيها من علة ، وذلك لأن الدليل الشرعي الذي دلّ على أنها أعذار لم يعلل اعتبارها عذراً بل أطلق ذلك فلا تعلل لأن الشرع لم يعللها ، وجعل كل عذر منها عذراً للحكم الذي جاء عذراً له لا لغيره ، فهو يعتبر عذراً خاصاً بالحكم الذي جاء له وليس عذراً عاماً لكل حكم ، ولذلك كان العمى عذراً لترك الجهاد ولم يكن عذراً

لترك الصلاة . ولهذا لا يُقال إن السفر علة لأن فيه مشقة ، بل السفر علة لأن الله اعتبره لا لأنه شاق .

فأنت ترى أن الله فرض على المسلمين الحكم بما أنزل . ووصفهم بالكفر والظلم والفسق إذا هم حادوا عن ذلك وتركوا الحكم بما أنزل . وليس هناك دليل شرعي من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس يدل على أن ترك العمل والحكم بما أنزل الله رخصة . وما العذر في ترك أحكام الاسلام والعمل بقوانين الانجليز ؟ وأين مصلحة المسلمين في قبول الحكم بقوانين الانجليز التي هي قوانين كفر تقوم على فصل الدين عن الحياة ؟ والذي يدرس أحكام الاسلام وأنظمتها يرى أنها مترابطة ممسكة بعضها برقاب بعض . وإذا كان الاسلام نهى المسلم عن التشبه بالكفار فهل يأذن الله أو يعذر المسلمين على ترك العمل والحكم بما أنزل ؟!

وإذا كان ذلك كذلك فما الدافع الذي دفع محمد عبده الى إصدار مثل هذه الفتوى التي تعتمد على المغالطات والتلفيق ؟ إن المراقب لأحوال المسلمين في نهاية القرن التاسع عشر وأوائل العشرين يدرك أن الكفار من المستعمرين الانجليز والفرنسيين والهولنديين والروس قد احتلوا معظم بلاد المسلمين . ولم تبق أمامهم إلا البلاد التي تخضع للدولة الاسلامية العثمانية . وكانوا جميعاً يحاولون بكل السبل القضاء عليها وإخضاعها وتقسيمها بينهم . فحركة الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة التي يسيطر عليها اليهود الماسون تقربص بالسلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله ، وألمانيا ترزق الى نيل مكاسب في بلاد الدولة العثمانية ، وأعضاء الاتحاد والترقي يتجمعون في باريس يستمدون أفكارهم من وحي الثورة الفرنسية التي دبّرها الماسون أمثال فولتير ، وبريطانيا قضت على دولة المغول الاسلامية في الهند ، وجمال الدين الايراني المتأفك الماسوني المشبوه يدعو الى جامعة اسلامية لتكون في الحقيقة بديلاً عن الخلافة الاسلامية في إسلامبول ، وبريطانيا استولت على مصر بلد الأزهر العريق ثم

احتلت السودان. والسيد أحمد خان وأمير علي يدعوان الى التفاهم مع بريطانيا في الهند وروجوا لفكرة أن التعليم والاصلاح الجزئي كفيلا بالرفي والتقدم واللاحاق بالدول الأوروبية . ومحمد عبده في مصر يهادن اللورد كرومر ممثلا للاحتلال البريطاني ويدعو الى التوفيق بين الأديان الثلاثة وينتسب الى الماسونية ويفتي بمثل هذه الفتوى الخطيرة التي تزيل الجفوة بين المسلمين وبين الانجليز ونظام حكمهم الكافر ، ليكون ذلك إرهاباً وتهيداً لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ حتى يتقبل المسلمون ذلك تقبلاً هادئاً ذليلاً . وقد تم للكفار ذلك عند إلغائها على يد عميل الانجليز أتاتورك ، فلم يتحرك المسلمون في شتى أقطارهم تحركاً فعلياً يستحق الذكر . وهكذا ساهم محمد عبده عميل الانجليز الفكري في مصر في تذليل المسلمين لحكم الكفار ومنهم بريطانيا عدوة الاسلام والمسلمين الأولى .

وإن من العجب العجائب أن يصف محمد عبده بريطانيا بالدولة التي تقيم العدل وأن الاسلام السليم هو أستاذ الانجليز وأنهم أهل التسامح . وهذا لا يقوله إلا غي جاهل أو عميل مأجور . وهاتان الصفتان من ألصق الصفات بكل من هو ماسوني . وقد أثبتنا له ذلك . فبريطانيا هذه التي يصفها محمد عبده بالعدل والتسامح هي التي قضت على دولة المغول الاسلامية في الهند ، وهي التي أعطت وعد بلفور لليهود ، ثم ساعدت اليهود على إقامة مشروع دولة في فلسطين ، وهي التي قتلت المصريين في الحادثة المعروفة بحادثة دنشواي ، وهي التي اتخذت من أتاتورك عميلاً لها ليلغي الخلافة بعد أن احتلت بريطانيا وغيرها من دول الغرب مدينة إسلامبول سنوات . وغير هذه الأحداث التي لا نستطيع حصرها في مثل هذا المقام وتدلّ دلالة قاطعة على أن بريطانيا عدوة الاسلام الأولى قديماً وحديثاً ، فالقائد الانجليزي النبي قال عندما دخل بيت المقدس في الحرب العالمية الأولى : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ونحن لا نجد واحداً من المسلمين يوافق محمد عبده على ما ذهب اليه في

فتاواه ، بينما نجد الباحثين الغربيين يدحون اتجاهه الفكري في التفسير والفتاوى ، يقول عثمان أمين وهو من مدرسته : « على أن فتاوى الأستاذ الإمام كلها تمتاز - كما قال باحث غربي - بالميل الى التسامح ، واستقلال الرأي ، والبعد عن التقليد ، والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب الحياة العصرية » (١) . وإنني أؤكد أن محمد عبده جاوز - في مثل هذه الفتوى - محاولة التوفيق بين الاسلام وبين الأحكام والمعالجات الرأسمالية ، ووصل إلى حد السماح لأهل الهند بالعمل بقوانين الانجليز ، وتعطيل أحكام الاسلام .

ولست مصيبة المسلمين تنحصر في انحرافات محمد عبده في التفسير والإصلاح المزعوم والفتاوى ، بل تتسع هذه الدائرة لتشمل تلاميذه الذين ساروا على طريقه المنحرفة ، ولا يزال قسم منهم يحتل أعلى المراكز في مصر وغيرها من بلاد المسلمين ، هذا فضلا عن الجيل الصحفي العلماني الذي أرست قواعده مدرسة جمال الدين ومحمد عبده .

وعلى سبيل المثال نورد للقارئ موقف تلميذه محمد رشيد رضا من الأفغانين حين سخطوا على أميرهم لأنه لبس زي الافرنج وعاشر الانجليز في الهند وواكلهم ، يقول محمد رشيد رضا في أثناء تفسير قوله تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ... الآية) (٢) : « وقد جاءتنا ونحن نكتب في هذه المسألة إحدى الصحف ، فرأينا في أخبارها البرقية أن الأفغانيين المتعصبين ساخطون على أميرهم أن عاشر الانجليز في الهند وواكلهم ولبس زي الافرنج ، وأنهم عقدوا اجتماعاً حكوا فيه بكفره ، ووجوب خلعهم من الامارة ، فأرسلت الجنود لتفريق شملهم . فأمثال هؤلاء المتحمسين الجاهلين أضروا الخلق بالاسلام والمسلمين ، بل أبعد عن حقيقته من سائر العالمين ، وماذا فهم أمثال أولئك الأفغانيين من القرآن ، على عجمتهم وجهلهم

(١) رائد الفكر المصري . الإمام محمد عبده : ص ٥٢ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٨ .

بأساليبه وبعمل الصدر الأول به ، (١) . فقول محمد رشيد رضا أول الشر السوء الذي أنتجته شجرة الزقوم التي زرعها محمد عبده في التربة الاسلامية . يصف محمد رشيد رضا الأفغانين بالتعصب والجهل بأساليب القرآن لأنهم سخطوا على أميرهم الذي تشبه بالانجليز أعداء الاسلام وواكلهم وعاشرهم ! وكأنه يريد أن يكونوا محبين للانجليز ومتساهلين معهم لأنهم أقرب الناس الى العدل والتسامح على حد قول إمامه محمد عبده . ولماذا لا يعاشر أمير الأفغان الانجليز وقد عاشر محمد عبده مفتي الديار المصرية ورائد الفكر المصري اللورد كرومر وواكله وسخر الدين والفتاوى لخدمة الانجليز في الهند ومصر ! وكل من يقرأ آيات من القرآن يعلم أن هؤلاء الأفغانين على عجمتهم يفهمون الاسلام وأصوله أكثر من محمد عبده وتلميذه محمد رشيد مع كونها عربيين . وإن هؤلاء الأفغانين مخلصون للاسلام ، بينما نجد محمد عبده ومدرسته يعبدون الله على حرف ومعظمهم من الماسون . ولولا طبيعة البحث وما تقتضيه من كبح جماح العاطفة لكان لي معهم شأن آخر . ولكني أترك للقارئ أن يضع هؤلاء في مواضعهم التي يستحقونها ويصفهم بالنعوت التي تناسب مواقفهم المتخاذلة .

وإنك ترى أيها القارئ المسلم تحطيم القيم واختلالها عند محمد عبده وتلاميذه . فالمسلم الحق في نظر محمد عبده وتلاميذه جاهل متعصب ، وترك أحكام الاسلام من مثل إباحة ربا الفضل وإنكار تعدد الزوجات ضرورة ومصلحة للمسلمين .

فالحق في نظرهم يكون باطلا ، والباطل يكون حقا .

ومن أعجب العجب أن يظلّ أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون بما يلقون من تشجيع الانجليز الذين كانوا يمكنون لهم في إدارات الحكومة

(١) تفسير النار : ٢٧٧/٣ وما بعدها.

وفي مناصب الدولة الكبرى ، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشدُّ أزرها الصحف والمجلات والمدارس . وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلّون ويضعفون بناوأة الانجليز لهم ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم ، حتى أصبح اسم محمد عبده مقترناً في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير ، وأصبح اسم معارضيه مقترناً بالتزمّت وضيق الأفق المفسد لسماحة الاسلام ^(١) .

والحق يقال إن حركة محمد عبده الإصلاحية المزعومة التي اتخذت تفسير القرآن ودروس التفسير أساساً لها كان لها دور خطير في إخضاع المسلمين نهائياً للغرب وأفكاره وأنظمته ، وأقامت جسراً من فوق الهوة السحيقة بين الاسلام والثقافة الغربية ، بحيث أزالّت الخوف والشك من نفوس المسلمين من التعليم في جامعات الغرب التي يتخرج الطالب المسلم منها في الغالب الأعمّ ، منبتاً عن تراثه وحضارته الاصلية . هذا فضلاً عن المدارس والجامعات في بلاد المسلمين التي تُكرّس الروح العلمانية وعدم الولاء للاسلام إلا من رحم ربك ، وبهذا الصدد يقول المستشرق جيب : « إن تلامذة محمد عبده هم من أولئك الذين تعلموا على الطريقة الأوروبية . وذلك من ناحيتين : أولاً أن ما كتبه الشيخ كان بمثابة درع واقية للمصلحين الاجتماعيين والسياسيين ، فإن عظمة اسمه قد ساهمت في نشر أخبار لم تكن تنشر من قبل ، ثم إنه أقام جسراً من فوق الهوة السحيقة بين التعليم التقليدي والتعليم العقلي المستورد من أوروبا ، الأمر الذي مهّد للطالب المسلم أن يدرس في الجامعات الأوروبية دون خشية من مخالفة معتقده . وهكذا انفرجت مصر المسالمة بعد كبت ، فقد ساهم الشيخ محمد عبده أكثر من أي شخص آخر في خلق اتجاه أدبي جديد في إطار الروح الاسلامية » ^(٢) .

فقاسم أمين الذي درس في باريس هو تلميذ من تلاميذ محمد عبده . وهذا

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : ٣٣٢/١ .

(٢) الاتجاهات الحديثة في الاسلام : ص ٧٠ .

الرجل كتب كتابه : « تحرير المرأة » ، « والمرأة الجديدة » ، ليحطم الأسس والقواعد التي تقوم عليها نظرة الإسلام والمسلمين الى المرأة من حيث هي ربة بيت وعرض يجب أن يُصان . وقد ساعدت مدرسة محمد عبده على تكريس اتجاه قاسم أمين وتثبيته في اذهان المسلمين .

وطه حسين هاجم الأزهر ورجاله وبجث عن عيوبه وسجلتها في كتابه « الأيام » بفضل الأجواء الفكرية التي هيأت لها مدرسة محمد عبده ، وكذلك كتابه « في الشعر الجاهلي » و « مستقبل الثقافة في مصر » . واحمد لطفي السيد الذي دعا الى تمصير العربية كان ينهل من معين مدرسة محمد عبده . والشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » الذي نفى فيه وجود الخلافة كأساس من أسس الحكم الإسلامي كان من تلاميذ محمد عبده .

وعبد العزيز فهمي الذي دعا الى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية اقتداءً بما فعله أتانورك في تركيا ، في اقتراح قدمه الى مجمع اللغة العربية بالقاهرة كان يدور في فلك مدرسة محمد عبده . وغير هؤلاء كثيرون في مصر وغيرها من بلاد المسلمين . وآراء محمد عبده في فتاواه وتفسيره قد تبدو في ظاهرها لكثير من المسلمين لا بأس بها ولا غبار عليها ، بينما هي في حقيقة الأمر كما رأيناها تدعو الى مذهب التحرر « Liberalism » ، الذي يذهب في التسامح الديني إلى درجة تكاد تنمحي معها الحدود الفاصلة بين المذاهب والنحل^(١) . وهذا كله بتأثير الماسونية التي تقبل أن يكون أعضاؤها من أهل الأديان كلها ظاهراً ، وفي الواقع هي تهدم الأديان لمصلحة اليهودية العالمية .

وقد استطاع محمد عبده أن يكون مدرسة تترسم خطاه في التفسير وتسير على طريقته ومنهجيه . ومن أفراد هذه المدرسة الشيخ محمد رشيد رضا

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر : ٣٢٢/١ .

الطرابلسي (طرابلس الشام) الذي يُعَدُّ أكثر رجال مدرسة محمد عبده إنتاجاً في التفسير . وقد كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم ، والمشهور بتفسير المنار . ابتدأه بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى في الآية (١٠١) من سورة يوسف : (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليتي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) . ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله . هذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً ، ينتهي المجلد الثاني عشر عند قوله تعالى في الآية « ٥٣ » من سورة يوسف (وما أبرئ نفسي ... الآية) .

وقد أكمل الأستاذ بهجة البيطار تفسير سورة يوسف ، وطبع تفسير هذه السورة بتمامها في كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ محمد رشيد رضا . وفسر محمد رشيد من القصص سورة الكوثر ، والكافرون ، والإخلاص ، والمعوذتين ؛ وفي إنتاج محمد رشيد رضا التفسيرية تتجلى طريقة محمد عبده ومنهجه في التفسير ، من إعطاء المقل حرية واسعة في فهم الآيات ، والتوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية ، ومن جرأة على دين الله في تأويل كثير من الآيات كالذي رأيناه في مهاجمته الأفغانين الذين سخطوا على أميرهم بسبب معاشرته للإنجليز في الهند ومواكبتهم ولبس زي الإفرنج ، ومن مهاجمته التقليد الذي يحط من قيمة اجتهادات الأئمة الكبار وتفسير القدامى رحمهم الله .

وقد لاحظ الأستاذ محمد حسين الذهبي أن محمد رشيد رضا كان يجيد عن منهج محمد عبده أحياناً ، وذلك بعد وفاة شيخه واستقلاله بالعمل^(١) . وأنا أقول إن هذا الحيد والانحراف عن منهج شيخه في مواضع بعينها لا يخرج عن هذه المدرسة ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تبعية محمد رشيد في

(١) انظر كتاب « التفسير والمفسرون » : ٢٤٢/٣ - ٢٤٥ .

معظم إنتاجه ومواقفه للشيخ محمد عبده تبعية كلها تقليد غير مستنير يقوم على الإعجاب الشخصي .

ومن رجال هذه المدرسة الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وهذا الشيخ لم يلزم محمد عبده ملازمة طويلة كما لازمه محمد رشيد رضا ، ولم يجلس إليه كثيراً مثلما جلس .

وقد عقد الشيخ المراغي دروساً دينية في تفسير القرآن الكريم بمسجد البوصيري بالإسكندرية وبمسجد الحسين بالقاهرة في شهر رمضان .

ولم تكن هذه الدروس على شيء من الكثرة ، وهي لم تتناول من آيات القرآن إلا مقداراً قليلاً . والشيخ المراغي ، رحمه الله ، وإن كان يدور في اتجاهه التفسيري في فلك اتجاه محمد عبده إلا أنه خرج عن هذا المدار خروجاً رائعاً يستحق عليه الثناء والتقدير من المسلمين ، فقد كان يستند في تحضير دروسه إلى كتاب الله تعالى ، يجمع ما كان من الآيات في موضوع واحد ، لعل ما أجمل في موضع فُسر في موضع آخر ، وما أبهم في آية بُيِّن في آية أخرى ، وكان يستند أيضاً إلى ما صح من بيان رسول الله ﷺ ، وبيان السلف الصالح من الصعابة والتابعين ، ثم على أساليب اللغة ومنان الله في الكون ، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين ، ولكنه لم يبلغ عقله في هذا كله ، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره ، ويعرض ما فيها على قلبه وعقله ، فما أعجبه منها أقره ، وما لم يطمئن إليه نبسده وأعرض عنه . ولم نسمع عن الاستاذ المراغي - رحمه الله - أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولاً فيما كتبه المفسرون ، ولم يبلغنا عنه أنه ادعى لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأرائل في التفسير ، كما نرى ذلك واضحاً عند محمد عبده مفق الديار المصرية والمصلح الاجتماعي ورائد الفكر المصري ، بل على العكس من ذلك نجده يعترف بالفضل للأقدمين ، ولم ينس ما كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود ، وذلك حيث يقول عن تفسيره « ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين ،

وزهرات من رياضهم ، . لم يتعامل الشيخ المراغي - رحمه الله - على المفسرين كما تعامل محمد عبده وتلميذه محمد رشيد ، ولم يرم في وجوههم بالمعارات القاذعة اللاذعة ، بل كان عفواً في نقده ، نزيهاً في عبارته ، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء ، وبخاصة مع أسلافهم ومتقدميهم^(١) . ولكن أنسى لمحمد عبده أن يعرف الأدب مع العلماء السابقين رضي الله عنهم وقد انتسب إلى مدرسة قلة الأدب وتحطيم الأديان ما عدا اليهودية ، وهي الماسونية !

والشيخ المراغي كان يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجرؤ الآية القرآنية إلى العلوم ، أو العلوم إلى الآية ، كي يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحديث . وكأنه في هذا الموقف يكاد ينحو باللائمة على أستاذه محمد عبده الذي ضخم هذا الاتجاه وجعل له مكاناً في تفسيره . ولكته مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شيء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث ، ليستطيع أن يأخذ منها دليلاً على قدرة الله ، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة^(٢) .

وهذا الموقف المتزن الراجح الدقيق يدل على إخلاص ووفاء لكتاب الله الذي لا يجوز أن نعدّه كتاباً في العلوم الكونية .

وعبد العزيز جاويز تلميذ محمد عبده أخذ في تفسيره للقرآن يسير على منهج أستاذه في ربطه بالظروف القائمة متنقلاً في ذلك بين التاريخ والأدب والاجتماع والسياسة ، فمن ذلك بيانه أن حكمة الله قد اقتضت ألا يلي الأرض إلا المصلحون . ومن ذلك إبرازه لما ينطوي عليه الإسلام من تسامح ، وذلك في تفسير قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والتصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم

(١) انظر التفسير والمفسرون ، ٢٦١/٣

(٢) انظر المرجع السابق : ٢٦٩/٣

ولا هم يحزنون) . وكانت مجلة الهداية التي أنشأها عبد العزيز جاويز سنة ١٩١٠ م هي التي تحمل تفسيره للقرآن إلى القراء . ومن الواضح لكل ذي عينين أن أسلوبه هو أسلوب محمد عبده في تقريب الإسلام من قِـمِ العصر وثقافته التي هي في حقيقة أمرها مستمدة من قِـمِ الغرب وثقافته ، وقد أفسح من صفحات مجلته للمترجم من الثقافات الغربية الحديثة في التربية والاجتماع والدراسات النفسية والأدب شعره ونثره (١) .

أما ما كان ينشر في مجلة الهداية من مقالات إسلامية ، فبعضه يستهدف تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة ، وبعضه يستهدف تقريبه من المدنية الغربية ليطابق أنماط الحياة السائدة . فها نشرته المجلة في تقريب الإسلام من الثقافة الغربية الحديثة مقال للشيخ طنطاوي جوهري ، صاحب « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » ، في التوفيق بين الإسلام وبين مذهب دارون في التطور (٢) .

ومن الذين تأثروا باتجاه محمد عبده في التفسير الشيخ محمد أبو زيد ، إذ نشر طبعة من القرآن في سنة ١٩٣٠ م ضمنها ملاحظات ينتقد فيها الشروحات القديمة ويفسر اللجوء للخوارق بصورة طبيعية بحتة . وقد صادرت الشرطة الكتاب ، وصدر أمرٌ بمنع الكاتب من الوغط أو إقامة الاجتماعات الدينية (٣) .

وكذلك الشيخ محمد جمال الدين القاسمي صاحب « محاسن التأويل » ، كان معجباً بالشيخ محمد عبده ، وفي مقدمة تفسيره يعقد فصلاً في ذكر ملخص وجوه التفسير ومراتبه ، وقد نقل هذا الفصل عن مقدمة التفسير التي

(١) انظر الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ١/٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ١/٣٣٦ .

(٣) انظر المستشرق جيب ، الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، ص ٨٢ .

كتبها الشيخ محمد عبده . والقاسمي تأثر بالنزعة العلمية في تفسير القرآن ، وقد روج لها محمد عبده كما قلنا آنفاً ، فقد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم ، وقد صرح بأنه نقل ذلك عن بعض علماء الفلك . وكان كثيراً ما يورد أقوال محمد عبده إزاء تفسير جملة قرآنية ، وكان يلقيه الأستاذ الحكيم . وقد نقد أوضاع أهل عصره من 'فشو' البدع والأوهام والأذكار المحدثه والساعات المبتدعة . وقد ذكرنا أنه ردّ على بعض النصارى الذي ألف رسالة 'المعتقد الصحيح في صلب السيد المسيح' ، وقد ذكرنا ان محمد عبده قام بدور الدفاع عن الإسلام قبل مرحلة التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية .

ومن المعاصرين نجد عبد الكريم الخطيب صاحب 'التفسير القرآني للقرآن' ، شديد التأثير باتجاه محمد عبده التفسيري . وأول ما يبدو لنا من تأثيره بمحمد عبده اعتداده بنفسه في تفسير القرآن ، فهو لا يفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، فهو يرتل آيات الله ترتيلاً ... آية آية ، أو آيات آيات ، ثم يقف لحظات يلتقط فيها أنفاسه المبهورة ، تطالع به الآية أو الآيات من عجب ودهش وروعة ، ثم يمسك بالقلم ليمسك به على الورق بعض ما وقع في مشاعره من صور المعجب والدهش والروعة . ومحمد عبده كان لا يلتزم في التفسير كتاباً كما ذكرنا .

وذكرنا أنه كان يتعاطف مع المرأة تعاطفاً على حساب الفهم الصحيح لكلام الله تعالى ، وهو متأثر في هذا الموقف بمحمد عبده وتلميذه قاسم أمين . وقد رأينا بعض محاولاته للتوفيق بين ما ورد في سور القرآن وبين ما ورد في الإنجيل . وكان يُعطي عقله حرية واسعة في فهم مراد الله فأنكر وجود النسخ في القرآن مخالفافي ذلك ما أجمع عليه المفسرون المقانع وجمهرة المسلمين .

وتحامل الاستاذ الخطيب على الفقهاء والمفسرين ، وقد فتح الباب له ولأمثاله محمد عبده . وقد رأينا عنده ترويحاً للتسامح الذي يلغي الحدود

الفاصلة بين الإسلام وبين غيره من الأديان .

و الاستاذ محمد المبارك عبدالله شيخ علماء السودان تأثر باتجاه محمد عبده التفسيري تأثراً طفيفاً ، ففي تفسيره « جزء عم » ، يقول في مقدمة التفسير : « وفي العصر الحديث نشأت حركة علمية ، ونهضة إسلامية في العالم الإسلامي في الهند ومصر على الأخص ترمي إلى إثبات قدرة الإسلام على الحياة بين تيارات الحضارة الأوروبية الحديثة ، قادها في الهند أمير علي وأحمد خان بهادر وميرزا أبو الفضل وغيرهم ، وقام بأمرها في مصر السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا على اختلاف في الوسائل والأساليب ، واتجهت الى الاجتهاد في تفسير القرآن ، وفي الاستدلال بالسنة والإجماع ، وهي تصلح لمرض تأثير أحدث الحركات الإسلامية في التفسير ، وقد بين الشيخ محمد عبده خصائص تفسيره فقال بعد ما عرض لمذاهب المفسرين : وقد عرفت أن الإكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهي ، ويذهب بهم في مذاهب تنسيهم معناه الحقيقي .. » (١) . وقد ذكرنا أن أحمد خان بهادر وأمير علي ومحمد عبده كانوا يبذلون كل جهد للتوفيق بين الإسلام وبين الأحكام والمعالجات الرأسمالية ، وفي ذلك تحطيم للنظام الإسلامي بأساليب خفية ناعمة ، ومحمد عبده وإن اجتهد في تفسير القرآن ، فإن اجتهاده في معظمه لا يرضى عنه المسلم المستنير ؛ وذكرنا أنه أنكر أكثر من حديث صحيح وحمل حملة شعواء على من يقلّد الأئمة الأربعة ؛ وكان لا يوقّر كل قديم عند المسلمين بسبب سيطرة النزعة العقلية العلمانية على منحاها .

وعندما يفسر محمد المبارك عبدالله قوله تعالى: (إن البرار لفي نعم) (٢)

(١) تفسير جزء عم ، مقدمة التفسير ، ص ١٠ .

(٢) سورة الانفطار ، الآية ١٣

يورد قول محمد عبده أو تعليقه على بيان البرار (١) .

ونرى محمد المبارك عبداً لله يتابع محمد عبده في إنكاره الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره من أصحاب الصحاح المشتمل على كون لبيد ابن الأعصم اليهودي سحرَ النبي ﷺ ، على شاكلة قوله في تفسير قوله تعالى : (ومن شرَّ النفاثات في العقَد) : « ولا ننكر أنه شرٌّ جدٍر بأن يُستعاذ بالله منه لانه قد يؤدي إلى جنون المسحور ؛ ولكننا لا نسلّم بحال من الأحوال أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحرَ النبي ﷺ الذي وعده الله بالعصمة من الناس ؛ فقال تعالى (والله يعصمك من الناس) ولا نسلّم أن سحره أثر في قواه العقلية حتى كان يُخَيَّل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، وأنه يأتي بعض نساته وهو لا يأتين ، ونعتقد أن ذلك من دسائس المنافقين التي أرادوا بها أن يضعفوا الثقة بالوحي والقرآن والاسلام ، كما كذب الذين من قبلهم وقالوا (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) ، فرد عليهم مبطلاً مقالتهم قائلاً لنبيه (انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً) . وقد فطن لهذه الدسيسة جهابذة العلماء من القرون الأولى ، حتى قال الجصاص أن من يذهب الى هذا يكفر ؛ لمطابقة هذا لقول الكفار (إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً) الذي كذبه الله . وقال العلامة الطبرسي : وهذا لا يجوز لانه من وصف بأنه مسحور فكأنه قد خيل عقله ، وقد ابى الله ذلك في قوله تعالى (وقال الظالمون ان تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوها) وقد عاضدهما في ذلك كثير من المتأخرين منهم الشيخ محمد عبده ، ونحن نختار أنه يمكن الجمع بين الحديث وبين ما يجب للرسول من العصمة ، بأن ابن الأعصم حاول أن يسحر النبي وأجتهد في ذلك ولكن الله أبطل مكره وردَّ كيده في نحره ، فلم يستطع أن ينال منه مثلاً ، مصداقاً لقوله تعالى (ولا يفلح الساحر حيث أتى) وقوله تعالى (إنه ليس له سلطان على

(٣) تفسير جزء عم ، ص ٦٨

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (١) . وقد بينا آنفاً أنه ليس من وراء صحة هذا الحديث ما يخلُ بمقام النبوة ، فإن السحر الذي أصيب به النبي عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الامراض التي تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شي من العقل ، وقد قالوا إن ما فعله لبید بن الاعصم بالنبي ﷺ من السحر لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع العُقَد على النساء ، وهو الذي يسمونه « رباطاً » ، فكان يخيّلُ إليه ان عنده قدرة على إتيان إحدى نساءه ، فإذا هم بحاجة عجز عن ذلك . فهذا الحديث ليس ماساً بالعقل وليس بخلاً بمقام النبوة . ولا يجوز إنكار الحديث لانه رواه البخاري ومسلم وغيرهما من اصحاب الصحاح .

اما قول الله تعالى (والله يعصمك من الناس) فقد ذكر الواحدي النيسابوري في سبب نزولها حكاية عن عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ سهر ذات ليلة فقالت: يا رسول الله ما شأنك ؟ قال : ألا رجل صالح يحرمنا الليلة ، فقالت : بينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : سعد وحذيفة ، جئنا نحرمك ، فنام رسول الله ﷺ حتى سمعت غطيطة ، ونزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبة آدم وقال: انصرفوا يا أيها الناس ، فقد عصمني الله (٢) . فأنت ترى من خلال سبب نزول هذه الآية أن الله عَصَمَ رسوله عليه السلام من الخوف والقتل والإيذاء ، ولم يعصمه من المرض مثلاً . هذا هو اتجاه محمد عبده في تفسير القرآن عرضناه في هذه الصفحات .

وهؤلاء هم أشهر من تأثروا باتجاهه في التفسير . وهذه النزعة التي تعتمد على دعائمين : تحكيم العقل تحكيماً مبالغاً فيه في فهم مراد الله تعالى ،

(١) تفسير جزء عم . ص ٢١٨ وما بعدها .

(٢) أسباب النزول . ص ١١٥ .

والتوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية أو روح العصر ومقاييسه ؛ كان لها تأثير كبير في غير ميدان التفسير . وأعني به ميدان الفكر والبحوث الأدبية والإسلامية .

وإنني لا أرى بأساً في الإشارة الى بعض هذه الكتب على سبيل المثال لا الحصر ؛ لان حصرها يتطلب بحثاً قائماً برأسه .

وأول هذه الكتب كتاب « في الشعر الجاهلي » لطفه حسين الذي ظهر في سنة ١٩٢٦ م ، بعد أن ألقاه صاحبه على طلبة السنة الأولى في كلية الآداب خلال العام الدراسي المنصرم . والكتاب مقسم الى ثلاثة أقسام أو ثلاثة فصول ، الأول في توضيح منهجه في بحث الأدب العربي - وهو أكثر الابواب إثارة ، ولذلك اضطر إلى إسقاط أكثره عندما أعاد طبع الكتاب باسم « في الأدب الجاهلي » سنة ١٩٢٧ ، وأدخل ما أبقاه منه بعد تعديله مفرقاً على الفصلين اللذين أحلتها محل الفصل المحذوف .

ويقدم طه حسين بين يدي القارئ ما انتهى إليه من أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وأنها إنما وضعت في العصور الإسلامية المتأخرة . وذكر المؤلف أنه يصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكرت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث ، وذلك بأن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً .

ويستطرد المؤلف خلال الفقرة الرابعة من القسم الأول الى ذكر إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - دون أن تدعو الى ذلك حاجة ظاهرة ، أو ضرورة ملزمة ، فيتناولهما بكلام لا يوصف بأقل من أنه كفر بكتب الله ورسله يؤذي إيمان المؤمنين ، ويفسد عقائد صفار الطلاب الذين ألقى عليهم . ويستخف طه حسين بما قرره القرآن من صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب

وبنائه الكعبة ، مما لا يرتفع عنده الى أكبر من مرتبة الأساطير التي خلفها اليونان والرومان . ونحن هنا لسنا بصدد الرد على طه حسين ، فقد رد عليه كثيرون وفنّدوا مزاعمه وحطموا أحكامه التي تعتمد على القياس الشمولي . ولكنني أود أن أشير الى التأثير في هذه الآراء بمحمد عبده الذي كان يعظم ويوقّر بحوث المستشرقين ، ويصطنع النزعة العلمانية العقلية في تفسير القرآن الكريم .

ومن المعروف أن طه حسين في كتابه هذا تابع المستشرق اليهودي مرجليوث . فهو من أوائل من أثار الشك في الشعر الجاهلي في مقالة كاملة . فقد نشر في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥ بحثاً عنوانه « أصول الشعر العربي » رجّح فيه أن هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي إنما نظم في العصور الإسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيّفون لشعراء جاهليين .

فمحمد عبده في نظري ، هو الذي فتح هذه السبيل أمام طه حسين ومن هم على شاكلته . والرابطة التي تربط هؤلاء : جرأة على دين الله ، نزعة علمانية عقلية غلبة ، تعظيم لفكري الغرب ومنهم المستشرقون ، تهجم على الأزهر ورجاله وتنقيب عن عيوبه وهفوات رجاله ، ورقة في الدين تصل الى حد الكفر

ولا ننسى أن طه حسين في كتابه « الأيام » يصوّر الأزهر ورجاله تصويراً يئمّ عن الحقد الشديد . وقد سبقه أخوه محمد عبده وأستاذه وإمامه في حملة ظالمة على الأزهر ورجاله . وقد أيّد كلا الرجلين الاحتلال البريطاني في مصر ؛ ووصل كلاهما الى أرقى المناصب في ظل الاحتلال البريطاني ؛ فمحمد عبده صار مفتي الديار المصرية ، وطه حسين صار وزيراً للمعارف وعميداً للأدب العربي .

ورثاني هذه الكتب كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » لطله حسين . وقد

ظهر سنة ١٩٣٨ حين كان الناس يكثرّون من التحدث عن مستقبل مصر بعد المعاهدة التي عقدها مع إنجلترا سنة ١٩٣٦ . فأراد المؤلف أن يرسم للناس سبيل النهضة التعليمية في عهد نهضتها واستقلالها كما يقول في مقدمة كتابه . وفي هذا الكتاب يندفع طه حسين ويتجاوز الاتجاه الذي اختطه محمد عبده ليقرر أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن قأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط . ويصورّ العرب الذين حملوا الإسلام الى أهل مصر غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون في الوقت الذي يصورّهم فيه مطمئنين الى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمرّدون عليه .

ويقرر بعد ذلك كله أن سبيل الحضارة الغربية هو السبيل الذي لا بد للمصريين من سلوكه والمضي فيه ، لا لأن تاريخ مصر يؤيد هذا المذهب في زعمه ، ولا لأن مصلحة المصريين تقتضي ذلك على ما يدّعي ، ولكن لأن التزامات مصر الدولية في المعاهدة التي يسميها معاهدة الاستقلال تجبر المصريين على ذلك .

ويدعو الى أن تكون الحكومة في مصر لا دينية ، ولكنه يدور حول هذا الهدف في أكثر من موضع من كتابه ، ويحاول أن يمهّد له ، لأنه يُقدّر أن وقت الدعوة الصريحة إليه لم يحن بعد . أرأيت هذه الشجرة التي زرعها محمد عبده كيف أثرت على يد طه حسين الذي يسمونه عميد الأدب العربي ؟ ! أرأيت تشويه الحقائق وتزوير التاريخ على يد خدام الغرب والمستشرقين ؟ ! أرأيت الدعوة الى القضاء على الإسلام في بلد الإسلام والجامع الأزهر أرض الكنانة ؟ ! وإذا أردت أن تعرف الرجل الذي جعل طه حسين يصور العرب بالغزاة المستعمرين فإنه جمال الدين الإيراني المتأفّقن أستاذ محمد عبده وإمامه في الضلال ، يقول جمال الدين مخاطباً المصريين : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ

زمن الملوك الرعاة حق اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين . تسومكم حكوماتكم الحيفة والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم - التي تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم صامتون . فلو كان في عروقكم دم فيه 'كربّيات' حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيت بهذا الذل وهذه المسكنة تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والماليك إلخ ؛ وكلهم يشق جلودكم ببضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت . انظروا أهرام مصر ، وهيكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنّة آبائكم ، وعزة أجدادكم ، (١) .

من هذا التص نستطيع أن نقول إن جمال الدين الإيراني الشيعي يعتبر العرب غزاة مستعمرين ، شأنهم في ذلك شأن اليونان والرومان والفرس والهكسوس . وألحق بالعرب الأكراد والماليك . وكل من عنده رمق من فهم يدرك أن العرب حملوا الاسلام الى أهل مصر كما حملوه الى الأمصار الأخرى . وجمال الدين يدعو المصريين الى النعرة الفرعونية والانسلاخ عن الاسلام والمسلمين . ولو كان محمد عبده مخلصاً لدين الله ولجماعة المسلمين لما أنقاد الى هذا الدجال . وولاء المسلم إنما يكون لله وحده ، ولا يكون لأهرامات مصر أو الآثار الفينيقية أو الرومانية أو غيرها .

وثالث هذه الكتب كتاب « الفن القصصي في القرآن الكريم » للدكتور محمد أحمد خلف الله . وفي هذا البحث ينحو الباحث نحواً عقلياً علمانياً في فهم قصص القرآن الكريم فيقرر أن في القرآن أساطير ، وذلك في أثناء

(١) انظر زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، ص ٧٢ وما بعدها .

مناقشته الفخر الرازي في تفسير قول الله تعالى : (وقالوا أساطيرُ الأولين أكتبها فهي تملأ عليه بُكرةٌ وأصيلاً . قل أنزلهُ الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً) (١) : « والذي يحسن بنا أن نلتفت إليه هنا هو أن الرازي يسأل عن كيفية أن يكون قوله تعالى (قل أنزله الذي يعلم السر ... الآية) إجابة عن قولهم (وقالوا أساطيرُ الأولين ... الآية) . ذلك لأن المتبادر أن الرد الذي كان يتوقعه الرازي إنما يكون بنفي وجود الأساطير في القرآن . ومن هنا حاول أن يجعل إجابة القرآن ملاقية للشبهة حين وجد أن الرد ليس نفيًا لوجود الأساطير في القرآن بل نفي موجود آخر هو أنه ليس منزلًا من الذي يعلم السر في السموات والأرض . ولعلنا لا نوافق الرازي فيما وجه به الرد ، بل نرى أن إجابة القرآن هي الإجابة الطبيعية ، وهي الإجابة التي لا يحيد عنها في هذا الميدان ، ذلك لأن مدار الحوار بين القرآن والمشرّكين لم يكن عن ورود الأساطير في القرآن ، وإنما كان عن اتخاذهم ورود الأساطير دليلًا على أن القرآن من عند محمد لم يحئه به الوحي ولم ينزل عليه من السماء . ومن هنا كانت الإجابة في محلها . وكان إثبات أن القرآن من عند الله (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) ولم تكن الإجابة نفي ورود أساطير في القرآن ،

وهذا هو الذي ، يدلُّ عليه أيضاً ما ذكره القرآن من قبلهم (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطيرُ الأولين) ذلك لأنهم كانوا يتخيلون استبعاد أن يصدر مثل هذا القصص الأسطوري عن الله ولذا وقفوا موقفهم هذا من النبي عليه السلام ومن القرآن واشتطوا في ذلك وغلّوا وهم مخطئون .

وإذا كان إحساس القوم بورود الأساطير في القرآن قوياً عنيفاً وعقيدتهم

(١) سورة الفرقان ، الآيتان ٥ ، ٦ ،

في ذلك قوية وثابتة . وإذا كان القرآن لا ينفي ورود الأساطير فيه وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير هي الدليل على أنه من عند محمد عليه السلام وليس من عند الله .

إذا كان هذا ثابتاً فإننا لا نتحرج من القول بأن في القرآن أساطير لأننا في ذلك لا نقول قولاً يعارض نصاً من نصوص القرآن ، (١) .

وفي هذا القول جرأة على كتاب الله من غير دليل يؤدي الى ما انتهى إليه بأن في القرآن أساطير . لأنه رأى أن القرآن لا ينفي وجود الأساطير في الآيتين السابقتين . والأساطير : الأباطيل أو أحاديث لا نظام لها أو تأليف ما لا أصل له . ولو كان الدكتور محمد أحمد خلف الله يتمثل أساليب القرآن في الرد على حكايات العرب المشركين الكفار لما انتهى الى هذه النتيجة . وكان الدكتور يريد أن ينفي القرآن ورود الأساطير فيه نفياً قاطعاً صريحاً . وإذا كان القرآن لم ينفي ورود الاساطير فيه فكيف سمح الدكتور لنفسه أن يقول بأن في القرآن أساطير ؟ ولكي نبين خطأ ما انتهى اليه الدكتور محمد أحمد خلف الله نورد جميع الآيات القرآنية التي وردت فيها عبارة « أساطير الأولين » :

يقول الله تعالى في الآية (٢٥) من سورة الأنعام : (.. وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (٣١) من سورة الأنفال : (وإذا قُتِلَ عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (٢٤) من سورة النحل : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) .

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم ، ص ١٧٩ وما بعدها .

ويقول تعالى في الآية (٨٣) من سورة المؤمنون : (لقد وُعِدنا نحن وآباؤنا هذا من قبلُ إنَّ هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (٦٨) من سورة النمل : (لقد وُعِدنا هذا نحن وآباؤنا من قبلُ إنَّ هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (١٧) من سورة الأحقاف : (والذي قال لوالديه أفِ لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) .

ويقول تعالى في الآية (١٥) من سورة القلم : إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ٢ .

ويقول تعالى في الآية (١٣) من سورة المطففين : (إذا تُتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) .

في هذه الآيات حكايات عن مجموعة من العرب المشركين أو آحاد منهم في وصف الآيات التي تنزل على محمد ﷺ . ونلاحظ فيها تكرار العبارة نفسها مما يدل على التحير والتخبط والاصرار على الباطل . واني أريد أن أتساءل : هل من الحكمة أن تنفي تهمة وجهت اليك من قبل معاندٍ مكابر جاهل ؟ فإذا قال لك مثلاً : أنت مجرم ، تجيبه لا أنا لست مجرمًا ؟ وإذا ترفع القرآن عن جاهليتهم حين وصفوا آياته بأنها أساطير الأولين ، فلم ينبذ هذه التهمة أو الافتراء الصريح ، وأخبر بأن هذا القرآن أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، فهل يجوز لأحد أن يزعم بأن في القرآن أساطير ؟ وهل من الدقة العقلية أن يتوصل الانسان الى اثبات شيء على أساس عدم نفيه ، وبخاصة اذا كانت هذه القضية بين مشركين سفهاء أجلاف وبين خالق الكون والانسان والحياة ؟ وزيادة في ايضاح ما نذهب اليه وإبطال ما ذهب

إليه الدكتور محمد أحمد خلف الله نورد بعض مزاعم العرب المشركين وموقف القرآن وردوده عليها .

يقول الله تعالى في الآية (١٩) من سورة الزخرف : (وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهدتهم ويسألون) .

زعم العرب المشركون أن الملائكة بنات الله ولم يكفهم أن جعلوا لله ولداً . وهذا الزعم يدل على جهلهم بالله وصفاته واستخفافهم بالملائكة حيث نسبوا إليهم الأنوثة . وكان ردُّ القرآن على هذا الزعم (أشهدوا خلقهم) استفهامٌ فيه تهكم ، والمعنى إظهار فساد عقولهم وأن دعاويهم مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الطاعنة على أهل التنجيم والطبائع (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) ثم توعدهم الله وأخبر أن شهادتهم على الملائكة بأنوثتهم ستُكْتَبُ ويسألون . فأنت ترى أن أسلوب القرآن في الرد لم يجر على نفي مقولة المشركين الفاسدة ، وإنما جرى على الاستفهام الذي فيه تهكم ، وخاطب عقولهم : هل حضرتهم خلقهم بئله خلق أنفسكم ، ثم توعدهم .

ويقول تعالى في الآية (٣٣) من سورة الرعد : (... وجعلوا لله شركاء قل سموهم ... الآية) احتج عليهم في إشراكهم بالله وهو الذي يستحق العبادة وحده ، فكان رد القرآن على هذا النمط : قل لهم يا محمد جعلتم له شركاء ، فسموهم له من هم ونبؤوه بأسمائهم بل أتنبؤونه بشركاء لا يعلمهم في الأرض وهو العالم بما في السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشيء يتعلق به العلم ، والمراد نفي أن يكون له شركاء . فأنت ترى أن القرآن لم يجر على النفي المباشر ، ولم يكن السياق كما يتوهمه الدكتور محمد أحمد خلف الله : وجعلوا لله شركاء ، قل ليس له شركاء ، بل كان : (قل سموهم) . هذان أنموذجان يحملان أسلوب القرآن في رده على مزاعم الخصوم من المشركين العرب . ولولا ضيق المقام لأوردت الكثير من الآيات القرآنية التي تبطل

مزاعم الدكتور محمد أحمد خلف الله وتظهر تهافت مقولته إن في القرآن أساطير أي أباطيل وأكاذيب . وقد دخل بزعمه هذا في دائرة الكفر باسم التحرر في البحث والعلمانية المقيتة .

وإذا كان القرآن الكريم لم ينفِ ورود الأساطير صراحة فيه ترفعاً عن ذلك وتسامياً فإنه ركز على أن الذي أنزل القرآن جملة هو عالم السر في السموات والأرض أي الكون . والذي يتلو الأحاديث التي لا نظام لها أو الأباطيل أو قصص رستم وإسفنديار «أي الأساطير» ، لا يعلم السر بالضرورة ، وإنما يحفظ هذه الأحاديث أو الأساطير . وإني أفهم من هذا السياق العقلي هذا المعنى : أيها العرب المشركون الكفار ، يا ضعاف العقول : إن هذه الآيات التي يتلوها محمد عليه السلام ليست من عنده ، لأن عقله محدود وإدراكه كذلك ، وإذا حارت عقولكم ولاحظتم تشابهاً بين هذه الآيات وبين قصص الأولين مثل رستم وإسفنديار ، فالقرآن ليس كذلك ، لأن محمداً عليه السلام بشر مثلكم قاصر العقل ، وإن عرف مثل هذه الأساطير فهو لا يعرف السر لأنه بشر . وهذا القرآن من عند الله عالم الأسرار ومبدع الكون الذي لا يفعل الأباطيل والأكاذيب . وهذا السياق العقلي يقود بالضرورة إلى نفي ورود الأساطير في القرآن بطريق غير مباشر . وقد أخبر الله تعالى أن القصص الذي ورد في القرآن هو الذي لا مزية فيه ، ليس فيه أساطير ولا أباطيل ولا أكاذيب ؛ ويقول تعالى في الآية (١٣) من سورة الكهف : (نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) وغير هذه الآية .

وهكذا يبدو لكل ذي فهم تعسف الدكتور محمد أحمد خلف الله وتهافت مقولته ومحاولته إثبات الخطأ وجعله حقيقة مقررة .
ورابع هذه الكتب كتاب «إشتراكية الإسلام» للدكتور مصطفى السباعي .

وفي مقدمة الطبعة الأولى يقول المؤلف : « وكما هي سنة الحياة من

افتتان الضعفاء بالاقوياء في كل ما يأتي عنهم من خير أو شر ، فقد ساد الفكر الثقافي في عالمنا العربي والإسلامي جو من الإعجاب بالحركات الفكرية السائدة في عالم الحضارة ، يصحبه جو من الشك فيما بين أيدينا من تراث عقائدي وحضاري من حيث صلاحه للحياة الحديثة ، وإمكانه مجاراة التطور العالمي في كل شئون الحياة وخاصة في الميادين الاقتصادية والمعاشية ، بل تسرب الى بعض العقول التي تدعي الثقافة والتحرر والتفكير العلمي فكرة خبيثة ما يزال يبتثها المستعمر الغربي في أوساطنا الثقافية منذ قرن أو أكثر وهي أن سر تأخر الشرق - وخاصة العربي والإسلامي - هو أديانه التي كانت - على ما يزعمون - من أكبر عوامل تأخره والتخلف طاقه ، بل أخذ بعضهم يحجر بأن هذه الأديان مخدرة للشعوب خادمة للرأسمالية والإقطاع مثبتة لدعائم الاستعمار . ونحمد الله على أن هذا الصوت المنكر الذي يدل على جهل علمي وتاريخي فاضح ، قد أخذ يخفت شيئاً فشيئاً منذ ابتدأت الثقافة ، في بلادنا تتحرر من نفوذ الاستعمار وتوجيهه وسيطرته على مناهج التعليم في بلادنا المتحررة ، وبدأنا نبعث في عقائدنا وتراثنا بحث العقل النير الذي يشق بقدرته على البحث والتمحيص ... وقد أسهم كثيرون من أفاضل العلماء والمصلحين منذ عصر المصلح الإسلامي السيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه وزميله الإمام محمد عبده رحمهما الله ، حتى وقتنا هذا ، في جلاء تلك الحقيقة التي جهلها دعاة المذاهب المستوردة الدخيلة على شرقنا ، العربي والإسلامي الى ان استوى تحررها العلمي على قدميه واستطاع ان يرد الباطل ويكشف الزيف ويحلو جمال الحق للبصائر والابصار^(١)

ويذكر الدكتور مصطفى السباعي أنه سعى القوانين والاحكام التي جاءت في الاسلام لتنظيم التملك وتحقيق التكافل الاجتماعي « باشتراكية الاسلام » .

(١) اشتراكية الإسلام : ص ٥

وهو يعلم ان بعض الغيورين على الاسلام يكرهون هذه التسمية ، لان الاشتراكية في رأيهم هي « موضة » هذا العصر ، فلا تصح المبادرة الى القول بالاشتراكية الاسلامية ، تمشياً مع هذه « الموضة » ، ولانه قد يأتي زمن تبطل فيه هذه الموضة ويسود القول بمذهب اقتصادي آخر ، فيضطر حينئذ الى العدول عن القول باشتراكية الاسلام .

والدكتور السباعي اختار القول باشتراكية الاسلام مع العلم بكل ما يقول هؤلاء لانه لا يعتقد ان الاشتراكية « موضة » ستزول ، بل هي نزعة إنسانية تتجلى في تعاليم الانبياء ومحاولات المصلحين منذ أقدم العصور ، وتسعى شعوب العالم الحاضر - وخاصة الشعوب المتخلفة - الى تحقيقها لتتخلص من فواجع الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش المزري بكرامة الانسان ، وليست حقيقة الاشتراكية هي « التأميم » ولا « انتزاع رأس المال » ولا « تحديد الملكية » ولا « الضرائب التصاعدية » بل هذه كلها وسائل يراها 'دعائها الطريق الصحيح لتحقيق هدف الاشتراكية .

ويذكر الدكتور السباعي ان ما يعرضه في هذا البحث هو « التشريع الاسلامي » الذي جاء لتحقيق ذلك الهدف ، لا تزويق ولا تحريف ، وهو تطبيق ذلك التشريع نظرياً في أحكام الفقه ، وعملياً في تاريخ الدولة الاسلامية في مختلف عصورها . ويقول : فليسمه غيرنا بما يشاء ، ليسمه باسم « العدالة الاجتماعية » او « التكافل الاجتماعي » او « محاربة الفقر » او ما شابه ذلك ، اما نحن فنسميه بالاسم الذي يحبه الناس ويرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وبذلك نكون قد أمثلنا أمر الله تعالى (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وما هي الحكمة إن لم تكن دعوة الناس الى الحق والخير بأسلوب يصفون اليه ويأمنون به ؟ (١) .

(١) انظر المرجع السابق - ص ٦ وما بعدها

والواقع أن الدكتور مصطفى السباعي مصرّ على تسمية الأحكام الشرعية التي جاءت في الإسلام لتنظيم التملك وتحقيق التكافل الاجتماعي « باشتراكية الإسلام ». وما الداعي إلى هذا الإصرار ؟ لأن الناس يحبّثون هذا الاسم ويرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . فالمسألة عنده هي مسألة إرضاء الناس وليست إرضاء الله ورسوله وجماعة المسلمين !

وكل من يدقق في كلام الدكتور السباعي يلاحظ أنه يوفّق بين الإسلام وبين الفكر الماركسي أو الاشتراكية . والنزعة التوفيقية التي قام بها محمد عبده في تفسيره أثرت على يد الدكتور السباعي . فمحمد عبده كان يوفّق بين الإسلام والحضارة الغربية ، والدكتور السباعي يسمي الأحكام الشرعية التي تنظم التملك وتحقيق التكافل الاجتماعي باشتراكية الإسلام . وهذه النزعة عند الدكتور السباعي ومن هم على شاكلته إن دلت على شيء فإنما تدل على الأنهزامية الروحية والفكرية . وكأن الإسلام عند هؤلاء متهم في قفص الاتهام . ولقد أخطأ الدكتور السباعي حين قال إن الناس يحبّثون هذا الاسم « أي الاشتراكية » ويرونه أملهم الوحيد في الخلاص من شقائهم واضطراب أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية . فالناس يحبّثون الخلاص من الشقاء والفقر والظلم واضطراب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، ولكنهم لا يحبّثون الاشتراكية لأنهم مسلمون . ولكن الذي أحب اسم « الاشتراكية » بعض الحكام لتكون ستاراً واقياً لعمالتهم للغرب . وإذا كان هناك بعض المسلمين الذين صاروا كفاراً شيوعيين يحبّثون الاشتراكية ومنهم الشيوعية فهم قلّة حقيرة ليس لها وزن ، وتتسرب إلى المسلمين السذج برفع شعارات منافية للشيوعية أصلاً كالقومية والوطنية .

وإني أذهب مع الدكتور محمد البهيّ الذي يعالج هذه القضية ، يقول : « تدفع في بلادنا العربية بعض الصحف ، والدوريات ، والرسائل ، والكتب ،

ومحطات الإرسال المسموعة والمرئية ، باستمرار في غير انقطاع في غير ملل مما تكتب أو ترسل - وإن كان مكرراً وممجوجاً - بالفكر الماركسي البلشفي باسم الثورة العربية المعاصرة ، ولا تخجل بنسبته الى العرب أو المسلمين على أنه أصيل لبعض منهم ، وهو منقول وغريب في نشأته وتطوره وتطبيقه عن البيئة العربية والاسلامية ، وهو في الوقت نفسه مغلول ومفلس ومتهافت في بيئته الأصلية . ولكن تروجه قراصنة الحكم في القرن العشرين ، وعصابات العضلات وعباد الوثن المادي ، والحاقدون على قوة المسلمين في دينهم ، وتكامل اقتصادهم ومركز بلادهم في عالم الإنسان على هذه الارض ، وحضارتهم التي يتميزون فيها بالطابع الإنساني والروحي وبالسبق والاستمرار فيها ، (١) .

وقد تصدى لبدعة الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « اشتراكية الاسلام » علماء أفاضل في بلده منهم الشيخ محمد حمدي الجويحاني في كتابه « الاصابة في الرد على السباعي » وكذا الأستاذ الشيخ وهي سليمان الألباني . وأما الفقيه الجليل عالم حماة الشيخ محمد الحامد فقد رده وقمع بدعته بكتابه القيم العظيم « نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام صادرة عن الكتاب والسنة ومذاهب الأئمة » (٢) .

وهناك اختلاف عقائدي ونظامي بين الاسلام والاشتراكية . فالعقيدة الأساسية للنظام الاشتراكي ، هي العقيدة المادية ، التي تقول أن المادة هي أصل الأشياء ولا شيء غير المادة . وهذا يعني إنكار وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، وبالتالي إنكار كل دين سماوي ، واعتبارها الإيمان بذلك أفيونا يخذّر الشعوب ، كما يعتقد بذلك الماركسيون واليتويون وأمثالها ،

(١) تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق - مقدمة ص ٥ وما بعدها .

(٢) انظر حكم الإسلام في الاشتراكية : ص ٩٩ .

وعلى أساس هذه العقيدة الإلحادية ، قام النظام الاشتراكي ، منظماً العلاقات الاقتصادية وجميع المعاملات المادية ، وسائر أنظمة الحياة وقوانين المجتمع . وهذه العقيدة - كما لا يخفى - تتناقض مع العقيدة الإسلامية ، التي تقوم على أساس الإيمان بوجود الله الخالق لكل شيء في هذا الوجود وتختلف معها كل الاختلاف ، ولا يصح أن يؤمن بها إنسان ، لأنها مناقضة للفطرة البشرية ، ولغريزة الدين المخلوقة مع كل إنسان (١) .

والذي دفع الدكتور مصطفى السباعي ومن هم على شاكلته لهذا القول ، وجود الشبه بين بعض قواعد الاشتراكية ، مع ما أقره الإسلام من أحكام ، ووجود الموافقة بينها في بعض الجزئيات ، كوجود فكرة المساواة - كفكرة - ، أو وجود الشركة بين الناس في الماء والكلأ والنار ، أو يجعل كل ما هو من ضرورات الحياة ملكاً للدولة ، أو بوجود لفظية المشاركة والشركة والشركاء في الفقه الإسلامي .

يقولون ذلك من باب تقريب الإسلام الى الأذهان ، بعد أن طغى عليها سماع اسم الاشتراكية ، لذا فهم يصطلحون على إسلامهم فيسموه بالاشتراكية الإسلامية ، أو اشتراكية الإسلام ، أو أن النظام الإسلامي في الاقتصاد هو نظام اشتراكي . إن هذا القول باطل ، ويحمل في طياته خطراً على الإسلام حيث يحكم بتبعيته للنظم المعاصرة والوضعية الكافرة ، ولن يكون الإسلام تابعاً ، لأنه من عند الله خالق الأرض والسماء ، كما في هذا القول تسليم بهزيمة الإسلام أمام تلك النظم ، وأني للإسلام العظيم أن يهزم وقد هزمت أمامه جميع نظم الأرض واكتسحها وفرض وجوده عليها فكان في الذروة العليا ، وكانت في الحضيض .

وليس هناك اشتراكية عربية ، لأن العرب لم يعرفوا الاشتراكية لا في

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٠٩ وما بعدها ،

الجاهلية ولا في الاسلام ، فكانت نسبة الاشتراكية إليهم قولاً باطلاً مغايراً للواقع .

وليس هناك اشتراكية إسلامية لأن الاسلام نظام يقوم على قاعدة فكرية أو عقيدة كلية شاملة عن الكون والانسان والحياة مخالفة تماماً للقاعدة الفكرية الماركسية اللينينية التي تعتبر الكون مادياً محضاً ومن ثم تنكر وجود الخالق الواجب الوجود .

والاسلام نظام قائم بذاته متكامل لا يلتبس بشيوعية ولا رأسمالية . وبذلك يظهر للقارىء تهافت النزعة التوفيقية الهزيلة التي قام بها الدكتور مصطفى السباعي في كتابه « اشتراكية الاسلام » (١) .

وخامس هذه الكتب كتاب « الديموقراطية في الاسلام » لعباس محمود العقاد . ومن عنوان الكتاب يلاحظ المسلم المستنير أن المؤلف سيقوم بدور توفيقى بين الاسلام وبين الفكر الرأسمالي . ويجب أن نذكر أن عباس محمود العقاد من تلاميذ محمد عبده المعجبين به أشد الإعجاب ، وقد شاهدت تمثالاً نصيفاً للشيخ محمد عبده على طاولة في بيت العقاد . ويذكر المؤلف في مقدمة كتابه أن الذي دعاه الى هذا البحث أن الأمم الاسلامية في عصرنا تنهض وتتقدم ، وانها أحوج ما تكون في هذه المرحلة خاصة إلى الحرية والايمان متفقين ، لأن الحرية بغير ايمان حركة آلية حيوانية أقرب الى الفوضى والهباج منها الى الجهد الصالح والعمل المسدد الى غايته ، فمن الخير أن تذكر الأمم الاسلامية على الدوام أن الحرية عندها ايمان صادق ، وليست غاية الأمر فيها أنها مصلحة ونظام مستعار . ولمن شاء أن يقرأ هذه الصفحات من الوجهة الدينية ، فسيراها مطابقة للعقيدة الدينية الحسنى في غير شطط ولا جمود . ولمن شاء أن يقرأها من الوجهة العلمية ، فسيرى أن الموضوع كله صالح للعرض

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧ . وما بعدها .

على مقاييس العلم وموازينه ، ولكن على شريطة أن يفهم أولاً ما هي المسألة التي تعرض على العلم حين نتكلم عن الديمقراطية في الاسلام^(١) .

ووجد المؤلف أن هذا البحث يدعو الى تعريف الديمقراطية التي نشأت قبل الدعوة الاسلامية ، كي تتبين ما جاء به الاسلام من هذا النظام غير مسبوق إليه ، وتبين بالمقابلة بين النظام القديم والنظام الجديد ما فيها من مواضع الاتفاق ومواضع الاختلاف^(٢) .

والديموقراطية لفظة عنت اصطلاحاً خاصاً ، أطلقها واضعوها على نظام للحكم ، يقوم على أساس أن الشعب مصدر السلطات ، ومنها إعطاؤه حق تشريع الأنظمة والقوانين ، كما يشاء ويريد ، دون مراعاة شيء سوى الهوى والتقليد . كما يقول على أن الشعب له السيادة في كل شيء ، ومنه إعطاؤه الحق فيمن ينوب عنه في الحكم ، بشرط الرضى عنه ، سواءً أكان رجلاً أم امرأة ، مسلماً أم غير مسلم ، وكذلك إعطاء الحريات له ، وهي حرية العقيدة ، وحرية الرأي ، وحرية التملك ، والحرية الشخصية . تلك معاني لفظة الديمقراطية ، التي جمعها بعضهم بقوله « حكم الشعب نفسه بنفسه » ، فحين تطلق هذه اللفظة « الديمقراطية » تعني اصطلاحاً ذاك معناه .

وهذه المعاني مخالفة لأحكام الاسلام ، ومناقضة له ، بل ليس لها أي واقع حق عند الديموقراطيين أنفسهم . فمن حيث السلطة التشريعية ، وحق تشريع الأنظمة ، فإن الاسلام جعلها حصراً ، بيد الله ورسوله ، ومصدر ذلك الكتاب الكريم والسنة المطهرة وما أستند عليهما وأرشد إليهما ، وليس للشعب وبعبارة أدق للأمة أن تخرج على نص من نصوص الاسلام ، ولو اجتمعت كلها على ذلك ، قال تعالى : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا

(١) الديمقراطية في الاسلام ، المقدمة . ص ٧ .

(٢) انظر المرجع السابق . ص ١٢ .

تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) ، وقال :
(وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) .

وعلى الأمة ، وبعبارة أصح على رئيس الدولة ، وهو من ينوب عن الأمة في الحكم والسلطان ، إنابة حصل عليها من طريق الرضى والبيعة ، :ان يأخذ أنظمة الحياة كلها ، من تلك المصادر الكريمة ، إما باجتهاد منه ان كان قادراً عليه ، أو باتباع مجتهد من المجتهدين ، تنفيذاً لقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً) وقوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . وبهذه كانت السلطة التشريعية بيد الله ورسوله ، لا بيد الشعب ، وكان مصدرها الشرع لا الشعب ، وكان تبني أحكام الأنظمة والقوانين ، بيد رئيس الدولة لا بيد الشعب ، وانما لنواب الأمة ، وهم أعضاء مجلس الشورى ، ان يعترضوا على ما تبني رئيس الدولة ، اذا كان ما تبناه 'يخالف' أحكام الشرع ^(١) .

والذي يدقق في معاني اصطلاح الديمقراطية يتبين له أنها تخالف احكام الاسلام . فلا يجوز استعمال هذم اللفظة - الديمقراطية - سواء ذكرت كما هي أم أردفت بوصف الاسلامي ، كأن يُقال : الديمقراطية الاسلامية ، أو ديموقراطية الاسلام ، أو الديمقراطية في الاسلام ، لأن وصفها بالاسلامية لا يخرج معانيها المقررة من الذهن ، وإنما يثبت تلك المعاني فيه ويُسدل عليها الثوب الشرعي ، وهذا لا يرضاه من آمن بالاسلام عقيدة ونظاماً .

ومن الشبهات التي جعلت العقائد ومن هم على شاكلته يقولون بالديموقراطية في الاسلام : أن الاسلام قرّر الشورى ، ونص على أن الحاكم ينتخب من قبل الأمة ، وأن الاسلام أعطى لكل فرد حق مناقشة رئيس الدولة ومحاسبته .

(١) انظر حكم الاسلام في الاشتراكية : ص ١٣٦ - ١٣٩

ولكن الاسلام نظام كامل للحياة ، متميز عن غيره ، ولن يلحق به نظام وضعي ، ولم يسبقه قانون بشري ، في حسن معالجاته لمشكلات الحياة . وتنظيم علاقات المجتمع ، بل عجزت وتعجز المبادئ الوضعية ، والنظم البشرية عن اللحق به ، وتقف أمامه حائرة مبهورة ، الى جانب شموخه وعلوه ، كما تقف الاقزام ناظرة الى قمم الجبال وشوانحها . لذلك يجب على كل مسلم ، اعتنق عقيدة الاسلام وآمن بنظامه ، أن يدعو الى الاسلام وحده ، وهو الكفيل بسعادة الأمة ورقيتها ، ويسمي أنظمتها باسمها ، وليحذر من التقليد أو التأويل ، لأنه من أفضع الأساليب ، وأخبث الطرق التي تخرج المسلم عن دينه ، من غير أن يشعر أو يريد ، وليجعل إسلامه متبوعاً لا تابعاً ، وليدُرْ مع الاسلام حيث دار (١) .

وبهذا يتبين للقارئ خطأ هذه التسمية التي جعلها العقائد موجودة في الاسلام . فليس في الاسلام اشتراكية ولا ديموقراطية ولا حرية بالمعنى الذي يريده المنحرفون الضالون عبادة كل ما هو غربي أو ماركسي ؛ ولن يُعْلَى هؤلاء من شأن الاسلام إذا جعلوا فيه اشتراكية أو ديموقراطية ، والعكس هو الصحيح ؛ فإن إصاق هذه التسميات والمصطلحات الكافرة الوضعية به خطر شديد عليه وعلى معتنقيه .

وسادس هذه الكتب كتاب « تجديد الفكر العربي » للدكتور زكي نجيب محمود .

وفي تقديم هذا الكتاب يذكر المؤلف أنه لم تكن قد اتيحت له في معظم أحواله الماضية فرصة طويلة الأمد ، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل ، فهو واحد من آلاف المثقفين العرب ، الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي - قديم أو جديد - حتى سبقت الى خواطرهم ظنون بأن

(١) أنظر المرجع السابق ، ص ١٤٥ وما بعدها ،

ذلك هو الفكر الانساني الذي لا فكر سواه ، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه ؛ ولبثت هذه الحال معه أعواماً بعد أعوام : الفكر الاوروبي في دراسته وهو طالب ، والفكر الاوروبي في تدريسه وهو أستاذ ، والفكر الاوروبي في مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ ؛ وكانت أسماء الاعلام والمذاهب في التراث العربي لا تهيئه الا أصداء مفككة متناثرة ، كالأشباح الغامضة يلوحها وهي طافية على أسطر الكاتبين .

ثم أخذته في أعوامه الأخيرة صحوة قلقة ؛ فلقد فوجيء وهو في أنضج سنيته ، بأن مشكلة المشكلات في حياتنا الثقافية الراهنة ، ليست هي : كم أخذنا من ثقافات الغرب وكم ينبغي لنا أن نزيد ، إذ لو كان الامر كذلك لكان ، فما علينا عندئذ إلا أن نضاعف من سرعة المطابع ، ونزيد من عدد المترجمين ، فإذا الثقافات الغربية قد رُصّت على رفوفنا بالالوف بعد أن كانت تُرصّ بالمئين ؛ لكن لا ، ليست هذه هي المشكلة ، وإنما المشكلة على الحقيقة هي : كيف نوائم بين ذلك الفكر الوافد الذي بغيره يفلت منا عصرنا أو نفلت منه ، وبين تراثنا الذي بغيره تفلت منا عروبتنا أو نفلت منها ؟ إنه لمحال أن يكون الطريق الى هذه المواءمة هو أن نضع المنقول والاصيل في تجاور ، بحيث نشير بأصابعنا الى رفوفنا فنقول : هذا هو شيكسبير قائم الى جوار أبي العلاء ؛ فكيف اذن يكون الطريق ؟ .

استيقظ صاحب الكتاب بعد أن فات أوانه أو أوشك ، فإذا هو يحس الحيرة تؤزّزقه ، فطفق في بضعة الاعوام الاخيرة ، التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية ، يزدرد تراث آباءه ازدراد العجلان . كأنه سائح مرّ بمدينة باريس ، وليس بين يديه الا يومان ، ولا بد له خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ؛ هكذا أخذ صاحبنا - وما يزال - يعبّ صحائف التراث عبثاً سريعاً ، والسؤال ملء سمعه وبصره : كيف السبيل

الى ثقافة موحدة متسقة يعيشها مثقف حيّ في عصرنا هذا ، بحيث يندمج فيها المنقول والاصيل في نظرة واحدة (١) ؟ .

ويقول المؤلف : « هكذا تعاورني أمل ويأس ، وذلك لانني لم أقع على المفتاح الذي أفتح به الابواب المغلقة ، بل كثيراً ما شككت بأن يكون السؤال المطروح نفسه سؤالاً غير مشروع ، وأن علة الحيرة كلها والاضطراب كله ، هي أننا نسأل سؤالاً هو بطبيعته لا يحتمل الجواب ؟ وفجأة وجدت المفتاح الذي أهتدي به ، ولقد وجدت في عبارة قرأتها نقلاً عن هربرت ريد ، إذ وجدته يقول : « إنني لعلّ علم بأن هناك شيئاً اسمه « التراث » ، ولكن قيمته عندي هي في كونه مجموعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة الى ما استحدثناه من طرائق جديدة ؟ ... أقول إنني وجدت في هذه العبارة مفتاحاً للموقف كله ؟ فماذا عسانا أن نأخذ من ثراث الاقدمين ؟ الجواب هو : نأخذ من ثراث الاقدمين ما نستطيع تطبيقه اليوم تطبيقاً عملياً ، فيضاف الى الطرائق الجديدة المستحدثة ؛ فكل طريقة للعمل اصطنعها الاقدمون وجاءت طريقة جديدة أنجح منها ، كان لا بد من اطراح الطريقة القديمة ووضعها على رف الماضي الذي لا يُعنى به إلا المؤرخون ؛ بعبارة أخرى ؛ إن الثقافة - ثقافة الاقدمين أو المعاصرين - طرائق عيش ، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن ، أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحياه من التراث ، وأما ما لا ينفع نفعاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين ، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرينا من أبناء أوروبا وأمريكا » (٢) .

(١) تجديد الفكر العربي ، تقديم ، ص ٥ وما بعدها .

(٢) تجديد الفكر العربي - ص ١٦ - ١٨

والواقع أن الذي حكاه الدكتور زكي نجيب محمود مأساة يعيشها جمهرة المثقفين العرب المسلمين . وواقع هذه المأساة تتمثل في أن الغرب الصليبي الكافر قد فرض على الأمة الإسلامية ومنها الشعب العربي - أفكاره الرأسمالية ومقاييسه في الحياة وأنظمته وثقافته منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا . وكان يستعين على تثبيت أفكاره وأنظمته وثقافته بجيوش المبشرين والمستشرقين أولاً ، وبجيوشه وقوات احتلاله ثانياً . والكل يعلم أن الجيش البريطاني احتل مصر ١٨٨٢ م ولم يخرج منها إلا سنة ١٩٥٤ م . وقس على مصر سائر بلاد المسلمين . وقد وصل المسلمون منذ القرن التاسع عشر الى درجة عظيمة من الجهل بالإسلام حتى النفي مصطفى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية في استانبول في سنة ١٩٢٤ م ولم يتحرك المسلمون تحركاً يستحق الذكر نظراً لجهلهم بالإسلام وانحطاطهم الفكري . وبعد أن اطمأن الكافر المستعمر الى حكام من المسلمين يحرسون أفكاره وأنظمته ومقاييسه في الحياة وثقافته خرج بجيوشه قبل سنوات معدودات .

وقد فتح المسلمون عيونهم منذ أكثر من نصف قرن على النظام الرأسمالي في بلادهم تحميه حراب الكفار ، ونظراً لجهلهم بالإسلام الذي حسبه شعائر وعبادات تؤدي وحسب صار كثير منهم وبخاصة المثقفين - مضبوعين بالثقافة الغربية . وظنوا أن هذه الثقافة والفكر الذي ترتبط به هذه الثقافة هي الثقافة الصحيحة الراقية وهو الفكر القويم ولذلك نرى الآلاف من أبناء المسلمين ومنهم الدكتور زكي نجيب محمود لا يحتاج لهم في معظم الأحوال التعرف على الأفكار الإسلامية والثقافة الإسلامية المرتبطة بهذه الأفكار . والمسلم المثقف يعيش منذ سنوات أزمة حادة بدون شك . فهو لا يعرف شيئاً عن الإسلام يستحق الذكر . وكيف يكون ذلك والمدارس والجامعات في بلاد الإسلام ومنها البلاد العربية تسير حسب مخططات وضعها المبشرون والمستشرقون الكفار .

المثقف المسلم لا يعرف عن الاسلام في المدارس والجامعات إلا شعائر وعبادات ، ولا يعرف عن تاريخ المسلمين الا قدراً باهتاً يُنفره من هذا التاريخ أحياناً . فحرب صفين بين علي ومعاوية تقدم له بصورة مشوهة ، فيستقر في ذهنه أن تاريخ المسلمين صراع بين القادة وذبح وقتل .

وهرون الرشيد لا يتصوره الا من خلال قصص ألف ليلة وليلة . والسلطان عبد الحميد 'صوّر له أنه زيرُ نساء في قصر يلذر . وهكذا 'شوه تاريخنا تشويهاً فيه حقد شديد على الاسلام والمسلمين . ومن يرد تعرّف الحقيقة من مصادرها الصحيحة يجد أن أمير المؤمنين هرون الرشيد كان يحج عاماً وينزو عاماً ويصلي في الليلة مائة ركعة . هكذا يقول الطبري . والسلطان عبد الحميد كان مخلصاً للإسلام والمسلمين ، ولكن الماسونية التي تخدم اليهودية العالمية هي التي عزلته عن الخلافة وشوهت تاريخه . ويكفي أن يعلم القارئ أن الذي قرأ قرار العزل على السلطان عبد الحميد هو عما نويل قراصوه اليهودي الماسوني نائب سلايك .

أما المثقف الغربي فإنه يعيش حياة فكرية وثقافية هي من صنع آبائه وأجداده . ومع ذلك فإنه الآن يكتوي بنارها ، فتجد الانتحار والآلاف من اللقطاء والهيبيين . أي أن هذا الفكر وهذه الثقافة كانت وبالأعلى عليه .

أما الماركسي المثقف فإنه يعيش حياة فكرية وثقافية مفروضة عليه بالحديد والنار من قبل حزب يُسمى الحزب الشيوعي ، فإذا صاح أو ترمد فيكون مصيره مصير بلاد المجر وتشيكوسلوفاكيا .

وهناك فرق بين العلم والفكر . فالعلم عام وواحد في كل بلاد العالم . فدرجة غليان الماء في موسكو مثلاً هي درجة غليان الماء في نيويورك . ولكن الفكر والنظام والثقافة في موسكو هي غير الفكر والنظام والثقافة في نيويورك .

والمثقف الغربي أول ما يتثقف بثقافته الغربية التي هي عبارة عن معارف

وفنون ترتبط بأفكاره الرأسمالية التي تقوم على فصل الدين عن الحياة .

والمتقف الشيوعي أول ما يتثقف بثقافته الشيوعية التي هي عبارة عن معارف وفنون ترتبط بأفكاره الشيوعية « الماركسية اللينينية » التي تقوم على مادية الكون وحسب . أي أن هذا الكون ليس له خالق ، وبالتالي فإن المادة هي التي تفرض الفكر . ولا تسمح الدولة هناك بتسرب أية أفكار أو ثقافات إلى البلاد التي يهيمن عليها النظام الشيوعي .

أما المثقف المسلم ومنه العربي فإنه أول ما يتثقف بثقافة غربية وبثقافة إسلامية باهتة وضعها له المستعمرون ولا يزال يعمل بها نوابه وحراسه على أفكاره وثقافته من أبناء المسلمين . أليس عجيباً أن يقضي الدكتور زكي نجيب محمود ، ومثله الآلاف المؤلف من أبناء المسلمين ، معظم سني حياته منشغلاً بدراسة الفكر الغربي والمنطق الوضعي والثقافة الغربية ، ويأتي في أواخر حياته ليفتح عينيه على صفحات من تراثنا وفكرنا ؟! أليس هذا عقوقاً وإهمالاً لتراثنا وفكرنا ؟! أليس حراماً أن يقضي معظم عمره بعيداً عن تراث أمته ، ثم يأتي في أواخر حياته ليزدرد تراث آبائه أزدرد العجلان كأنه سائح مرّ بمدينة باريس ، وليس بين يديه إلا يومان ، ولا بُدّ له خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر ، فراح يعدو من غرفة الى غرفة ، يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ، ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل ؟! وأحسّ أن الدكتور زكي نجيب محمود تحول عنده التراث الاسلامي الى شيء كالي مثل زيارة متحف اللوفر في باريس . يا للفجيعة !

ومن الطبيعي أن ينظر الدكتور زكي نجيب محمود الى تراث أمته بعقلية غربية وبذوق غربي لأنه أسس على ذلك . وعندما يجد المفتاح الذي يفتح به الأبواب المغلقة لا يجده إلا في عبارة قرأها نقلاً عن هربرت ريد ، ورأى الدكتور أن ثقافة الأقدمين أو المعاصرين طرائق عيش ، فإذا كان عند أسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي

نحييه من التراث ، وأما ما لا ينفع فعلاً عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين، وكذلك نقف الوقفة نفسها بالنسبة الى ثقافة معاصرنا من أبناء أوروبا وأمريكا .

والواقع ان المفتاح الذي وجده الدكتور زكي نجيب محمود مفتاح غير مناسب وغير دقيق . لأنه يلتبس عنده العلم بالفكر والثقافة . والمسلمون خلفوا لنا أفكاراً وثقافة . فالفكر الاسلامي يتمثل في الفقه وعلم الكلام . والثقافة الاسلامية تتمثل في جميع المعارف التي تدور حول الاسلام وتشتمل على اللغة العربية بكل علومها والدراسات القرآنية والحديثية وقاريخ المسلمين ومباحث علم الكلام وغير ذلك . وخلف لنا الأقدمون حضارة ترتبط بالاسلام . وهذه كلها لا يجوز لأي مسلم أن يترك شيئاً منها لأنها جميعها ترتبط بالاسلام . أما أخطاء المعتزلة في منهجهم عندما انتفعوا بالثقافة اليونانية فلا بأس بالتغلي عنها لأنها تحمل عروفاً وثنية كقولهم : يجب على الله ألا يفعل إلا الأصلح . وما عدا ذلك فهي ثقافة إسلامية يجب على كل مسلم التمسك بها لأنها أساس في شخصيته . ويجب على كل مسلم ان يبدأ بها فيثقف بها أولاً ، ثم يدرس الثقافات الأجنبية لينتفع بها إنتفاعاً خاضعاً لأفكاره وثقافته .

أما العلم الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتاج فإن الاسلام يبيح أخذه عن جميع الشعوب إلا إذا كان مخالفاً للاسلام مثل فن النحت والتماثيل .

ونحن لا نقول بأن يتمسك المسلم بالمحراث ويترك التراكتور ، ولا نقول بأن يتمسك المسلم بالجل والحصان ويترك الطائرة والدبابة ، لأن هذه كلها نتجت عن علم ، ويجوز للأمة الاسلامية ان تأخذها عن أي شعب أو أمة ولا أثر لها على عقيدتها وثقافتها . فالمسلم يبقى مسلماً عندما يركب الطائرة ، والشيعي يبقى شيعياً عندما يركب الطائرة أو غيرها . إن لينين عندما نقل الفكر الماركسي كتبه باللغة الروسية القيصرية مع أنه قام بتحطيم الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي كانت في العهد القيصري .

وأنا لا أفهم ماذا يعنيه الدكتور زكي نجيب محمود بعنوان كتابه « تجديد الفكر العربي » . أي فكر عربي ؟ هل هو تقاليد الجاهليين وعاداتهم ؟ أم أنه الفكر الاسلامي . وإذا كان القرآن نزل بلغة الضاد فلا يعني أنه صار فكراً عربياً ، وإذا كانت الثقافة الإسلامية كتبت بالعربية فلأن هذه اللغة هي لغة القرآن ، والعرب هم سورُ الإسلام وسياجه ، وهم الذين نشره إلى أهل الأرض . وإذا كان يعني بالفكر العربي الاشتراكية العربية أو الإسلامية ، فإننا بيننا أن العرب لم يعرفوا الاشتراكية في جاهليتهم ، وبئسنا أن الإسلام نظام متكامل قائم برأسه ليس فيه اشتراكية ولا ديموقراطية .

وهكذا يتبين لك أيها القارئ الاضطراب وغموض الرؤية التي وقع فيها الدكتور زكي نجيب محمود . وإذا كان الشيخ محمد عبده هو الرائد في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية في إنتاجه في تفسير القرآن الكريم ، فإن الدكتور زكي نجيب محمود حذا حذوه في ميدان الفكر في التوفيق بين تراث المسلمين وبين ثقافة الغرب الرأسمالي .

هذه هي الكتب التي قدمتها للقارئ ، على سبيل المثال لا الحصر ، سلك فيها أصحابها مسلك محمد عبده في نزعه التي تقوم على تحكيم العقل والعلمانية في فهم القرآن وعلى التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية . وفي هذه الكتب نجد مؤلفيها يتخذون محمد عبده إماماً لهم في فهم القرآن والفكر الإسلامي وأنظمتهم وثقافتهم . ونجد أن محمد عبده هو الذي فتح الباب على مصراعيه لهؤلاء وغيرهم ، وإن كنا نعلم أن بعضهم كان مخلصاً حسن النية .

ويعلم الله أنا لم نرد التشهير أو الطعن الشخصي في أحد منهم . ولكن هذا الاسلام وثقافته وأفكاره ليست ملكاً لأحد منهم يقول فيها ما يشاء . وأنا أعلم أن منهم من هو في ذمة الله ، ومنهم من ينتظر أجله . وأنا أعرف

الحديث الذي يقول (اذكروا محاسن موتاكم) . فمحمد عبده وجمال الدين الايراني المتأفغن مثلاً قد ذكرت كل أعمالهما وأقوالهما على أنها محاسن . وأنا الآن أقوم بتنفيذ ما يريده الحديث (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) . صدق رسول الله . وأنا أعلم أن كثيراً من الجهلة من المسلمين يربطون الاسلام بالعلماء . فالاسلام يمثله القرآن والرسول محمد ﷺ فقط وليس جمال الدين ولا محمد عبده ممثلين للإسلام ولا غيرهما . والاسلام بخير ، ما دام الانسان يحب الحق ويرفض الباطل ويلفظه . وإذا سيطر الباطل لا سمح الله ، فإن الله غني عن العالمين .

الفصل الثالث

اتجاه علمي

كان الغرض الأول من تفسير القرآن عند قدماء المفسرين تبين 'مراد الله تعالى في العقيدة والأحكام الشرعية المنبثقة عنها . وعندما نشأت الفرق الإسلامية أمسى الغرض الأول من تفسير القرآن عند أصحاب الفرق التماس مسوغات لمذاهبهم ودعمها وتثبيتها .

ولو أراد باحث أن يتتبع بدايات نزعة التفسير العلمي ومسيرتها عبر القرون التي فسر المسلمون فيها كتاب الله تعالى لوجد أن هذه النزعة تمتد من العصر العباسي الذهبي إلى أيامنا ومن الطبيعي أن تكون بداية هذه النزعة العلمية على شكل محاولات للتوفيق بين الإسلام وبين ما ترجم من ثقافات أجنبية وما استحدثت من علوم في البيئة الإسلامية ، حتى صارت هذه النزعة قوية ومعلنة في القرن الخامس الهجري وما تلاه ، إلى أن صارت هذه النزعة ضخمة غالبة في أواخر القرن التاسع عشر وإلى أيامنا بفعل تخلف المسلمين في الناحية العلمية والصناعية ، وتقدم الغرب وتفوقه .

وقد رشح لبروز هذه النزعة وانبعاسها أكثر من عامل ؛ فالمسلمون عندما نظروا في كتاب الله وجدوا أن هذا القرآن تكفل لهم السعادة في

الدارين ؛ الدنيا والآخرة . وعندما وصف الله تعالى الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس فلا بد أن تكون هذه الخيرية منسجمة على كل شيء .
فهذا محمد بن عبّان البُسْتِي من كبار رجال الحديث في القرن الرابع الهجري يعدّ الأمصار والأصقاع التي تشملها عمارة الإسلام ، ويذكر المحدثين في كل مصر وصقع يقرّر أن ما وراء هذه الأصقاع من المدن يسكنها غير أولي الأحلام (١) .

وكل من ينظر في القرآن الكريم ويطّلع عليه يجد مئات الآيات التي تشير إلى الكون والإنسان والحياة ، ويجد الآيات الكثيرة التي تحضّ الإنسان على التدبّر والتفكير .

يقول الله تعالى : (... ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) (٢) .

ويقول تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبّروا آياته وليتذكروا أولوا الألباب) (٣) .

وآيات القرآن الكريم تقرّر أن علم الإنسان بدأ بما علّمه له الله سبحانه وتعالى ، إذ علّم آدم أول البشر الأسماء كلها بنصّ الآيات الشريفة (وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة ... الآية) (٤) .

وكذلك ما وصلت إليه الحيوانات والطيور والحشرات من علم فإنما ذلك وحي الله سبحانه وتعالى ، وذلك بنصّ الآيات الشريفة : (وأوحى ربّك إلى النحل أن اتّخذِي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرّشون) (٥) .

(١) كتاب مشاهير علماء الأمصار - المقدمة : ص ١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٨ .

(٣) سورة ص ، الآية ٢٩ .

(٤) سورة البقرة ، الآيات ٣١ - ٣٣ .

(٥) سورة النحل ، الآية ٦٨ .

والتفسير العلمي : هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها .

وفي الصفحات التالية نقوم بدراسة هذه النزعة أو هذا الاتجاه من نشأته البسيطة إلى واقعه الذي يُبلغ إلحاحاً في العصر الحديث ، ثم موقف بعض العلماء السابقين منه وموقف بعض العلماء المحدثين منه ، ثم موقفنا نحن منه .

جذور قديمة للاتجاه العلمي في التفسير

يظهر للباحث أن الإمام الغزالي أكثر من عمل على ترويض التفسير العلمي في الأوساط العلمية الإسلامية ، على رغم ما قرّر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن وشرحها . والإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة « ٥٠٥ هـ » من سادات الصوفية الذين يرون أن لكل كلمة في القرآن ظاهر وباطن و«حد» ومطلع كما جاء في الحديث .

وإذا ما تصفّح المرء كتاب الإحياء للغزالي يجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل ، يقول : وقد قال عليه السلام : (مَنْ فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) . وعلى هذا شنّع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين ، وذهبوا إلى أنه كفر ... بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم . وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف ، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن و«حد» ومطلع ...

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَدَبَّرِ الْقُرْآنَ ، وَذَلِكَ لَا يَحْصُلُ بِمَجْرَدِ تَفْسِيرِهِ الظَّاهِرِ . وَبِالْجُمْلَةِ ، فَالْعُلُومُ كُلُّهَا دَاخِلَةٌ فِي أَعْمَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَصِفَاتِهِ ، وَفِي الْقُرْآنِ شَرْحُ ذَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهَذِهِ الْعُلُومُ لَا نِهَايَةَ لَهَا ، وَفِي الْقُرْآنِ إِشَارَةٌ إِلَى مُجَامِعِهَا ، وَالْمَقَامَاتِ فِي التَّعَمُّقِ فِي تَفْصِيلِهِ رَاجِعٌ إِلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ ، وَبِمَجْرَدِ ظَاهِرِ التَّفْسِيرِ لَا يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ ، بَلْ كُلُّ مَا أَشْكَلَ فِيهِ عَلَى النَّظَّارِ ، وَاخْتَلَفَ فِيهِ الْخَلَائِقُ فِي النِّظَرِيَّاتِ وَالْمَعْقُولَاتِ ، فَفِي الْقُرْآنِ إِلَيْهِ رَمُوزٌ وَدَلَالَاتٌ عَلَيْهِ يُخْتَصُّ أَهْلُ الْفَهْمِ بِدَرْكِهَا . وَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ : مَنْ فَهَمَ الْقُرْآنَ فَشَرِبَ بِهِ جَمَلَ الْعِلْمِ ، أَشَارَ بِهِ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ يُشِيرُ إِلَى مُجَامِعِ الْعُلُومِ كُلِّهَا ^(١) .

وَيَبَيِّنُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِهِ « جَوَاهِرُ الْقُرْآنِ » الَّذِي أَلْفَهُ بَعْدَ إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ ، يَبَيِّنُ وَيَفْصِّلُ مَا قَرَّرَهُ فِي كِتَابِ الْإِحْيَاءِ ، فَيَعْقِدُ الْفَصْلَ الرَّابِعَ مِنْهُ لِكَيْفِيَّةِ انْشِعَابِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنَ الْقُرْآنِ عَنْ تَقْسِيمَاتٍ وَتَفْصِيلَاتٍ تَوَلَّاهَا . وَقَدْ قَسَمَ عُلُومَ الْقُرْآنِ إِلَى قَسْمَيْنِ :

الْأَوَّلُ : عِلْمُ الْقُشْرِ وَالصَّدْفِ ، وَيَنْشَعِبُ مِنْ أَلْفَاظِهِ : عِلْمُ اللَّفْظِ ، وَعِلْمُ النُّعُو ، وَعِلْمُ الْقِرَاءَاتِ ، وَعِلْمُ مَخَارِجِ الْحُرُوفِ ، وَعِلْمُ التَّفْسِيرِ الظَّاهِرِ .

وَالثَّانِي : عُلُومُ اللَّثَبَابِ ، وَتَشْتَمِلُ عَلَى : مَعْرِفَةِ قِصَصِ الْقُرْآنِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَعِلْمُ الْكَلَامِ ، وَعِلْمُ الْفَقْهِ ، وَعِلْمُ أُصُولِ الْفَقْهِ ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْعِلْمُ بِالْصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَطَرِيقِ السَّلُوكِ . فَهَذِهِ هِيَ مُجَامِعُ الْعِلْمِ الَّتِي تَنْشَعِبُ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَرَاتِبُهَا ^(٢) .

ثُمَّ يَعْقِدُ الْفَصْلَ الْخَامِسَ مِنْهُ لِكَيْفِيَّةِ انْشِعَابِ سَائِرِ الْعُلُومِ مِنَ الْقُرْآنِ ، فَيَذْكُرُ عِلْمَ الطَّبِّ وَالنَّجُومِ ، وَهَيْئَةَ الْعَالَمِ ، وَهَيْئَةَ بَدَنِ الْحَيَوَانِ ، وَتَشْرِيحَ

(١) إحياء علوم الدين : ٢٦٠/١ وما بعدها .

(٢) جواهر القرآن ص ٢١ - ٢٦ .

أعضائه ، وعلم السحر ، وعلم الطلسمات وغير ذلك ثم يقول : « فاعلم أنا إنما أشرنا الى العلوم الدينية التي لا بُدَّ من وجود أصلها في العالم ، حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه . أمّا هذه العلوم التي أشرتُ إليها فهي علوم ، ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد ، فلذلك لم نذكرها . ووراء ما عدته علوم أخرى يُعلم تراجعها ولا يخلو العالم عنَّ يعرفها ، ولا حاجة الى ذكرها ، بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتارى فيها أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج من الوجود ، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها ، وعلومٌ كانت قد خرجت الى الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلوم آخر ليس من قوة البشر أصلاً إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين ، فإن الإمكان في حق الآدمي محدود ، والإمكان في حق الملك محدود ، الى غاية في الكمال بالإضافة ، كما أنه في حق البهيمة محدود الى غاية من النقصان ، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم في حقه ، ويفارق علمنا علم الحق في شئين : أحدهما : انتفاء النهاية عنه ، والآخر : أن العلوم ليست في حقه بالقوة والإمكان الذي يُنتظر خروجه بالوجود ، بل هو بالوجود والحضور ، فكلُّ ممكن في حقه من الكمال فهو حاضر وموجود » (١) .

ثم يقول أبو حامد الغزالي : « ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعدّها ، ليست أوائلها خارجة عن القرآن ، فإن جميعها مفترقة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلاً — الشفاء والمرض ، كما قال تعالى حكايةً عن إبراهيم : (وإذا

(١) المرجع السابق : ص ٢٨ وما بعدها .

مرضتُ فهو يشفينِ) . وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطبَّ بكماله ، إذ لا معنى للطبَّ إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه . ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلها بحسبان ، وقد قال الله تعالى : (الشمسُ والقمر بحسبان) ، وقال (وقدرة منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) وقال (... وخسف القمر ، وجُمِعَ الشمسُ والقمر) وقال (يُولجُ الليل في النهار ويُولجُ النهار في الليل) وقال (والشمس تجري لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم) ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفها وولوج الليل في النهار ، وكيفية تكوُّر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض ، وهو علم قائم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله (يأياها الإنسانُ ما غرَّك ربُّك الكريم ، الذي خلقك فسوَّأك فعدلك ، في أيِّ صورةٍ ما شاء ركبك) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمها ومنافعها . وقد أشار في القرآن في مواضع إليها ، وهي من علوم الأولين والآخرين ، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين . وكذلك لا يعرف كمال معنى قوله (سوَّيتُهُ ونفختُ فيه من روحي) ما لم يعلم التسوية ، والنفخ ، والروح . ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق ، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها . ولو ذهبت أفصلُ ما تدلُّ عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها . وقد أشرنا إليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى أفعاله ، فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل ، وكذلك كل قسم أجملناه لو شُعب لانشعب إلى تفاصيل كثيرة . فتفكَّر في القرآن والشمس غرائب لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين وجملة أوائله . وإنما التفكَّر فيه للتوصل من جملة إلى تفصيله وهو البحر الذي لا شاطئ له ، (١)

(١) جواهر القرآن : ص ٢٩ وما بعدها .

الفخر الرازي والتفسير العلمي

وإذا كان الغزالي قد روج للتفسير العلمي في الأوساط العلمية وكيف انشعبت بعض العلوم من القرآن . وبمعنى آخر إذا كان الغزالي وضع الأسس النظرية للتفسير العلمي للقرآن الكريم ، فإن الفخر الرازي صاحب مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير المتوفى سنة (٦٠٦ هـ) قد طبق كل ما استحدثته البيئة الإسلامية من ثقافة علمية وفكرية على آيات القرآن الكريم ، حتى قال بعض العلماء فيه : « لقد قال الفخر الرازي كل شيء في تفسيره إلا التفسير » (١) .

ومن الأمثلة على ذلك قول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كُلِّي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس إن في ذلك لآيةٌ لقومٍ يتفكرون) (٢) : « إعلم أنه تعالى لما بيّن أن إخراج الألبان من النعم وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاهرة وبيّنات باهرة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع وبرهان ساطع على إثبات هذا المقصود ، وفي الآية مسائل : (المسألة الأولى) قوله (وأوحى ربك إلى النحل) يُقال وحي وأوحى ، وهو الإلهام ، والمراد من الإلهام أنه تعالى قرّر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي تعجز عنها العقلاء من البشر وبيّنه من وجوه : (الأول) أنها تبني البيوت المسدّسة من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرّد طباعها ، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطر والفرجار . (والثاني) أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكّلة بأشكالٍ

(١) البحر المحيط ، لأبي حيان الأندلسي : ٣٤١/١ .

(٢) سورة النحل ، الآيتان ٦٨ ، ٦٩ .

سوى المسدّسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت 'فرج' خالية ضائعة ،
أما إذا كانت تلك البيوت مسدّسة فإنه لا يبقى فيما بينها 'فرج' ضائعة ،
فإهداء ذلك الحيوان الضعيف الى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من
الأعاجيب .

(والثالث) أن النحل يحصل فيما بينها واحدٌ يكون كالرئيس للبقية ،
وذلك الواحد يكون أعظم 'جثّة' من الباقي ، ويكون نافذ الحكم على تلك
البقية ، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران ، وذلك أيضاً من الأعاجيب

(والرابع) أنها إذا نفرت من وكرها ذهبت مع الجمعية الى موضع
آخر فإذا أرادوا عودها الى وكرها ضربوا الطنبور والملاهي وآلات الموسيقى ،
وبواسطة تلك الألحان يقدرّون على ردها الى وكرها ، وهذا أيضاً حالة
عجيبة . فلما امتاز هذا الحيوان بهذه الخواص العجيبة الدالة على مزيد الذكاء
والكياسة ، وكان حصول هذه الأنواع من الكياسة ليس إلا على سبيل
الإلهام ، وهي حالة شبيهة بالوحي لا جرم قال تعالى في حقها (وأوحى
ربك الى النحل) . واعلم أن الوحي قد ورد في حق الأنبياء لقوله تعالى
(وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) وفي حق الأولياء أيضاً ، قال
تعالى (وإذا أوحيت الى الخواصين) وبمعنى الإلهام في حق البشر ، قال
تعالى (وأوحينا الى أم موسى) وفي حق سائر الحيوانات كما في قوله
(وأوحى ربك الى النحل) . ولكل واحدٍ من هذه الأقسام معنى خاص
والله أعلم ، (١) .

البيضاوي والتفسير العلمي

سرت الى البيضاوي قاضي القضاة المتوفى سنة (٦٩١ هـ) صاحب

(١) مفاتيح الغيب : ٤٨٥/٥ وما بعدها .

التفسير المعروف بـ « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » سرت إليه أو تساقطت إليه نزعة علمية في تفسير القرآن الكريم ^(١) . وذلك لأنه استمد تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازي . واختصر تفسيره من الكشف للزنجشيري ولكنه ترك ما فيه من اعتراضات . وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم .

نظام الدين القسّمي النيسابوري والتفسير العالمي

إذا مرّ النيسابوري المعروف بالنظام الأعرج صاحب التفسير المعروف بـ « غرائب القرآن و رغائب الفرقان » المتوفى سنة (٧٢٨ هـ) إذا مرّ على آية من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الكون فإنه يخوض في أسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة . وتساقطت إليه هذه النزعة العلمية بسبب عاملين: الأول : التفسير الكبير للفخر الرازي ، الذي اختصر تفسيره منه ، والثاني: قدرته على تأويل الآيات بلسان أهل الحقيقة ومتفلسفة الصوفية الذين يرون أن لكل لفظة في القرآن ظهراً واحداً مطلقاً .

ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (واتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ الآية) ^(٢) « ثم السحر على أقسام : منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر ، وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبّرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة ، ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية ، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مُبْطِلًا لِمَقَالَتِهِمْ وَرَادًّا عَلَيْهِمْ مَذَاهِبَهُمْ . ومنها سحر أصحاب الأوهام والنفوس

(١) انظر مثلاً أنوار التنزيل وأسرار التأويل : ص ٥٨٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٢ .

القوية ، بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشي عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر ، وما ذاك إلا لأن تخيُّل السقوط متى قوي أوجبه . وقد اجتمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحُر ، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللعمان أو الدوران ، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعةً للأوهام . وحكي في الشفاء عن أرسطو أن الدجاجة إذا تشبَّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك . وهذا يدلُّ على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية . واجتمعت الأمم على أن الدعاء مظنة الإجابة ، وأن الدعاء باللسان من غير طلبِ نفسانيٍّ قليل الأثر .

ويحكى أن بعض الملوك عرَّضَ له فالجٌ ، فدخل عليه بعض الخُذَّاق من الأطباء على حين غفلة منه ، وشافه بالشتِّم والقدح في العرض ، فاشتدَّ غضبُ الملك ، وقفز من مرقده قفزة اضطرارية ، وزالت تلك العلة المزمنة (١) .

الزركشي والتفسير العلمي

إن الذي يتصفَّح كتاب « البرهان في علوم القرآن » يجد صاحبه الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة (٧٩٤ هـ) يحده في الجزء الثاني من الكتاب يعقد فصلاً في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم . وفي هذا الفصل نراه يقول بالتفسير العلمي ، فينقل أقوال بعض الصحابة رضي الله عنهم ، وكذلك ينقل أقوال الإمام الغزالي التي ذكرها في إحياء علوم الدين ، يقول الزركشي : « كتاب الله بحره عميق ، وفهمه دقيق ، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم ، وعامل الله بتقواه في السرِّ

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان : ٣٨٧/١ وما بعدها .

والعلانية ، وأجلته عند مواقف الشبهات . واللطائف والحقائق لا يفهما إلا من ألقى السمع وهو شهيد ، فالعبارات للعموم وهي للسمع ، والإشارات للخصوص وهي للعقل ، واللطائف للأولياء وهي المشاهد ، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام . وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لا يفقه الرجل حتى يجعل القرآن وجوهاً . وقال ابن مسعود : من أراد علم الأولين والآخرين فليشور القرآن ، أي لينتقّر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءاته . وقال ابن سبع (أبو الربيع سليمان بن سبع السبّقي) في شفاء الصدور : « هذا الذي قاله أبو الدرداء وابن مسعود لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر » . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ، وما بقي من فهمها أكثر . وقال آخر : القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم ، إذ لكل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة ، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدث ومطلع . وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله ، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ، ومتسعاً بالغاً ، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل ، والسمع لا بد منه في ظاهر التفسير ، ليتقّي به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط ، والفرائب التي لا تفهم إلا باستماع فنون كثيرة . ولا بد من الإشارة إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ، ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً ، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، (١) .

الجلال السيوطي والتفسير العلمي

كذلك نجد جلال الدين السيوطي يتابع من سبقه من دعاة التفسير العلمي للقرآن الكريم . ونجد هذه الدعوة واضحة موسعة في كتابه الإتيقان ، وفي

(١) البرهان في علوم القرآن : ١٥٣/٢ - ١٥٥ .

كتابہ « الإكليل في استنباط التنزيل » وفي كتابہ « معترك الأقران في إعجاز القرآن » . ونرى السيوطي يُورد الآيات والأحاديث والآثار وأقوال المفسرين والعلماء ليستشهد بها على أن القرآن مشتمل على كل العلوم . وفي النوع الخامس والستين من « الإتيقان » وعنوانه « في العلوم المستنبطة من القرآن » يقول : « قال تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقال : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) . وقال ﷺ : (ستكون فتن ، قبل : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم) أخرجه الترمذي وغيره . وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال : من أراد العلم فعليه بالقرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين . قال البيهقي : يعني أصول العلم . وأخرج البيهقي عن الحسن قال : أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، ثم أودع علوم الثلاثة الفرقان . وحكى ابن سراقه في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً : ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله ، ف قيل له : فأين ذكر الخيانات فيه ؟ فقال : في قوله : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم) فهي الخيانات . وقال غيره : ما من شيء إلا يمكن استخراجُه من القرآن لمن فهمه الله ، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله في سورة المنافقين (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده ، (١) .

أبو الفضل المرسى والتفسير العلمي

وأورد صاحب الإتيقان أقوال ابن أبي الفضل المرسى في تفسيره ، يقول : « وقال ابن أبي الفضل المرسى في تفسيره : « جمع القرآن علوم الأولين

(١) الإتيقان في علوم القرآن : ١٢٥/٢ وما بعدها .

والآخرين بحيث لم يُحِط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ، ثم رسول الله ﷺ ، خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال : لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفنٍّ من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته ، وآياته ، وسوره ، وأجزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعدد سجدياته ، والتعليم عند كل عشر آيات ... إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة ، من غير تعرض لمعانيه ، ولا تدبر لما أودع فيه ، فسموا القراء . واعتنى النحاة بالمُعرب منه ، والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها ، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها ، وضروب الأفعال ، واللازم ، والمتعدي ، ورسوم خط الكلمات ، وجميع ما يتعلق به ، حتى أن بعضهم أعرب مشكلاً ، وبعضهم أعربه كلمة كلمة . واعتنى المفسرون بالفاظه ، فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الحقي منه ، وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذي المعنيين والمعاني ، وأعمل كل منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره ... ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ، فاستخرجوا منه علم المواقيت . ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ وبديع النظم وحسن السياق والمبادي والمقاطيع والمجاليص والتلوين في الخطاب والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع . ونظر فيه أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة ، فلاح لهم من ألفاظه معانٍ ودقائق جعلوا لها أعلاماً اصطلاحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف

والهيبة والأُنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك . هذه الفنون التي أخذتها المِلة الإسلامية منه . وقد احتوى على علومٍ أخرى من علوم الأوائِل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك .

أما الطبُ فمدارُه على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة ، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك في آية واحدة ، وهي قوله تعالى : (وكان بين ذلك قواما) . وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى : (شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس) ... وأما الهيئة ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات . وأما الهندسة ففي قوله تعالى (انطلقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعبٍ) .

وأما الجدلُ فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئاً كثيراً ، ومناظرة إبراهيم عليه السلام نمرود ومحاجته قومه أصلٌ في ذلك عظيم .

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكرٌ مُدَدٍ وأعوام وأيام لتواريخ أممٍ سالفة ، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة ، وتاريخ مدة أيام الدنيا ، وما مضى وما بقي مضروبٌ بعضها في بعض .. وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ،^(١)

ثم يورد قول ابن سُرَاقَة في إعجاز القرآن ، يقول : « وقال ابن سُرَاقَة : « من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع

(١) الإتقان في علوم القرآن : ١٢٦/٢ - ١٢٨ ،

والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادقٌ في قوله ، وأن القرآن ليس من عنده ، إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة ،^(١) .

ويورد قول الراغب الأصفهاني ، يقول : وقال الراغب : « إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبوّة محمد ﷺ مختمة وشرائعهم من وجهه منتسخة ومن وجهه مكتملة متممة ، جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لشجرة كتبه التي أولاها أولئك كما نبّه عليه بقوله (... يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتبٌ قيمة) ، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمنٌ للمعنى الجَمِّ بحيث تقصر الأبواب البشرية عن إحصائه ، والآلات الدنيوية عن استيفائه ، كما نبّه عليه بقوله (ولو أنما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمُدُّه من بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلماتُ الله إن الله عزيزٌ حكيم) ،^(٢) .

ويذكر عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه « قانون التأويل » : « علوم القرآن خمسون علماً ، وأربعمئة علم ، وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة ؛ إذ لكل كلمة ظهر وبطن واحدٌ ومطلع . وهذا مطلق دون اعتبار التركيب ، وما بينها من روابط ، وهذا ما لا يحصى ، وما لا يعلمه إلا الله ،^(٣) .

ويعتقب الجلال السيوطي على هذه الأقوال وغيرها ، فيقول : « وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء . أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدلُّ عليها ، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض ، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى ... إلى

(١) المرجع السابق : ١٢٨/٢ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٨/٢ .

(٣) المرجع السابق : ١٢٨/٢ .

غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات ، (١) .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول إن الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم كانت له جذور قديمة وجدناها عند الفزائي والفخر الرازي والبيضاوي ونظام الدين القسّمي النيسابوري والزرکشي والجلال السيوطي وأبي الفضل المرسي وابن سُرّاقَة والراغب الأصفهاني وأبي بكر بن العربي. ولاحظنا كيف ظهرت آثار الثقافة العلمية للمسلمين وتساقت إلى تفسير القرآن الكريم ، وكيف حاول هؤلاء وغيرهم أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها، ما استحدث منها في البيئة الإسلامية وما سوف يُستحدث إلى يوم القيامة .

التفسير العلمي في العصر الحديث

ذكرنا في التمهيد أن العالم الإسلامي عاش في عزلة سياسية واقتصادية وفكرية حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي. فلم يصله عنصر واحد من العناصر المكوّنة للحضارة الغربية والمدنية الغربية التي كانت تسير بخطى سريعة في طريق التقدم فيما بين القرن السادس عشر وأواخر القرن الثامن عشر . وقلنا إن المسلمين في أوائل القرن التاسع عشر بدأوا يشعرون بالحاجة إلى الاتصال بالغرب والنقل عنه فيما يتصل بالجانب المادي الآلي لا الفكري .

ولم يكن يستهدف أصحاب هذا الشعور إلا وُضْل المسلمين بأسباب القوة لكي يكونوا أنداداً لأعدائهم . وذكرنا أن بعض المبعوثين الذين أرسلوا إلى فرنسا منذ ١٨٢٦ م « رفاعة الطهطاوي » رجعوا إلى بلادهم وهم يحملون بذوراً غربية فكرية وألقوها في التربة الإسلامية . وهنا تكمن بداية الخطر الذي يتمثل في عدم التفريق بين العلم في الغرب وبين الفكر والثقافة الغربية . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازداد وضع المسلمين العلمي سوءاً .

(١) المرجع السابق : ١٢٩/٢ وما بعدها . قارن ذلك بما جاء في معتزك الأقران في اعجاز القرآن للجلال السيوطي : ١٤/١ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ .

فالقرب يتقدم علمياً وصناعياً والمسلمون على حالهم لا يتقدمون شيئاً يذكر في ميدان العلم والصناعة . وبدأت جيوش المبشرين والمستشرقين في الزحف على العالم الإسلامي لتمهيد للجيوش المسلحة لاستعمار بلاد الإسلام فكرياً وعسكرياً واقتصادياً وسياسياً . واحتلّ الأوروبيون بعض بلاد الإسلام ، وعزموا على الإطاحة بدولة الخلافة في إستانبول مها كلفهم ذلك . في هذه الفترة بالذات بدأ المخلصون ينظرون في كتاب الله تعالى ، فعسبوا أن فيه إشارات إلى أصول العلوم . ولسان حالهم يقول : إذا كنتم أيها الغربيون تفوقتم علينا في العلم والصناعة ، فإن كتابنا « القرآن » ليس سبب تأخرنا وتخلّفنا ، بل إنه يحوي أصول العلوم . وقد كان بعض المبشرين والمستشرقين يروج لفكرة مؤدّاها أن تخلّف المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالقرآن .

ومن هنا تجد الجذور القديمة للتفسير العلمي للقرآن الظروف الملائمة للامتداد والحياة الخصبة . وتشتدّ هذه النزعة في بداية القرن العشرين ، إذ روج لها محمد عبده وغيره ترويحاً قوياً ، حتى وصل الأمر إلى تأليف تفسير في كثير من صفحاته رسوم وصور للحيوانات والنباتات .

وقد استشرى أمر هذا الاتجاه من التفسير في العصر الحديث وراج لدى بعض المثقفين المسلمين الذين يُعنون بالعلوم وبالقرآن الكريم معاً ، وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت على قلوب أصحابها ، كما يقول الأستاذ محمد حسين الذهبي ، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب ، يحاول أصحابها فيها أن يحمّلوا القرآن كل علوم الأرض والسماء ، وأن يجعلوه دالاً عليها بطريق التصريح أو التلميح اعتقاداً منهم — كما قلنا — أن هذا بيانٌ لناحية من أهم نواحي صدقه ، وإعجازه ، وصلاحيته للبقاء ^(١) .

وإذا نحن تصفحنا « روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني » لعمود

(١) انظر كتاب التفسير والمفسرون : ١٦٣/٣ .

الآلوسي المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ = ١٨٥٠ م ، وهو من كتب التفسير بالمأثور ، نراه يستطرد في تفسيره إلى الكلام في الأمور الكونية ، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة ، ويقرر ما يرتضيه ويفنّد ما لا يرتضيه . وعندي أن الآلوسي في نزعه العلمية يُعدُّ استمراراً للجذور القديمة وامتداداً لها . فلم يتساقط إلى تفسيره شيء من تأثيرات العلم الحديث ومخترعاته ونظرياته وقوانينه . وهو في نزعه العلمية متأثر بما استحدثت من علوم وما ترجم من ثقافات في البيئة الإسلامية . والذي بعثه على السير في هذا الاتجاه عاملان : الأول : كان ينقل من جملة ما ينقل عن تفسير الفخر الرازي المعروف بنزعه العلمية ، والثاني : كان ينحو في تفسيره منحى أهل كتب التفسير الإشاري .

ويوضح ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) (١) : « وقد سألت كثيراً من جُلّة المعاصرين عن التوفيق بين ما سمعتُ من الأخبار الصحيحة وبين ما يقتضي خلافها من العيان والبرهان ، فلم أوفق لأن أفوز منهم بما يروي الغليل ويُشفي العليل . والذي يخطر بالبال في حلّ ذلك الإشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال أن الشمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينسبُ عن ذلك قوله تعالى الآتي (وكلّ في فلكٍ يسبحون) حيث جيء بالفعل مسنداً إلى ضمير جميع العقلاء ، وقوله تعالى (إني رأيتُ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتُهم لي ساجدين) لنحو ما ذكر ، ويدلُّ عليه ظاهر ما روي عن أبي ذرٍّ من أنها تسجدُ وتشتأذن ، فإن المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال ، وخلق الله تعالى الإدراك والتمييز فيها حال السجود والاستئذان ، ثم سلبه عنها بما لا حاجة إلى التزامه ، بل هو بعيدٌ غاية البعد ، والشواهد من الكتاب والسنة وكلام العِترَةِ على كونها ذات إدراك وتمييز مما لا تكاد تحصى كثرة ، وبعضها يدل على ثبوت ذلك لها بالخصوص ، وبعضها يدل على

(١) سورة يس ، الآية ٣٨ .

ثبوته لها باعتبار دخولها في العموم أو بالمقايضة ، إذ لا قائل بالفرق ، ومتى كانت كذلك فلا يبعد أن يكون لها نفس "ناطقة كنفس الانسان" ، بل صرح بعض الصوفية بكونها ذات نفس ناطقة كاملة جداً ، والحكماء أثبتوا النفس للفلك ، وصرح بعضهم بإثباتها للكواكب أيضاً ، وقالوا : كل ما في العالم العلوي من الكواكب والأفلاك الكلية والجزئية والتداوير حي "ناطق" ، والأنفس الناطقة الانسانية إذا كانت قدسية قد تنسلخ عن الأبدان ، وتذهب متمثلة ظاهرة بصور أبدانها أو بصور أخرى كما يتمثل جبريل عليه السلام ويظهر بصورة دحية أو بصورة بعض الأعراب كما جاء في صحيح الأخبار^(١).

ومن أشهر الكتب التي ظهرت فيها نزعة التفسير العلمي للآيات القرآنية كتاب «كشف الأسرار النورانية القرآنية» ، فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية ، والحيوانات ، والنباتات ، والجواهر المعدنية ، للطبيب محمد بن أحمد الاسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري ، وهو كتاب يقع في ثلاثة أجزاء يضمها مجلد واحد . ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧ هـ . ولهذا الطبيب أيضاً كتاب «تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص الحيوانية» . وقد طبع هذا الكتاب في سوريا سنة ١٣٠٠ هـ^(٢).

ورسالة عبد الله فكري في مقارنة بعض مباحث الهيئة بالوارد في النصوص الشرعية ، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ .

ورسالة في تطبيق الهيئة الجديدة الآثار على بعض الآيات الشريفة وبعض الأخبار لإبراهيم فصيح الشهير بجيدري زاده البغدادي الذي صار عضواً من أعضاء مجلس المعارف في الآستانة^(٣) .

(١) روح المعاني : ج ٢٣ ص ١٢ وما بعدها .

(٢) انظر التفسير والمفسرون : ١٦٣/٣ وما بعدها ، وانظر التفسير ، معالم حياته -

منهجه اليوم : ص ٢١ .

(٣) انظر تاريخ التفسير : ص ٨٥ .

ورياض المختار للعالم الرياضي ، الذي كان صدرأ أعظم من صدور الدولة العثمانية ، أحمد مختار باشا الغازي . وقد تناول فيه موضوع بحث الآيات الكونية في القرآن . وبحثه على جلاله قدره كان محدوداً وقاصراً على ناحية من نواحي العلم الحديث (١) .

ومن المؤلفات العلمية التي عني أصحابها عناية خاصة بهذا الجانب وتوخوا هذا التطبيق : محاضرات الأستاذ محمد توفيق صدقي في سُنن الكائنات (٢) .

وبين أيدينا كتاب « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » لعبد الرحمن الكواكبي الحلبي ، وهو عبارة عن مقالات نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر سنة ١٣١٨ هـ ورَمَزَ لإسم المؤلف بالرحالة . ك . وهذا الكتاب في نقد الحكومات الإسلامية وبخاصة دولة الخلافة في إستاتبول . وقد اقتبس في هذا الكتاب من أقوال ألفيري الكاتب الإيطالي . وفي هذا الكتاب يلوم المؤلف أولئك الذين جعلوا إعجاز القرآن ممثلاً في فصاحته وبلاغته وما ذكره من منقبات ، وأهملوا الناحية العلمية في ألوف من آيات القرآن التي تدل على إعجازه المتجدد ، على شاكلة قوله : « وإني أمثل للمطالعين ما فعله الاستبداد في العلم والاسلام بما حَجَرَ على العلماء الحكماء من أن يُفسِّروا قسَمي الآلام والأخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً ، لأنهم كانوا يخافون مخالفة رأي السلف القاصرين في العلم فيكفِّرون فيقتلون . وهذه مسألة إعجاز القرآن ، وهي أهم مسألة في الدين لم يقدرُوا أن يوفوها حقها من البحث ، واقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحته وبلاغته وأخباره عن أن الروم من بعد غلبتهم سيُغلبون . مع أنه لو أُطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأي والتأليف كما أُطلق لأهل التأويل والخرافات لرأوا في ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ، لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان تُبرهن إعجازه بصدق قوله (ولا

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن : ص ٣ .

(٢) انظر التفسير ، معالم حياته - منهجه اليوم : ص ٢٢

رطبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين) برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان . ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا . والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورَدَ التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً ، وما بقيت مستورة تحت غشاءٍ من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام ربٍّ لا يعلم الغيب سواه ، وذلك أنهم قد كشفوا أن مادة الكون هي الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال (واستوى إلى السماء وهي دخانٌ) . وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة ، والقرآن يقول (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها) إلى أن يقول (وكلٌ في فلكٍ يسبحون) . وحققوا أن الأرض 'منفتحة' في النظام الشمسي ، والقرآن يقول (إن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما) . وحققوا أن القمر منشقٌ من الأرض ، والقرآن يقول (أفلا يرون أننا نأتي الأرض تنقصها من أطرافها) ، ويقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) . وحققوا أن طبقات الأرض سبع ، والقرآن يقول (خلَقَ سبع سموات طباقاً ومن الأرض مثلهن) ... وكشفوا وجود الميكروب وتأثير الجُدري وغيره من الأمراض ، والقرآن يقول (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) أي متتابعة مجتمعة (ترميهم بحجارةٍ من سجيل) أي من طين المستنقعات اليابس . إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية . وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي أن كثيراً من آياته سينكشف سرُّها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لإعجازه ما دام الزمان وما كَرَّ الجديدان ، (١) .

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي

لقد ذكرنا آنفاً أن محمد عبده يرى وفاقاً لنزعتة العقلية المتحررة في

(١) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد : ص ٢٤ - ٢٧ .

التفسير أن إعجاز القرآن يعجز الزمان عن إبطال شيء منه ، وأنه موافق لما تجدّد من العلم الحق والتشريع للعدل أو غير مخالف له . فلا شك أن هذه مزية خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية . مرّت العصور وتقلّبت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صحّ أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما تحدّث به الرسول ﷺ من عجز من البشر عن مثله ، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده ، فأدّخر ليكون حجة على أهله . وهو يرى أن القرآن مشتمل على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق .

وهذه مرتبة فوق ما ذكر في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه . فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت محاولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب ، حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليده أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة . فإظهار ترقّي العلم لحقيقتها المبيّنة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى . وكان محمد عبده يُباهي بمعرفة علم الكون ، وهو لم يلتزم الوقوف عند النص القطعي لا يتعدّاه ، بل نجده يخالف منهجه غير مرة فيخوض في مبهات القرآن مستعيناً بما عُرف من مستحدثات العلوم على شرحها وتوضيحها على شاكّة قوله في تفسير قوله تعالى (وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً) . ومن مثل ذلك قوله في تفسير قوله تعالى (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) . ومن مثل ذلك عندما عرض لتفسير سورة الفيل عندما جوّز أن تكون الطير هي ما يُسمّى اليوم

بالميكروبات ، كما جَوِّز أن تكون الحجة هي جرائم بعض الأمراض ^(١) .
وغير ذلك من المواقف التي تدل دلالة واضحة على سيره في الاتجاه العلمي
لتفسير آيات الكتاب المبين . ولا نعدو الحقيقة في شيء إذا قلنا إن الشيخ
محمد عبده قد رَوَّج لهذه النزعة العلمية في العصر الحديث ترويحاً يصل إلى أن
يكون رائداً فيها . ذلك لأن طريقته في التفسير تقوم على تحكيم العقل في
كثير من آي القرآن الكريم ، وعلى التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة
الغربية .

محمد جمال الدين القاسمي والتفسير العلمي

كان القاسمي صاحب التفسير المسمى « محاسن التأويل » معجباً بالشيخ
محمد عبده . ولذلك لا يجد الباحث « جنوح القاسمي إلى النزعة العلمية في تفسيره
أمراً غريباً . والذي يتصفح الجزء الأول من محاسن التأويل ، وهو المقدمة
المشتملة على قواعد التفسير يجد القاسمي قد عقد فصلاً في بيان دقائق المسائل
العلمية الفلكية الواردة في القرآن الكريم . ونراه في هذا الفصل ينقل أقوال
بعض العلماء على شاكلة قوله : « قال بعض علماء الفلك ما مثاله : إن القرآن
الكريم قد أتى في هذا الباب بمسائل علمية دقيقة لم تكن معروفة في زمن
النبي ﷺ . وهذه المسائل تعتبر من معجزات القرآن العلمية الخالدة ، وهاكها
ملخصة : المسألة الأولى : كوكب من الكواكب السيارة (الله خلق سبع
سموات ومن الأرض مثلهن) وهما من مادة واحدة (كانتا رتقاً ففتقناهما) .
وهي تدور حول الشمس (وترى الجبال تحسبها جامدة) وهي تمر مر السحاب
« صنع الله الذي أتقن كل شيء » ... فهذه كلها آيات بيِّنات ، ومعجزات
باهرات ، دالة على صدق النبي ﷺ ، وصحة القرآن .

ومن عجيب أمر هذا القرآن أن يذكر أمثال هذه الدقائق العلمية العالية ،

(١) انظر تفسير النار : ٢٠٨/١ - ٢١٢ ، وانظر تفسير جزء عم : ص ٢٦٠ ، ١٥٨ .

التي كانت جميع الأمم تجهلها ، بطريقة لا تقف عثرة في سبيل إيمان أحد به ، في أي زمن كان ، مهما كانت معلوماته . فالناس قديماً فهموا أمثال هذه الآية بما يُوافق علومهم ، حتى إذا كشف العلم الصحيح عن حقائق الأشياء ، علمنا أنهم كانوا واهمين ، وفهمنا معناها الصحيح : فكان هذه الآيات جعلت في القرآن معجزات للمتأخرين ، تظهر لهم كلما تقدمت علومهم ... ! وأما المعاصرون للنبي ﷺ فهمجزته لهم : إتيانه بأخبار الأولين ، وبالشرائع التي أتى بها ، وبالمغيبات التي تحققت في زمنه .. وغير ذلك ، مع علمهم بصدقه وحاله ، وبعده عن العلم ، والتعلم بالمشاهدة والعيان . فأيات القرآن - بالنسبة لهم - بعضها معناه صريح لا يقبل التأويل ، وفيها بيان كل شيء مما يحتاجون إليه ، والبعض الآخر يقبل التأويل ، وتتشابه عليهم معانيه لنقص علومهم . وهذا القسم لا يهم كثيراً ، فإنه خاص بعلوم لم يكونوا وصلوا إليها ، وهو معجزات للمتأخرين يشاهدونها ، وتتجلى لهم كلما تقدموا في العلم الصحيح . قال تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) أي : لها معاني كثيرة يشبه بعضها بعضاً ، وتتشابه عليهم في ذلك الزمن ، فلا يمكنهم الجزم بالصحيح منها (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) بتشكيك الناس في دينهم بسببه (وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله) في زمنهم لنقص علمهم (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) ، (والراسخون في العلم يقولون ... الآية) فإذا جعل قوله تعالى (والراسخون) معطوفاً على لفظ الجلالة كان المعنى : أن تأويله لا يعلمه أحد في جميع الأزمنة إلا الله والراسخون في العلم يعلمونه . وإذا كان لفظ (والراسخون) مستأنفاً كان المعنى : أن الراسخين في العلم في زمنهم لا يعلمون تأويله - كما قلنا - وإنما يؤمنون به لظهور الدلائل الأخرى لهم على صدق النبي ﷺ ، ويفوضون علم هذه الأشياء إلى المستقبل من الزمان ، كما نفوض الآن نحن مسألة رجم

الشياطين بالشهب للمستقبل ، ونؤمن بالقرآن لثبوت صدقه بالدلائل الأخرى القطعية» (١) .

محمود شكري الألوسي والتفسير العلمي

محمود شكري الألوسي هو حفيد محمود الألوسي صاحب التفسير المسمى «روح المعاني» ، قد ذكرنا آنفاً أن محموداً الألوسي كان يستطرد في تفسيره الى الكلام في الأمور الكونية ، ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة ، ويقرر ما يرتضيه ويفند ما لا يرتضيه . وما هوذا حفيده محمود شكري الألوسي المتوفى سنة ١٩٢٢ م يؤلف كتاباً تحت عنوان «ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القوية البرهان» . ومن عنوان هذا الكتاب يستطيع الباحث أن يدرك ان محمود المؤلف 'منصب' على التوفيق بين القرآن والأخبار الصحيحة وبين ما استحدثه علماء الفلك من نظريات وترجيحات وقواعد علمية .

وفي 'مقدمة الكتاب يقرر أن الشريعة الفراء لم ترد باستيعاب قواعد العلوم الرياضية ، إنما وردت بما يستوجب سعادة المكلفين في العاجل والآجل ، وبيان ما يتوصلون به الى الفوز بالنعيم المقيم ، وربما أشارت - لهذه الأغراض - الى ما يُستنبط منه بعض القواعد الرياضية . وذكر المؤلف أنه قد ورد القرآن الكريم في بيان ذلك - بما خاطب به العرب ، مما يعلمونه من علوم تلقوها خلفاً عن سلف .. فصحت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل قبيح ، وبينت ما ينفع من ذلك ومضار ما يضر منه . فكان من علومها «علم النجوم» وما يختص بها من الاهتداء في البر والبحر واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سير النسييرين

(١) محاسن التأويل ، ١/٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨

وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى 'مقرر' في أثناء القرآن في مواضع كثيرة (١) .

ويصرح بمقصوده وخطته في هذا الكتاب ، فيقول : « وقد أحببت أن أجمع ما ورد في هذا الباب من الآيات المنتشرة في سور القرآن على ترتيب سورها ، وأخص منها المشتمة على الأجرام والأجرام السفلية ، وأذكر في تفسيرها ما ذكره جهابذة المفسرين ، ملتزماً في ذلك طريق الاختصار وأصح الأقوال وأصوب الأفكار » (٢) .

ويقف عند سورة البقرة أمام قوله تعالى (يسألونك عن الأهلثة قل هي مواقيت للناس والحج ... الآية) (٣) فيقول : « ذكر أهل التفسير أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن غنم قالا : يا رسول الله ؟ ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحدة ؟ فنزلت . والسؤال يحتمل أن يكون عن الغاية والحكمة ، وأن يكون عن السبب والعلّة ، ولا نص في الآية والخبر على أحدهما .

أما الملفوظ من الآية فظاهر . وأما المحذوف فيحتمل أن يقدر : ما سبب اختلافها ؟ وأن يقدر : ما حكمته ؟ وهي وإن كانت في الظاهر سؤالاً عن التعدد إلا أنها في الحقيقة متضمنة للسؤال عن اختلاف التشكلات النورية ، لأن التعدد يتبع اختلافها ، إذ لو كان الهلال ، لا يحصل التعدد كما لا يخفى ... فعلى الأول يكون الجواب بقوله (قل هي مواقيت للناس والحج) مطابقة

(١) أنظر كتاب ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان - المقدمة - ص

١١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

مبنيًا للحكمة الظاهرة اللاتقة بشأن التبليغ العام ، المذكرة لنعمة الله تعالى ومزيد رأفته . وهي أن تكون معالم للناس يوقتون بها أمورهم الدينية ، ويعلمون أوقات زروعهم ومتاجرهم ، ومعالم للعبادات يُعرف بها أوقاتها كالصيام والإفطار وخصوصاً الحج ، فإن الوقت مُراعى فيه أداء وقضاء . وعلى الثاني يكون من الأسلوب الحكيم ، ويُسمى : القول بالموجب ، وهو تلقي السائل بغير ما يتطلب ، بتنزيل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله ، وأختاره السكاكي وجماعة . . وبعض علماء الهيئة اليونانية قال : ليسوا بمن يطلع على دقائق علم الهيئة الموقوفة على الارصاد والأدلة السفلية . وهذا وهم ، لأن ذلك على فرض تسليمه في حق أولئك المشائين في ركاب النبوة والمرقاضين في رواق الفتوة ، والفائزين بإشراق الأنوار ، والمطلعين بأرصاد قلوبهم على دقائق الأسرار ، وإن لم يكن نقصاً من قدرهم ، إلا أنه يدل على أن سبب الاختلاف ما بُين في علم الهيئة من بُعد القمر عن الشمس وقربه إليها . وهو باطل عند أهل الشريعة ، فإنه مبني على أمور لم يثبت جزماً شيء منها . غاية الأمر أن الفلاسفة الأول تخيلوها موافقة . فما أبدعه الحكيم المطلق كما يشير إليه كلام الشيخ محي الدين بن عربي - رحمه الله - في « فتوحاته » ، مما يُنادي على أن ما ذهبوا إليه مجرد تخيل ، لا تأباه الحكمة وليس مطابقاً لما في نفس الأمر أن المتأخرين ممن أنتظم في سلك الفلاسفة كهرشل الحكيم وأتباعه أصحاب الرصد والزيج الجديد ، تخيلوا خلاف ما ذهب إليه الأولون في أمر الهيئة وقالوا : بأن الشمس مركز ، والأرض وكذا النجوم دائرة حولها ، وبنوا حكم الكسوف والخسوف ونحوه على ذلك ، وبرهنوا عليه ، وردوا مخالفه ، ولم يتخلف شيء من أحكامهم في هذا الباب ، بل تقع بحسب ما يقع ما يقوله الأولون مبنيًا على زعمهم . فحيث أتفقت الأحكام مع اختلاف المبنيين وتضاد المنشأين ورد أحد الزعمين بالآخر ، ارتفع الوثوق بكلا المذهبين ، ووجب الرجوع إلى العلم المقتبس من مشكاة الرسالة ، والمنقذ من أنوار شمس السيادة والبسالة ، والاعتماد على ما قاله الشارع

الأعظم ﷺ ، بعد إيمان النظر فيه ، وحمله على أحسن معانيه !

وإذا أمكن الجمع بين ما يقوله الفلاسفة كيف كانوا مما يقبله العقل وبين ما يقوله سيد الحكماء ونور أهل الأرض والسماء فلا بأس به ، بل هو الأليق الأحرى في دفع الشكوك التي كثيراً ما تعرض لضعفاء المؤمنين . وإذا لم يكن ذلك ، فعليك بما دارت عليه أفلاك الشرع ، وتنزلت به أملاك الحق ،^(١) .

الشيخ طنطاوي جوهري والتفسير العالمي

ألف الشيخ طنطاوي جوهري تفسيراً للقرآن الكريم سماه « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » . وهذا التفسير يقع في خمسة وعشرين جزءاً . ولهذا التفسير ملحق الحق به ، يقول : « أما بعد ، فإننا قد كتبنا في مواضع من كتاب « الجواهر في تفسير القرآن » ، أننا سنسبغه بملحق يوضح بعض ما أغفلناه في ذلك التفسير ... وسنذكر إن شاء الله ما سنراه موسعاً للمعارف في أمم الاسلام ، ونبتدىء بسورة الفاتحة ، وفي أولها البسملة ، وهكذا سورة بعد سورة ... »^(٢) . وفي مقدمة تفسيره يتحدث عن البواعث التي دفعته إلى تأليف هذا التفسير ، يقول : « أما بعد ، فإنني خلقت مغرماً بالمعجائب الكونية ، معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال ، وما في الأرض من بهاء وكمال ، آيات بيّنات ، وغرائب باهرات ... ثم إنني لما تأملت الأمة الاسلامية وتعاليمها الدينية ألفيت أكثر العقلاء وبعض جليّة العلماء عن تلك المعاني معرضين ، وعن التفرّج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر في خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب . فأخذت أولّف كتباً لذلك شق ، كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصّع ، وجمال العالم ، والنظام والاسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير

(١) ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القوية البرهان . ص ٢٧ - ٣٠ .

(٢) أنظر ملحق الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، ٢/١ .

ذلك من الرسائل والكتب . ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحي مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق ، (١) .

ويتحدث المؤلف عن زمان شروعه في هذا التفسير وعن غرضه وهدفه من تأليفه ، ويصرح بأن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمر به بطريق الإلهام على شاكلة قوله : « وكان ابتداء التفسير إذ كنت مدرّساً بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يُكتب في مجلة الملاجيء العباسية ؛ وما أنذا اليوم أوالي التفسير مستعيناً باللطيف الخبير ، مؤملاً بما وقرّ في النفس ، أن يشرح الله به قلوباً ، ويهدي به أئمة ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ... وليكون هذا الكتاب داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقوم من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة ، والطب ، والمعادن ، والحساب ، والهندسة ، والفلك وغيرها من العلوم والصناعات . كيف لا ، وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو على مئتمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية . ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الأحكام والأخلاق وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق ، مما يشوق المسلمين والمسلمات إلى الوقوف على حقائق معاني الآيات البيّنات في الحيوان والنبات والأرض والسموات . ولتعلّمن أيها الفطن أن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الإلهام ، وأيقنت أن له شأنًا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقيّ المستضعفين في الأرض ، (٢) .

وسمّي طنطاوي جوهري تفسيره « الجواهر في تفسير القرآن الكريم » ،

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : المقدمة ، ٢/١

(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم - المقدمة - : ٣/١

لأنه جعل الجوهرة بدل الباب أو الفصل . والجوهرة يتفرع عنها الماسة الأولى والماسة الثانية وهكذا .

وطريقته في تفسير القرآن أن يبدأ بالتفسير اللفظي للآيات التي يعرض لها، ثم يتلوها بالشروح والإيضاح والكشف ، أي أنه يشرع متوسعا في الفنون العصرية المتنوعة .

ونرى طنطاوي جوهري ينقل عن التوراة وعن الانجيل كثيراً ، وبخاصة إنجيل « برنابا » الذي يعدّه موافقاً للقرآن ، ويردّ على بعض النصارى والمستشرقين (١) .

ونجده متأثراً بنزعة الشيخ محمد عبده في إصلاح المجتمع ومحاربة البدع والأوهام والتقليد (٢) .

وكثيراً ما يضع في تفسيره صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة والتجارب العلمية والجداول العلمية الاحصائية بقصد أن يوضح للقارىء ما يقول توضيحاً يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس مما جعل بعض علماء المسلمين يخرج تفسيره عن كتب التفسير المعروفة المقبولة عند المسلمين (٣) .

وطنطاوي جوهري يرى أن دراسة القرآن في العصور الخالية كانت تكلفية وقراءة سطحية وعلوماً لفظية ويناشد علماء المسلمين بأن يُربّثوا الألباب، ويخاطبوا الوجدان والعقل ، وليضموا إلى تربية الاجسام ترقية العقول، وإن لم يفعلوا ذلك لم تعيش الأمة الاسلامية قرناً واحداً ، بل تُفنيها الأمم الأجنبية على شاكلة قوله: « إن دراسة القرآن في العصور الخالية كانت تكلفية،

(١) أنظر المرجع السابق : ١٢٢/٢

(٢) أنظر المرجع السابق ، ٧/١ ، ٢/٢ ، ٩٠-٩٧

(٣) أنظر المرجع السابق ١/٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢/٨ ، ٢٢ ،

وقراءة سطحية ، وعلوماً لفظية ، فعكف الناس على الألفاظ ، وكثر الحفاظ وقل المفكرون ، فجمدت القرائح وماتت العلوم ، لاسيما لما تولى أمر هذه الأمة الأعاجم الذين يجهلون العربية في القرون المتأخرة ، فطمست الحقائق ، ونامت البصائر ، وماتت النفوس ، وفر العلم الى الغرب ، وختلى الشرق قاعاً صنفصفاً وصعيداً جرزاً . فلنجعل اليوم حداً بين الماضي والمستقبل ، وليفطن العلماء بعدنا الى ما ذكرناه ، وليدرسوا القرآن بنحو الأسلوب الذي بيناه ، وليفتحوا للمعاني بصائرهم ، وليضموا الى تربية الأجسام ترقية العقول ، وإن لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمم الإسلامية قرناً واحداً ، بل تفتنيتها الأمم الأجنبية . أيقظوا العقول أيها العلماء . هاأنذا أقول : نحن أمة عربية ، فلندرس القرآن الذي ورثناه درساً يناسب الجيل المقبل ، ولنأخذ بأيدي أبنائنا الى مقام الكمال ، (١) .

ونراه يلوم المسلمين لأنهم أهتموا واعتنوا بالفقه واختلاف الفقهاء ، وآيات الأحكام قليلة جداً ، ولم يهتموا بالعلوم ، والآيات الدالة عليها كثيرة جداً في القرآن على شاكلة قوله : « أيها الذكي : تأمل فيما ذكرته لك من علم الفلك . إن عادة الناس غالباً أن يقرءوا في الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام ، وهي قليلة جداً ، اختلاف الأئمة رضي الله عنهم في المسائل ، ثم إذا ذكروها يقولون : وتفصيل هذه المسائل في كتب الفقه ، فيحيلون قارئ التفسير على كتب الفقه . ولقد أحسنوا لأن التفسير للإجمال لا لدرس الفروع . ومن العجب ألا تكون العناية موجهة بهمة أشد الى علم الفقه . وهذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التي حلت بالامة الإسلامية ، فمن أين جاء هذا الخطب للإسلام ! .

اللهم إن كل العلوم مطلوبة ، فهي جميعها فرض كفاية ، وإن العلوم التي

(١) الجوامع في تفسير القرآن الكريم - ٢/٢٠٣ وما بعدها .

يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لا غنى للناس عنها بل تركها أضر بأمة الإسلام. فلماذا لا يذكر الإجمال لجميع العلوم في التفسير ، ويُحالُ القارئ على كتب تلك العلوم ، فيقال في قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب) انظر ما هنا وإرجع إلى التفصيل في علم الفلك الذي هو من فروض الكفاية في علوم الدين ؟ ! وإنه يجب أن تقوم حكومات الإسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم ، وإحضار جميع الآلات والمراسد لهم حتى يرجع المجد القديم ، وحق نقوم بواجبنا في هذا العلم ، كما نفعل ذلك في سائر العلوم لا في الفقه وحده ، فإن القرآن قد شوق إلى علوم الفلك والطبيعة تشويقاً كثيراً بآيات كثيرة ، (١) .

ويسوغ طنطاوي جوهرى لاتجاهه العلمي في تفسير القرآن الكريم في صورة جواب عن اعتراض يقول : ليس الإيمان بالله يلزمنا الخوض في كل هذا ، يقول طنطاوي جوهرى : « سيقول قائل ممن يقرأ هذا القول : إننا لسنا ملزمين بهذا كله ، فإذا آمنا بالله وليس الإيمان بالله يلزمه هذا كله . لقد نظرنا وآمنا ؟ فجوابه أن نقول : لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية في علم الفقه ، وعلم الفقه ليس له في القرآن إلا آيات قلائل لا تصل مائة وخمسين آية .

فلماذا كثر التأليف في علم الفقه وقل جداً في علوم الكائنات التي لا تخلو منها سورة ، بل هي تبلغ (٧٥٠) آية صريحة ؟ وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز في عقل أو شرع أن يبرع المسلمون في علم آياته قليلة ويجهلون علماً آياته كثيرة جداً ؟ ، (٢) .

والحق يقال — إن الشيخ طنطاوي جوهرى — مع مخالفتنا إياه في منعاه

(١) المرجع السابق - ٢٠٧/٢

(٢) الجواهر في تفسير القرآن الكريم : ٥٥/٢٥ وما بعدها .

ونزعته ، يبدو حسن النية فيما ذهب إليه . فقد وجد أن السبيل التي سلكها تبعت الأمة الإسلامية بحثاً جديداً في ميدان التقدم العلمي . وكثيراً ما نجده مخاطب الأمة الإسلامية وعلماءها خطاباً يدل على الاشفاق والغيرة والاخلاص . وإننا نجده منزعجاً من حظر تفسيره في المملكة العربية السعودية . وقد بعث برسالة إلى الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز يتوجع فيها من ذلك المنع والحظر والمصادرة على شاكّة قوله : « ثم أقول : أيها المراقبون ، بأي كتاب أم بأية 'سنة' يدخل تفسيري للقرآن جميع أقطار الاسلام شرقاً وغرباً وأكثرهم في قبضة المستعمرين من غير ديننا ، وتُوصد الأبواب دونه في الحرمين الشريفين وسائر بلاد الحجاز ونجد ، وتصدون عن قراءته عموم المملكة السعودية وحجاج بيت الله الحرام من سائر الأقطار ، مع أنهم يقرءونه في بلادهم ؟! أليس أهل نجد والحجاز أمسّ بنا رحماً وأقرب نسباً؟ أفليس هذا الصدّ إذا لم يكن بدليل يكون تقطيعاً للأرحام ؟ » (١) .

والحق يقال : إن المانع لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه ، بل ولوعه الشديد بإخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية . وهذا تعسف ظاهر وميل بالقرآن عن مقصده الأسمى ، ألا وهو هداية البشر لما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة .

وإن دل هذا المنع على شيء فإنما يدل على الورع وصيانة القرآن عن أن ينحرف أحد بتفسيره .

عبد الحميد بن باديس والتفسير العلمي

لقد جمعت دروس التفسير التي كان يُلقِيها على مريديه أستاذ المجاهدين الجزائريين عبد الحميد بن باديس الجزائري في كتاب بعنوان : « تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير » . وفي الخطبة التي افتتح بها

(١) المرجع السابق : ٢٥ / ٢٤٥

ابن باديس دُرُوسه في التفسير يُصرح بأن تفسير الفخر الرازي أحد المراجع التي يرجع إليها من كتب أئمة التفسير . ولهذا لا بد أن يتساقط إلى دروسه في التفسير ألوان من نزعة الفخر الرازي العلمية في تفسير القرآن الكريم . أضف إلى ذلك أنه كان متأثراً بنزعة الشيخ محمد عبده العلمية في تفسير بعض آيات الذكر الحكيم . ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قول الله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً) (١) : « والآية هي العلامة الدالة . وكان الليل والنهار آيتين بتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر ، على نظام محكم وترتيب بديع ، بحسب الفصول الشتوية والصيفية ، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض : المناطق الاستوائية ، والقطبية الشمالية ، والجنوبية ، وما بينها . حتى يكونا في القطبين ليلة ويوماً في السنة ، ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين ، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم . فهذا الترتيب والتقدير والتيسير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير لطيف خبير » (فمحونا) : المحو هو الإزالة : إزالة الكتابة من اللوح ، وإزالة الآثار من الديار . فمحو (آية الليل) إزالة الضوء منها ، وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل ؛ فتفيد الآية أن القمر كان مُضيئاً ، ثم أُزيل ضوءه فصار مُظلماً . وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم يأتيه نوره من الشمس . وقد اتفق علماء الفلك في العصر الحديث بعد الاكتشافات والبحوث العلمية أن جرم القمر — كالأرض — كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد المحو والحرارة ثم برد ، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برَد .

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية : ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه ﷺ ، وبرهاناً لدينه على البشر مهما ترقوا في

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٣

العلم وتقدموا في العرفان !! فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفراداً قليلين من علماء الفلك . وإن حرم جرّمه أولاً ، وزواله بالبرودة ثانياً ، ما عُرفَ إلا في هذا العهد الأخير . والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ أربعة عشر قرناً نبيّ أميٍّ من أمةٍ أمية ، كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم ، فلم يكن ليعلم هذا إلا بوحى من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها !!

كفـاك بالعلم في الأمي معجزةً في الجاهلية والتأديب في اليتيم^(١).

وابن باديس يرى أن القرآن يشوق إلى علوم الأكوان والتعمق في أسرار هذه الصور التي يعرضها علينا في بيان بديع جذاب ، على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى (ألاّ يسجدوا لله الذي يُخرجُ الخُبءَ في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون) (٢) : من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية ، أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي ، في بيان بديع جذاب ، يشوقنا إلى التأمل فيها ، والتعمق في أسرارها . وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه ، وننبعث في البحث عنه ، واستجلاء حقائقه ومنافعه ، بدافع غريزة حب الاستطلاع ، ومعرفة المجهول . وبمثل هذا أنبعث أسلافنا في خدمة العلم ، واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما أستطاعوا ، ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم . ولن نعرّ عزم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدَمَتَهُمْ ، (٣) .

مصطفى صادق الرافعي والتفسير العلمي

عندما يطالع القارئ كتاب « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » لمصطفى

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير : ص ٥٨ - ٦١ .

(٢) سورة النمل ، الآية ٢٥ .

(٣) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير . ص ٤٦٠ .

صادق الرافعي يُلاحظ أنه كان من أنصار النزعة العلمية لتفسير القرآن الكريم . وفي هذا الكتاب نجد المؤلف يعقد مبحثاً خاصاً على موضوع « القرآن والعلوم » . وفي هذا المبحث يقرر أن للقرآن وجهاً اجتماعياً من حيث تأثيره في العقل الانساني هو معجزة التاريخ العربي خاصة ، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بسط هذه الارض من لدن ظهر الاسلام الى ما شاء الله ، لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن من قبل إلا سبباً ، فإن في الحق ما يسع الاشياء وأسبابها جميعاً . وليس يرقب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث ويستقصون في أسباب نشأته ويتثبتون عند الحاطر من ذلك إذا أقدموا عليه وعند الرأي إذا قطعوا به — أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو في كل ما يستطيل به وفي تقدمه وأنبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه وفي نموه واستبحار عمرانه ، فإما كان القرآن أصل النهضة الاسلامية ، وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلة في استبقاء علوم الاولين وتهذيبها وتصفيها وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتفع منها وأخذ على ذلك بالمبحث والنظر والاستدلال والاستنباط وتوفير مادة الروية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل ومزولة هذا لذاك الى صفات أخرى ليس هذا موضع بسطها (١) .

ويذكر الرافعي أن بعض العلماء استخرج من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطاً ليس هو من غرضه فيستقصي فيه ، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولحظة ، ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره لاستخرج منه إشارات كثيرة توميء الى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها (٢) .

(١) انظر اعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ص ١١٥/١١٧

(٢) أنظر المرجع السابق - ١٣١ وما بعدها

ويقرر الرافعي أن القرآن الكريم أشار الى نشأة هذه العلوم والى تمحيصها وغايتها ، وأن من أدلة إعجازه أن يخطيء الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية على شاكلة قوله : وقد أشار القرآن الى نشأة هذه العلوم والى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه آنفاً ، وذلك قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) . ولو جمعت أنواع العلوم الانسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى : (في الآفاق وفي أنفسهم) هذه آفاق ، وهذه آفاق أخرى ، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الافهام شيء . ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطيء الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالارض ، ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه ، فكلما تقدم النظر وجمت العلوم ونازعت إلى الاكتشاف واستكملت أدوات البحث ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة كأنه غاية لا يزال عقل الانسان يقطع اليها ، وحتى كأن الآلات حينما توجه لآيات السماء والارض توجه لآيات القرآن أيضاً (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . ذلك هو الأمر في العلوم الأولى ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، (١) .

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن

كان هذا عنوان بحث ألفه حنفي أحمد في الطبعة الثانية . وكان عنوان هذا البحث في الطبعة الأولى : « معجزة القرآن في وصف الكائنات » .

وفي كلمة الافتتاح للطبعة الأولى يقول المؤلف : « فقد وضعنا هذا الكتاب بفضل من الله وعون منه تعالى ، إذ كانت الحاجة إليه ماسة في هذا الزمان

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ١٣٣ وما بعدها .

الذي التبس فيه الحق بالباطل وسمّيناه « معجزة القرآن في وصف الكائنات » . وموضوع هذا الكتاب كما ينمُّ عنه اسمه ذو أهمية بالغة ، لأنه يبحث في تصوير القرآن للكائنات تصويراً يكشف عن دقيق معانيه ، ويبين ما فيه من آيات الإعجاز الدالة على صدق وحيه وسمو رسالته . لقد جاء الحديث في القرآن عن الكائنات كما جاء غيره من الأحاديث والأنباء مناسباً لجميع الناس على اختلاف درجات عقولهم وأفهامهم ، فكان ولا يزال لهم جميعاً من ظاهره معانٍ واضحة سهلة تصوّر لهم صنعة الخالق كما يشاهدونها وتبين لهم ما فيها من آيات القدرة العظيمة ودلائل العلم الواسع مع التوجيه الحكيم إلى غايات محدودة ، ورحمات مقصودة ، لكي يتعرفوا منها بالتعقل والتبصر في غير عناء على خالق الخلق جل وعلا ، وعلى كمال صفاته وأفعاله ، إذ الصنعة دليل لا شك فيه على قدرة الصانع وصفاته ، ولكي يؤمنوا بعد التعرف عليه بصدق وعده ووعيده . كان هذا ولا يزال هو الغرض العام المقصود من ورود الحديث عن الكائنات في القرآن . ولكن المتأملين في هذا الحديث من أهل العلم والخبرة بالكائنات يرون في ألفاظه وعباراته فوق معانيها الظاهرة معاني أخرى دقيقة تنطوي على أصول وجوامع من العلم الواسع الدقيق عن الكائنات الذي لم يكن معروفاً للناس من قبل ، ولم يتعرفوا عليه إلا تدريجاً بعد انتشار العلم الحديث بينهم في القرنين الأخيرين . وتنكشف هذه المعاني الدقيقة لهؤلاء المتأملين من أصحاب العقول الراجحة على ضوء علمهم الخاص ، إما من صريح النص حيناً وإما من إشارات ورموز فيه حيناً آخر . لقد كانت دعوة القرآن دعوة علمية قائمة على تحرير العقول من الأوهام ، وإطلاق عقول الفكر وحته على النظر في صحف الكون ، لذلك نرى الكثير من آيات القرآن تنتهي بمثل قوله تعالى : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) وبقوله : (لقوم يفقهون) وبقوله : (لقوم يتفكرون) ... ، (١) .

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، كلمة الافتتاح للطبعة الأولى . ص ٢٠١ .

ويرى المؤلف أنه من الغريب، مع ذبوح العلم الحديث وتقدمه العظيم في النصف الأول من القرن الحالي، فإنه لم يُعرف إلى الآن من دقائق معاني حديث القرآن عن الكائنات سوى نثر قليل وقبس ضئيل، ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل شتى أهمها في رأيه وراثته العقيدة التي كانت ولا تزال سائدة في الأذهان بأن القرآن رسالة هداية وإرشاد لا شأن لها بأصول العلوم الكونية، وأن حديثه عن الكائنات لا يحتاج في فهمه إلا لمجرد التعقل والخبرة العادية، وأنه بذلك لا يحوي دقائق أو تفاصيل عن طبائع الكائنات تتطلب علماً خاصاً لإبانتها ودركها... لقد أستبعد أهل العلم والفكر وجود علم مفصل عن الكائنات في القرآن فغاب عنهم بسبب ذلك مفتاح طريق البحث فيه ألا وهو جمع آياته المفرقة وتبويبها على حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثاً كاملاً (١).

ويرى المؤلف أنه من الواجب الاعتراف بالجهود الطيبة التي بذلها بعض أفاضل علماء الأمة المعاصرين في كشف مكنون معاني الآيات الكونية أمثال محمد أحمد الغمراوي أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة سابقاً، والمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل؛ إذ بحث الأول في كتابه في «سنن الله الكونية»، كثيراً من الآيات التي تشير إلى الظواهر الجوية بحثاً مستفيضاً وشائقاً، كما فسر الثاني في كتابه «الإسلام والطب الحديث»، بعض الآيات الكونية تفسيراً علمياً أظهر به وجه الإعجاز فيها. وأستاذ الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الواسع للقرآن الذي أفاض وأسهب فيه وبين كثيراً من العلوم المختلفة التي تشير إليها الآيات الكونية لولا أنه، رحمه الله، قد زاد في هذا البيان حتى تجاوز حدود معاني الآيات ولم يحاول الجمع بينها، فخفي بذلك كثير من حقيقة ومقدار العلم المنزّل فيها. وذلك العالم الرياضي الذي كان صدرأ أعظم من صدور الدولة العثمانية، وهو المرحوم أحمد مختار باشا الغازي، فقد ألف كتاباً سماه «رياض المختار»، تناول فيه موضوع بحث الآيات الكونية في

(١) انظر التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، ص ٢ وما بعدها.

القرآن ، وبحثه على جلاله قدره كان محدوداً وقاصراً على ناحية من نواحي العلم الحديث (١) .

ويذكر المؤلف المستوغات التي أدت به إلى تأليف كتابه وأن الفرض الإصلاحي كان أعظم باعث على وضع هذا الكتاب ، على شاكلة قوله : « كان طبيعياً للأسباب التي قدمناها ألا يفكر المتخصصون في العلم الحديث من المسلمين في النظر والبحث في القرآن وألا يظهر لهم بحوث فيه ، وكان طبيعياً أيضاً أن تتسرب إلى أذهان المثقفين عامة بالعلم الحديث من المسلمين عقيدة الإفرنج بأن الكتب المنزلة جميعاً لا تحوي علماً دقيقاً بالكائنات ، وأن تتطور هذه العقيدة بعد ذلك في أذهانهم كما تطورت في أذهان الإفرنج بأن العلم والدين ضدان لا يجتمعان . وزاد في انصرافهم هذا ما رأوه للأسف من عدم الإهتمام بأمر التثقيف والتهديب الديني بجانب التثقيف بالعلم الحديث في معاهد التعليم العام والعالي تثقيفاً يربّي العقيدة الصحيحة ويخلق الشخصية القوية ، وما شاهدوا من مخالفة كثير من القوانين ونظم الاجتماع في البلدان الإسلامية مخالفة صريحة لتشريعات الدين باسم السير مع عجلة الزمان وعدم التخلف عن ركب المدنية باعتدال أو بغير اعتدال . ولما كانت الدعوة إلى الإصلاح أكبر خدمة تُسدى إلى المجتمع وأعظم واجب على كل قادرٍ عليها ، لذلك وضعتُ هذا الكتاب وفاءً للعهد والأمانة وإسهاماً مني في الإصلاح المنشود ، ليعرف منه من لا يعرف حقيقة رسالة القرآن ، وأنه كتاب لا تخلقُ جدتهُ على مر الزمان ، وأن رسالته رسالة هدى تقوم على العقل والعلم الذي ينفع الناس ويدين به علماءهم ، وأنه احتوى هذا العلم ليكون له آية في نشر دعوته ، كلما انتشر العلم بين الناس وحجّة قائمة على أهل العلم بصدق دعوته كلما اخترق العلم أستار الطبيعة ، وسار إلى الأمام كاشفاً ومبيناً حقائق الموجودات ، (٢) .

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٣ .

(٢) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، ص ٣ - ٥ .

وبعد ذلك نراه يعرض طريقة أو منهج البحث في هذا الكتاب ، ويذكر أن طريقته هي الطريقة المتبعة في البحوث العلمية :

وفي كلمة الافتتاح للطبعة الثانية يقول الأستاذ حنفي أحمد : « والطبعة الثانية لهذا الكتاب هي نفس طبعته الأولى في موضوعها وأهدافها ، وفي نظام البحث وتنسيقه . بيد أن رغبة في استيفاء بعض بحوثه ، في الاستجابة إلى آراء مخرصة أبدت قصد تبسيط وتيسير متابعة البحث وفهمه على القراء ، قد تناولنا الكتاب في هذه الطبعة بالتنقيح والتهديب والمراجعة الدقيقة ، فخلصناه قدر الطاقة من الأخطاء المطبعية ، ومن كثير من التعقيد في الشرح والإيضاح ، ومن التكرار الذي يدعو إلى الملل . وأهم ما أضيف سداً للنقص قد حصل في الفصل الثاني من الباب الأول الخاص بآيات النيرات والشهب العارضة في حيز الأرض ، حيث أضيفت إليه الآيات الخاصة بالحاصب أو الحجارة من سجيل المرسلة من السماء على أهل الكفر والطغيان من قوم لوط وأصحاب القيل ، وأكثر التبسيط والتيسير في البحث بالحذف والإبدال قد أدخل في الفصول الثلاثة الأخيرة من الباب الأول ، وهي الخاصة بنشوء وتعميد السموات وحركة الأجرام فيها ، وكذلك في الفصل الأول من الباب الثاني الخاص بخلق الأرض والقمر ، (١) .

عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي

ألف عبد الرزاق نوفل كتاب « الله والعلم الحديث » ، وقد عالج فيه ربط بعض الآيات العلمية بالعلوم الحديثة في باب الإعجاز العلمي للقرآن ، ورأى المؤلف أن يتبع كتابه السابق الذكر بهذا الكتاب « الاسلام والعلم الحديث » لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين . ثم ألف عبد الرزاق نوفل كتاب « القرآن والعلم الحديث » عالج فيه بعض

(١) انظر المرجع السابق : ص ٩ .

الآيات الشريفة وربط بينها وبين ما أوضعه التقدم العلمي من حقائق أصبحت ثابتة بحيث لا تقبل الجدل أو الشك .

ثم ألّف كتاب « بين الدين والعلم » يثبت فيه أنه لا تعارض ولا جفوة بين الدين والعلم إطلاقاً . وفي كتاب « الإسلام والعلم الحديث » يعقد عبدالرزاق نوفل مبحثاً بعنوان « الإسلام دين علم وعمل » ، فيقول : « ليست مصادفة أن تكون أول كلمات القرآن الكريم أمراً بالدعوة إلى القراءة ... وإن تدعو أول آياته إلى العلم ... فإن أول ما نزل من الآيات الشريفة هي : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) . وهي دعوة صريحة لتعلم القراءة الكتابة .. بل وجهت نظر الإنسان إلى أدق العلوم .. علم الحياة وخلق الإنسان . وليست مصادفة أن نقرأ في سورة « المؤمنون » قول الله سبحانه وتعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . ثم بعد مئات السنين يقرر العلم الحديث بعد الاستعانة بالمجاهير وأجهزة التصوير والأشعة ، أن الترتيب المنصوص عليه في هذه السورة هو ترتيب خلق الجنين ؛ والأكثر من هذا أنه حتى لم يمكن الاستعاضة عن ألفاظ القرآن بغيرها ؛ فهي الألفاظ التي تدل على المعنى بغير لبس أو غموض أو زيادة أو نقصان ... » (١) .

وفي كتاب « القرآن والعلم الحديث » ينطلق عبدالرزاق نوفل من فكرة أساسية عند معظم الجانحين إلى النزعة العلمية في تفسير القرآن الكريم ، وهي صلاحية القرآن لكل زمان ومكان لأن فيه إشارات إلى كل تقدم في ميادين

(١) الإسلام والعلم الحديث ، ص ٧٥ وما بعدها .

العلم ، على شاكلة قوله : « وفي الآونة الاخيرة ... وقد وصل العلم إلى ما لم يكن أحد يتصور أن يصل إليه في هذا الزمن الوجيز ... وفي عهد غزو الفضاء والسفر إلى الكواكب ... نرى أن كل تقدم في ميادين العلم ... قد جاء به القرآن أو وجه النظر إليه ... ومن عجب أن نقرأ أن هناك من يقولون إن القرآن إنما كان يصلح لعهد مضى ، ولم يعد يصلح للحاضر أو المستقبل ، (١) .

ويرى عبد الرزاق نوفل أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث ، وسبق إلى كل مستحدث من العلوم ، وأن هذا الوجه من إعجاز القرآن كاف لإقناع رجال الغرب بمعجزة القرآن ، وأن إعجاز القرآن العلمي هو السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير العرب .

ويقول إن اليوم الذي ننشر على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن إلى القول به وأثبتته التقدم العلمي في مختلف العلوم هو اليوم الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة ، وأبلغنا الدعوة ، وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب (٢) .

وتحت عنوان « البروتين النباتي والحيواني » يقول عبد الرزاق نوفل في تفسير الآية « ٦١ » من سورة البقرة (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَائِهَا وَفُؤْمِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ...) « وهي تقرر بذلك أن البقول والعدس والبصل أدنى وأقل خيراً مما كان يأكله قوم موسى وهو المن والسلوى ... وهما نوع من الحلوى عسلية وطير يرجح أن يكون المعروف بالسُّنَّان .. وبهما يعرف مقدار ما في هذه الآية من علم إلا بعد أن تقدمت علوم التغذية والصحة الغذائية ، فلم يصل العلم إلا أخيراً إلى أن الأفضلية

(١) القرآن والعلم الحديث - مقدمة ، ص ٦ .

(٢) انظر المرجع السابق ، ص ٢٤ وما بعدها .

ليست في مقدار ما تحويه المواد الغذائية بل في نوع ما تحويه من مكونات التغذية . وقد أصدرت لجنة الأبحاث بإنجلترا تقريراً تضمنته حقائق هامة وصلت إليها وأهمها أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها وفي المقدار الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق وإن البقول يضر الإكثار منها ... حتى أن التقرير نصح بعدم إعطائها للأطفال مطلقاً ، وبالقلة منها للكبار ، ولم يُعرف إلا أخيراً أن المواد البروتينية أو الزلالية ، والتي تُعتبر أهم مكونات البقول ولو أنها مصدر طاقة لتوليد الحرارة والنشاط إلا أنها مرهقة لأجهزة الجسم في تحويلها إلى هذه الطاقة . ولهذا ينصح الطب الحديث بالاعتماد على النشويات كمصدر للطاقة ، وأن البروتينات أو المواد الزلالية الموجودة في الحيوان تفضل تلك الموجودة في البقول تفضيلاً كبيراً ... وتعتبر الأنواع التي ذكرها القرآن أكثر المواد احتواءً على المواد البروتينية أو الزلالية ؛ ففي كل مائة جرام من الفاصوليا والبسلة واللوبياء الجافة ٢١ جراماً من هذه المواد الزلالية ، وفي العدس ٢٠ جم وفي البيض ١٠ وفي الخبز ٦ . ومن أعجب ما يلاحظ أن الطير وهو الذي كان يأكله القوم يحتوي نفس النسبة تماماً من المواد الزلالية أي ٢١ جراماً في كل مائة جرام ، ولكنها من نوع آخر غير نوع المواد الزلالية التي في البقول . فالقرآن قد قارن بين الطير والبقول وهما متساويان في نسبة المواد الزلالية ، وقرر حقيقة علمية لم تظهر إلا أخيراً ، وهي أن البروتين الحيواني خير من البروتين النباتي الذي هو أدنى ، (١) .

وتحت عنوان « حياة وأحياء في السماء » يقول عبد الرزاق نوفل في كتاب « الله والعلم الحديث » وتحت عنوان « سُكُنَى الكواكب » : أوضحت أن القرآن الكريم هو أول كتاب تعرض لوجود الأحياء في السماوات ، وهو يقرر ذلك من أربعة عشر قرناً ، مع أن العلم ما زال يجد في البحث في هذه

(١) القرآن والعلم الحديث ، ص ٧١ .

الناحية . وبعد أن صدر الكتابُ بدأت الأخبار تتواتر لتؤيد هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن الكريم ، فبعد أن تمَّ رصد المريخ في أواخر عام ١٩٥٦ حيث كان أقرب ما يكون إلى الأرض ، إذ لم يكن يفصله عنها سوى ٥٦ مليون كيلومتر ، وهذا لا يحدث سوى مرة واحدة كل سبعة عشر عاماً ... قرّرت نتائج الرصد التي حصل عليها كلُّ من مرصد خاركوف وقسم الفلك التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية أنه ظهرت بُقعٌ بيضاء في المنطقة القطبية للنصف الجنوبي للمريخ ، وظلّت عدة أيام واضحة ثم اختفت ... ودلّت هذه البقع على مطول كميات وافرة من الثلج .. الثلج الذي لا بُد أن يتحول إلى ماء .

ويستند الفلكيون في قرارهم بوجود حياة وأحياء في المريخ على أن ظروفه الجوية تقارب ظروف الأرض ... فكلُّ مقومات الحياة التي نعرفها على الأرض ومستلزماتها متوافرة في المريخ بل في الكواكب التي تقع على بُعد مقارب من بُعد الأرض ... أما الكواكب التي تقرب من الشمس أو تبعد عنها فقد قال الفلكيون إنها كواكب ميتة لأن الظروف التي يمكن العيش معها لا تتوافر ، ^(١) .

وإن المعلومات التي قدمها لنا الأستاذ عبد الرزاق نوفل عن وجود ثلج في كوكب المريخ وبالتالي وجود حياة وأحياء ترجع إلى سنة ١٩٥٦ م . فماذا يكون موقفه من أقوال بعض العلماء في هذا العام الجاري ١٩٧٢ ، التي تستبعد وجود حياة وأحياء على هذا الكوكب ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، أليس من الخطورة بمكان إقحام القرآن في ميدان العلم الذي يخضع للملاحظة والتجربة والاستنتاج ؟

وفي كتاب « بين الدين والعلم » يقول عبد الرزاق نوفل إن الصلاة تفيد

(١) انظر المرجع السابق ، ص ١٧٤ وما بعدها .

الإنسان صحياً ، فقد أثبت الطب أن الإنسان وهو في صلاته ينخفض ضغط دمه ... وأن تكرار الصلاة على أصولها وباستيفاء شروطها يجعل الإنسان في أمان من أخطر أمراض العصر ألا وهي الناجمة عن الارتفاع المفاجيء للضغط (١) . ومن المعروف عند المسلمين أن العبادات لا تعلل ، وأن الصلاة أمرٌ تعبدي لا يعقل معناه . ومن المعلوم أن المسلم حق لو بلغ الذروة في ممارسة الرياضة البدنية يجب عليه أن يؤدي الصلاة ، وهي فرض عين . ولا تجوز الصلاة بغير وضوء حق لو خرج المسلم من الحمام من غير أن يتوضأ ، مما يدل على أن الصلاة ليس مقصوداً بها الرياضة ، وليس المقصود بالوضوء النظافة .

ويلوم المؤلف من قام بتفسير القرآن بأكمله تفسيراً علمياً ، ويعدُّ هذا من أخطر ما يمكن على التفسير ؛ لأنه لا يمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها ، فكيف 'يلم' الإنسان منفرداً بكل ما تضمنته القرآن من علوم وإعجاز ؟ إماماً يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير (٢) . والمؤلف يقصد من كلامه الشيخ طنطاوي جوهرى الذي فسر القرآن كله تفسيراً علمياً .

ويحاول المؤلف جاهداً تسوية نزعة العلمية في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ومناقشة بعض المعارضين والممانعين والمنكرين لهذا الاتجاه في تفسير القرآن الكريم على شاكلة قوله : « وقد يكون لبعض المعارضين الحق إذا ما كان ندعو إليه هو التفسير بنظريات علمية ... ولكن لم يتجه أي إنسان مخلص في دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى الحقيقة العلمية . والفارق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً . إذ أن النظرية العلمية هي ما لم يتم الدليل على صحتها بدرجة تجعلها حقيقة غير قابلة للتطور أو التغير أو

(١) انظر بين الدين والعلم : ص ٦٥ .

(٢) انظر المرجع السابق : ص ١٤٢ وما بعدها .

التعديل ... فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة في القرآن والتي تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أيكون هناك من خوف على هذه الآيات ، ونكون قد عرّضناها لنظريات متغيرة ؟ ثم هذه الأوجه في الآية الواحدة ... والتي وصل المفسرون إلى ما يقرب من عشرة أوجه فيها ... ما ضرَّ لو زادت وجهاً ... علمياً ... مؤكداً ... ثم هل إذا ظهر العلم بعد ذلك بحقيقة أخرى تُغايِر ما فُسِّرَت به الآية ... هل يمكن لقائل أن يقول : إن الخطأ في الآية ؟ أم تُرى سيقول الناس : لقد أخطأ المفسر ؟ كما أن مما قد يُثير الخصوم الشك به تفسير كل آية في موضع من القرآن تفسيراً يُغايِر تفسير آية مماثلة في سورة أخرى لا سيما الآيات العلمية أو التشريعية . إن إعجاز القرآن العلمي ليظهر بجلاء أكثر إذا ما درست آيات الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسّر بعضها بعضاً وتمّ التعليق عليها بما أوضعه العلم . وهكذا فإنه لا تعارض بين العلم والدين إطلاقاً . وإذا كان التاريخ يحدثنا أن كل تقدّم علمي إنما يُصاحبه دائماً نهضة دينية ، وأن ازدهار الدين وانتشاره إنما يعم ويتسع في عصور العلم ، فيا تُرى ماذا يكون مستقبل الدين في القريب العاجل ؟ ، (١) .

الاسلام والطب الحديث

هذا عنوان كتاب أُلّفه الطبيب عبد العزيز إسماعيل . وفي هذا الكتاب يميل المؤلف ميلاً شديداً إلى الاتجاه العلمي في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم . وهذا الكتاب مجموع مقالات كان قد نشرها المؤلف في مجلة الأزهر تحت عنوان « الإسلام والطب الحديث » . والمؤلف يتوخى من هذه المقالات التي يجمعها هذا الكتاب التوفيق بين معاني بعض الآيات القرآنية الكريمة وبين مقررات الطب الحديث .

(١) بين الدين والعلم : ص ١٤٥ وما بعدها .

ونرى المؤلف في مقدمة كتابه يؤكد على ضرورة إظهار إعجاز القرآن من غير جهة فصاحته ، أي من نواحٍ أخرى وبخاصة أن المتأخرين أمثالنا لا يُقدِّرون الفصاحة حق قدرها لعدم تبخُّرهم فيها .

ويقرر المؤلف في المقدمة أن القرآن ليس بكتاب طبيٍّ أو هندسة أو فلّك ، ولكنه يُشير أحياناً إلى سُنينٍ طبيعية ترجع إلى هذه العلوم ... وإن لم يكن ذلك مُدركاً وقت نُزوله إلا على طريق الإجمال أو التأويل لعدم استبحارهم في العلوم ... فقوله تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) شبه الحيوان المنوي بالعلق ، مع أنه لا يُرى إلا بالميكروسكوب . والعبرة من هذه الآية لم تظهر وقت نزولها ولا بعده بمئات السنين حتى اكتشف الميكروسكوب .

ويقرر المؤلف أن الآية السابقة وكثيراً مثلها لا يفهم شيئاً من معناها الحقيقي إلا من درس العلوم الحديثة (١) .

وفي قوله هذا اتهام للرسول الكريم عليه السلام والصحابة والتابعين رضي الله عنهم بأنهم لم يفهموا شيئاً من المعنى الحقيقي لبعض الآيات القرآنية لجهلهم بهذه العلوم الحديثة . والرسول الأُمِّيُّ ﷺ هو شارح القرآن الأول ، والصحابة رضي الله عنهم تلقَّوا هذا العلم عنه عليه السلام وزادوا عليه باجتهادهم . ومنهم ابن عباس رضي الله عنه ترجمان القرآن الذي دعا له الرسول الكريم بالتفقه في الدين وتعلُّم التأويل .

وهذا التقرير المغلوط الفاسد إنما جاء بسبب إقحام القرآن في ميدان لا يجوز لكلٍّ من فهم مراد الله تعالى أن يُقحمه فيه البتة . ومن ذلك يبدو واضحاً لكل من عنده رُمقٌ من ورع وتقوى وفهم فساد هذا الاتجاه وجُمُوحه .

(١) انظر الإسلام والطب الحديث - المقدمة : ص ١٤ .

وفي آخر مقدمة الكتاب نرى المؤلف يعترف بفضل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي لأنه أول من شجعه على نشر هذه المقالات ، وكذلك الأستاذ فريد وجدي .

بحوث في تفسير القرآن ، سورة العلق

هذا عنوان كتاب ألفه الأستاذ م. جمال الدين عياد. وفي هذا الكتاب نرى المؤلف ينحو نحو النزعة العلمية في التفسير. وفي تفسير قوله تعالى : (خَلَقَ الإنسان من عَلَقٍ) نجده يناقش المفسرين القدماء والمحدثين في قولهم إن العلق هو الدم الجامد ، وهو تفسير لا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة على شاكلة قوله : « وتفسير العلق بالدم الجامد تفسير تسمح به اللغة ولا يسمح به الطب أو علم الأجنة خاصة » . فإذا استشرت قاموساً من قواميس اللغة على اختلافها وجدت الدم الغليظ أو الجامد من معاني العلق . ولكن الحقائق الثابتة في علم الأجنة لا يمكن أن تفسر العلق بالدم الجامد أبداً . فالعلق كما قرّر القرآن في آيات أخرى هي طورٌ من أطوار الجنين يعقب النطفة أو البويضة الملقحة ويسبق المضغة ، فهي ثاني أطوار الجنين . والثابت أن الطور الذي يعقب تلقيح البويضة يتّصف أول ما يتّصف بظاهرة الانقسام Cleavage . ولئن كنّا نفتقد المعلومات عن انقسام البويضة الإنسانية فإن انقسام البويضة في الثدييات عامة وفي فصيلة من فصائل القرود قريبة الشبه بالإنسان خاصة ، قد كشف لنا الكثير عما يرجح حدوثه في الإنسان . فمن دراسة لويس وهارتمان لفصيلة *Macacus rhesus* وهي فصيلة من القرود كبيرة الشبه بالإنسان - يتبين لنا - كما هو واضح من شكل (١) أن البويضة الملقحة تنقسم إلى خليتين خلال أربع وعشرين ساعة من وقت انطلاق البويضة من المبيض ثم إلى ثلاث فأربع ، ثم خمس فست ، فسبع فثمان . ويستمر الانقسام كذلك حتى تصبح البويضة الملقحة حول الساعة السادسة والتسعين مركبة من ست عشرة خلية ، ويطلق عليها في هذه المرحلة من مراحل

النمو اسم التوتة لما بينها ككتلة من الخلايا المتراسة بعضها فوق بعض وبين ثمة التوت من شبه . وعند هذه المرحلة يكون الجنين قد وصل إلى فراغ الرحم في شكل مجموعة من الخلايا المركزية محاطة تماماً بدائرة من الخلايا سيطلق عليها فيما بعد اسم التروفوبلاست ، ويحيط بهذه الدائرة غشاء يطلق عليه زونا بلاوسيدا ، وهو الغشاء الذي كان يحيط بالبويضة أصلاً من هذا العرض الموجز لأطوار الجنين ، يتبين لنا أن ما سماه القرآن بالمضغة لا بُد أن يقابل المرحلة الثانية من المراحل الثلاث التي ذكرناها آنفاً ، وهي المرحلة التي يتخلّق فيها الجنين أو تتكوّن أجهزته وأعضاؤه ؛ ذلك أن المضغة قد وصفها القرآن بأنها مخلّقة وغير مخلّقة ، فهي الطور الأول الذي يتخلّق فيه الجنين ، فتتكوّن أعضاؤه وأجهزته المختلفة أو لا يتخلّق كالسقط الذي قد يحدث من شذوذ في نموّ الجنين ؛ كأن يغوص في غير المكان الطبيعي من جدار الرحم فلا يتخلّق ويموت ، وتنزف الأم نزيفاً شديداً . وهذه الحالات الأخيرة حالات شاذة ، يبلغ فيها الجنين مرحلة التخلّق ولا يتخلّق ، أو لا يكتمل تخلّقه فيولد ناقصاً غريب الخلقه وواضح من الوصف الذي قدّمناه للدم السائل والدم الجامد أن الجنين في المرحلة التي سماها القرآن بالعلقة ليس من الدم الجامد أو السائل في شيء . بل إن الجنين حتى الأيام الأخيرة من طور العلقه لم يكن يحتوي على خلايا دموية على الإطلاق . فالراجح أن الخلايا الدموية لا تتكوّن طلائعها إلا حول اليوم الثامن عشر من حياة الجنين . ومن أجل هذا نرفض ما ذهب إليه المفسرون من أن العلقه دم جامد ، ونرفض ترجمة العلقه بالكلمة الإنجليزية Clot التي تقابل الدم الجامد في العربية . وحجّتنا في هذا الرفض تعارض هذا التفسير مع المفهوم الطبيّ لما يقابل العلقه من مراحل نموّ الجنين ، (١) .

ومكذا نرى كيف تكونت الجذور الأولى للاتجاه العلمي في تفسير القرآن

(١) بحوث في تفسير القرآن ، سورة العلق : ص ٦٣ - ٧٢ .

الكريم 'منذ' العصر العباسي الثاني ، وكيف أن هذه الجذور كانت بطيئة الامتداد والحركة ، حتى جاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما اصطدمت العقلية الإسلامية المتخلفة علمياً وصناعياً بالعقلية الغربية الصليبية المتفوقة علمياً وصناعياً ، والتفت المفسرون والمفكرون من المسلمين إلى القرآن الكريم ، فقالوا إن القرآن يحوي أصول هذه العلوم الحديثة ويشير إليها تصريحاً تارة وتلميحاً تارة أخرى ، ولذلك تثبت صلاحيته لكل زمان ومكان . ولا شك أن هؤلاء في نزعتهم هذه إنما يصدر عن حرص على الإسلام والمسلمين وعن تكريم القرآن الكريم وإعلاء شأنه .

فالاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم امتدت جذوره القديمة في العصر الحديث إلى أقصى الغاية ، وازداد رواجاً عند المفسرين والمفكرين المحدثين إلى درجة أن صار 'جلّتهم مشفقاً به ، وكأن الهوس أصابهم . ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولا واستحساناً عند بعض الأقدمين فأنكروه إنكاراً واضحاً ، كما أنكروه ورفضه بعض المتأخرين والمحدثين . ونرى الآن أن نقد صورة واضحة عن إنكار القدماء والمحدثين لهذا الاتجاه .

انكار أبي حيان الأندلسي للتفسير العلمي

نجد أبا حيان الأندلسي في تضاعيف تفسيره يحمل على الفخر الرازي لنزعة العلمية في تفسيره ويرفع عقيرته في وجه من ينحو نحو هذا الاتجاه الذي يسميه فضولاً وتخليطاً وتخييطاً على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى: (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ... الآية) (١) : « وقد تكلم المفسرون هنا في حقيقة النسخ الشرعي وأقسامه وما اتفق عليه منه وما اختلف فيه ، وفي جوازه عقلاً ووقوعه شرعاً وبماذا 'ينسخ' ، وغير ذلك من أحكام النسخ ودلائل تلك الأحكام وطولوا في ذلك . وهذا كله موضوعه علم أصول

(١) سورة البقرة ، الآية ١٠٦ .

الفقه فيبحث في ذلك كله فيه . وهكذا جرت عادتنا أن كل قاعدة في علم من العلوم يرجع في تقريرها إلى ذلك العلم ، ونأخذها في علم التفسير 'مسلمة من ذلك العلم ، ولا نطوّل بذكر ذلك في علم التفسير ، فنخرج عن طريقة التفسير كما فعله أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي المعروف بابن خطيب الرّبي ، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها في علم التفسير ، ولذلك 'حكى عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال فيه كل شيء إلا التفسير . وقد ذكرنا في الخطبة ما يحتاج إليه علم التفسير ، فمن زاد على ذلك فهو فضول في هذا العلم . ونظير ما ذكره الرازي وغيره أن النحوي 'مثلاً يكون قد شرع في كتاب في النحو ، فشرع يتكلم في الألف المنقلبة ، فذكر أن الألف في الله أمي منقلبة من ياء أو واو ، ثم استطرد من ذلك إلى الكلام في الله تعالى فيما يجب له ويحوز عليه ويستحيل ، ، ثم استطرد من ذلك إلى إعجاز ما جاء به القرآن وصدق ما تضمنه ، ثم استطرد إلى أن من مضمونه البعث والجزاء بالثواب والعقاب ، ثم المثابون في الجنة لا ينقطع نعيمهم ، والمعاقبون في النار لا ينقطع عذابهم ، فبينما هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة إذا هو يتكلم في الجنة والنار . ومن هذا سبيله في العلم فهو من التخليط والتخييط في أقصى الدرجة .

وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي قدس الله تربته يقول ما معناه : متى رأيت الرجل ينتقل من فن إلى فن في البحث أو التصنيف فاعلم أن ذلك إما لقصور علمه بذلك الفن أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه ، حيث يظن أن المتغيرات متاثلات . وإنما أمعنت الكلام في هذا الفصل لينتفع به من يقف عليه ، ولئلا يعتقد أننا لم نطّلع على ما أودعه الناس في كتبهم في التفسير ، بل إنما تركنا ذلك عمداً ، واقتصرتنا على ما يليق بعلم التفسير . وأسأل الله التوفيق للصواب ، (١) .

(١) البحر المحييط : ٣٤١/١ وما بعدها .

انكار الشاطبي للتفسير العلمي

يُعدُّ الفقيه الأصولي المالكي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الأندلسي المتوفى سنة ٧٩٠ هـ يُعدُّ زعيم المعارضة لفكرة الاتجاه العلمي في تفسير القرآن في العصور السالفة ، فإننا نجده في كتابه « الموافقات في أصول الشريعة » يعقد بحثاً خاصاً لمقاصد الشريعة . ففي النوع الثاني - وهو النوع الذي يعنينا في هذه القضية - بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام - ويتضمن مسائل :

المسألة الأولى : إن هذه الشريعة المباركة عربية ، لا مدخل فيها للألسن الأعجمية . وهذا - وإن كان مبيّناً في أصول الفقه ، وأن القرآن ليس فيه كلمة أعجمية عند جماعة من الأصوليين ، أو فيه ألفاظ أعجمية تكلمت بها العرب ، وجاء القرآن على وفق ذلك ، فوقع فيه المعرّب الذي ليس من أصل كلامها - فإن هذا البحث على هذا الوجه غير مقصود هنا . وإنما البحث المقصود هنا أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ... فمن أراد تفهّمه فمن جهة لسان العرب يُفهم ، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة (١) .

وفي المسألة الثالثة من مسائل النوع الثاني يُقرّر الشاطبي أن هذه الشريعة المباركة أميّة ، لأن أهلها كذلك ، فهو أجرى على اعتبار المصالح ، ويدلّ على ذلك أمور :

(أحدها) النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) وقوله (فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته) وفي الحديث (بُعِثْتُ إلى أمة أميّة) لأنهم لم يكن لهم علمٌ بعلوم الأقدمين ..

(والثاني) أن الشريعة التي بُعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصاً

(١) انظر الموافقات : ٦٤/٢ .

وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية ، أو لا ، فإن كان كذلك فهو معنى كونها أمية أي منسوبة إلى الأميين ، وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما عهدوا ، فلم تكن تنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها . فلا بُدَّ أن تكون على ما يعهدون . والعرب لا تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية . فالشريعة إذاً أمية .

(والثالث) أنه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزاً ، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز ، بقولهم : هذا على غير ما عهدنا ؛ إذ ليس لنا عهدٌ بمثل هذا الكلام ، من حيث أن كلامنا معروف مفهوم عندنا ، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف ، فلم تقم الحجة عليهم به ... ، (١) .

ثم يعقد الشاطبي^١ فصلاً يتحدث فيه عن علوم العرب الأميين ، يقول : « واعلم أن العرب كان لها اعتناءٌ بعلومٍ ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناءٌ بمكارم الأخلاق ، واتصافٌ بمحاسن الشيم ؛ فصححت الشريعة منها ما هو صحيح ، وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل ، وبيّنت منافع ما ينفع من ذلك ، ومضار ما يضر منه ؛ فمن علومها : علم النجوم وما يختص بها من الإهتداء في البر والبحر ، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها ، وتعرف منازل سائر النيرين ، وما يتعلق بهذا المعنى . وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة ، كقوله تعالى (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) وقوله (وبالنجم هم يهتدون) وقوله (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) ...

ومنها علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار وإنشاء السحاب وهبوب الرياح

(١) انظر الموافقات : ٦٩/٢ - ٧١ .

المثيرة لها . فبيّن الشرعُ حقها من باطلها ، فقال تعالى : (هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً ويُنبئُ السّحابَ الثّقَالَ ، ويُسبّحُ الرّعدُ بحمده ... الآية) وقال : (أفرايتمُ الماءَ الذي تشربون ، أنّتم أنزلتموه من المُنزَنِ أم نحْن المُنزِلون) ... وقال تعالى (وأرسلنا الرّيحَ لواقِحَ فأنزلنا من السّماء ماءً فأسقيناكموه ... الآية) إلى كثير من هذا .

ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . وفي القرآن من ذلك ما هو كثير ، وكذلك في السنّة ، ولكن القرآن احتفل في ذلك . وأكثره من الأخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم ، لكنها من جنس ما كانوا ينتحلّون . قال تعالى : (ذلك من أنباء الغيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وما كنتَ لديهم إذ يُلقون أقلامهم أيّهم يكفلُ مريمَ ... الآية) وقال تعالى : (تلك من أنباء الغيبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كنتَ تعلمُها أنتَ ولا قومك من قبل هذا ... الآية) ... ومنها ما كان أكثره باطلاً أو جميعه ، كعلم العيافة ، والزجر ، والكهانة ، وخطّ الرمل ، والضّرْب بالحصى ، والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه ؛ كالكهانة ، والزجر ، وخطّ الرمل ، وأقرّت القول لا من جهة تطلّب الغيب ، فإن الكهانة والزجر كذلك . وأكثر هذه الأمور تخرّصٌ على علم الغيب من غير دليل ، فجاء النبي ﷺ بجهةٍ من تعريف علم الغيب بما هو حقٌ محضٌ - وهو الوحي والإلهام - وأبقى للنّاس من ذلك بعد موته عليه السلام جزءٌ من النبوة - وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراصة .

ومنها علم الطب ، فقد كان للعرب منه شيء لا على ما عند الأوائل ، بل مأخوذٌ من تجارب الأميين ، غير مبنيّ على علوم الطبيعة التي يقرّرها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة ، لكن وجهٌ جامعٌ شافٍ قليلٌ يُطلّع منه على كثير ، فقال تعالى : (كُلُّوا واشربُوا ولا تُسرفوا) . وجاء في الحديث التعريفُ ببعض الأدوية لبعض الأدوية ، وأبطل من ذلك

ما هو باطل" ، كالتداوي بالخمر والرقى التي اشتملت على ما لا يجوز شرعاً . ومنها التفنن في علم فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرف في أساليب الكلام ، وهو أعظم منتعلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم ، قال تعالى : (قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . ومنها ضرب الأمثال ، وقد قال تعالى : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) إلا ضرباً واحداً ، وهو الشعر ، فإن الله نفاه وبرأ الشريعة منه ، قال تعالى في حكايته عن الكفار (أئننا لتاركونا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين) أي لم يأت بشعر فإنه ليس بحق .. فهذا أنموذج ينبهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأمية ، (١) .

وفي المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني يشير الشاطبي إلى أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدة فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين : من علوم الطبيعيات ، والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق ، وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهاها . وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح . ويذكر الشاطبي - محتجاً لرأيه في إنكار هذا الاتجاه - أن السلف الصالح - من الصعابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى ، سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة وما يلي ذلك . ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر ، لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة . إلا أن ذلك لم يكن ، فدل على أنه غير موجود عندهم . وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير شيء مما زعموا . نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب أو ما ينسب على معهودها مما يتعجب منه أولوا الأبواب ، ولا

(١) الموافقات : ٧١/٢ - ٧٦ .

تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ،
أما أن فيه ليس من ذلك فلا (١) .

ثم شرع الشاطبيُّ يقدِّم لنا الأدلة التي تؤيد دعاوى أصحاب الاتجاه
العلمي في تفسير القرآن الكريم ، يقول : « وربما استدلبوا على دعواهم بقوله
تعالى : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) » ، وقوله : (ما فرطنا
في الكتاب من شيء) ونحو ذلك ، وبفواتح السُّور - وهي مما لم يُعهد عند
العرب - وبما نُقل عن الناس فيها ، وربما حكي من ذلك عن عليّ بن أبي
طالب رضي الله عنه وغيره أشياء ، (٢) .

ثم يتصدَّى لهذه الأدلة فيُغندما وينقضها على شاكلة قوله : « فأما الآيات :
فالمرادُ بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبُّد ، أو المراد بالكتاب
في قوله (ما فرطنا في الكتاب من شيء) : اللوح المحفوظ ، ولم يذكر
فيها ما يقتضي تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية .

وأما فواتح السُّور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً ،
كعددِ الجُمْل الذي تعرفوه من أهل الكتاب ، حسبما ذكره أصحاب السُّير ،
أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما
تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ، ولم يدَّعه أحدٌ ممن تقدَّم ، فلا دليل فيها
على ما ادَّعوا . وما يُنقلُ عن عليّ وغيره في هذا لا يثبت ، فليس بجائز أن
يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه ، كما أنه لا يصحُّ أن يُنكر منه ما يقتضيه ،
ويجب الاقتصار - في الاستعانة على فهمه - على كلِّ ما يُضاف علمه إلى
العرب خاصة ، فيه يوصلُ إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن
طلبه بغير ما هو أداةٌ له ضلَّ عن فهمه ، وتقوَّل على الله ورسوله فيه ،

(١) انظر المرجع السابق : ٧٩/٢ وما بعدها .

(٢) الموافقات : ٨٠/٢ .

والله أعلم ، وبه التوفيق » (١) .

وهكذا ترى كيف دعم الشاطبي فكرته ورأيه في إنكار الاتجاه العلمي في التفسير بطريقة الأصوليين ومنهجهم في بحث المسائل والقضايا .

أما المحدثون من العلماء والمفكرين الإسلاميين فقد أنكر كثير منهم الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم . ونحن الآن 'نقدم أقوالهم في هذه القضية التي راجت في هذا العصر .

انكار محمد رشيد رضا للتفسير العلمي

على الرغم من وجود اتجاه علمي في تفسير القرآن عند الشيخ محمد عبده فإن محمد رشيد رضا تلميذه ينمي في مقدماته تفسيره على من اتجهوا في تفسيرهم الاتجاه العلمي ، ومن القدماء يلوم الفخر الرازي ، ومن المحدثين يلوم صاحب الجواهر الشيخ طنطاوي جوهرى دون ذكر اسمه ، على شاكلة قوله : « كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كُتب في التفسير يُشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية ، والهداية السامية ؛ فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو ، ونكت المعاني ومصطلحات البيئات ، ومنها ما يصرفه عنه يحدل المتكلمين ، وتخريجات الأصوليين ، واستنباطات الفقهاء المقلدين ، وتأويلات المتصوفين ، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض . وبعضها يلفتُه عنه بكثرة الروايات ، وما مزجت به من خرافات الإسرائيلية . وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يُورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في المِلَّة على ما كانت عليه في عهده ؛ كاهيئة الفلكية اليونانية وغيرها . وقلَّده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصلاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك

(١) المرجع السابق : ٨٠/٢ - ٨٢ .

والنبات والحيوان ، قصدُ قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن . نعم ، إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن : فنون العربية لا بُدَّ منها ، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية ، كقواعد النحو والمعاني ، وكذلك معرفة الكون وسُنَن الله تعالى فيه . كل ذلك يُعين على فهم القرآن ، (١) .

انكار الشيخ محمود شلتوت للتفسير العلمي

تناول الشيخ محمود شلتوت هذه القضية بالبحث ، كما يقول الأستاذ محمد حسين الذهبي ، في العدد ٤٠٧ ، ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة « إبريل سنة ١٩٤١ » وفيه يردُّ على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بِحُجَجٍ قوية واضحة (٢) .

ويتناول الشيخ محمود شلتوت هذه القضية بالبحث في مقدمة « تفسير القرآن الكريم - الأجزاء العشرة الأولى » له . وفي هذه المقدمة يتحدث عن ناحيتين يجب تنزيه التفسير عنها . وتفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية كان من الناحية الثانية . وإنني من خلال دراستي لهذه المقدمة وتضاعيف التفسير أدرك دقة الشيخ العلمية وبُعد نظره وبراعته في فهم 'مراد الله تعالى'. فجزاء الله عن الإسلام والمسلمين خيراً . وتحت هذا العنوان : « ناحيتان يجب تنزيه التفسير عنها » يبدأ قوله في هذه القضية التي نحن بصددِها ، يقول : « وإذا كان المسلمون قد تلقَّوا كتاب الله بهذه العناية ، واشتغلوا به على هذا النحو الذي أفادت منه العلوم والفنون ، فإن هناك - مع الأسف الشديد - ناحيتين كان من الخير أن يظلَّ القرآن بعيداً عنها ، احتفاظاً بقدسيته وجلاله ، هاتان الناحيتان هما : ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية ، وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية

(١) تفسير المنار المقدمة : ٧/١ . (الطبعة الرابعة) .

(٢) انظر « التفسير والمفسرون » : ٣ / ١٨٤ .

الحديث منه ، وأحب أن أثبت هنا - بين يدي ما سأكتبه من التفسير - رأيي في هاتين الناحيتين واضحاً ، فأقول : تأويل القرآن وفق المذاهب ... وهذه هي الناحية الأولى .

تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية : وأما الناحية الثانية : فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها ، أخذوا يستندون الى ثقافتهم الحديثة ، ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها . نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ، ويرفعون من شأن الاسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية . نظروا في القرآن على هذا الأساس ، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن ، وأفضى بهم الى صور من التفكير لا يريدما القرآن ، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله ، فإذا مرت بهم أية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب ، أو حديث عن الرعد أو البرق ، تهللوا وأستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث الى العلماء الكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف ينشأ وكيف تسوقه الرياح .

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء ، قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة . وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق . ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم) بما

ظهر في هذا العصر من الغازات السامة ، والغازات الخائقة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) ، (أنسى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولّوا عنه وقالوا معلم مجنون) .

رُوي أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود وقال له : تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه ؛ يفسر قوله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ أنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : « من علم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ؛ إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي ﷺ ، فدعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنًا غيبياً من شؤون الله الخاصة ، لم ينزل بتفصيله وحي ، ولم يُطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ، ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الانسان ؛ وفسر : (الكتاب المبين) و (الامام المبين) الذي تحصى فيه الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة ، بالتسجيل الهوائي للأصوات ، ويقول : أظهر العلم ذلك بالخرعات البشرية ، واستخدمه الانسان فيما يختص بالأصوات : ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية ، والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك ، هي محاسبة الناس يوم القيامة ، وعرض أعمالهم عليهم ، كشریط مسجل يضم حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم ، وما قدموا من عمل . يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : (علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) وقوله تعالى : (وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً) ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويحدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم وينزكيهم ويتمنى ان يكثر الله من أمثالهم !

إن هؤلاء في عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ولكن على حسب ما كانت توحى به اليهم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية . ولسنا نستبعد - إذا راجت عند الناس في يوم ما نظرية دارون مثلاً - أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول : إن نظرية دارون قد قال بها القرآن منذ مئات السنين !

جوانب الخطأ في هذا الاتجاه : هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك ؛ لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهي خاطئة من غير شك ، لأنها تحمل أصحابها والمفرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ، ولا يُسيفه الذوق السليم . وهي خاطئة ؛ لأنها تُعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان ، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير ، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات : فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة ، لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه . فلندع للقرآن عظمته وجلالته ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم . وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يُصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول . قيل : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قوله تعالى : (يسألونك عن الأهلة ، قل هي مواقيت للناس والحج . وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البرُّ من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها ، واتقوا الله

لعلكم تفلحون) . وإنك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون ، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتثريب ؟ وإني لأرجو أن أوفّق فيما أعرض له من تفسير آيات القرآن الكريم إلى الخطئة المثلّي التي يجب أن يستقبل بها المسلمون كتاب الله (ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ، (١) .

إنكار الشيخ محمد مصطفى المراغي للتفسير العلمي

في تقرّظ الشيخ محمد مصطفى المراغي لكتاب «الاسلام والطب الحديث» للطبيب عبد العزيز إسماعيل ، ينكر الاتجاه العلمي في التفسير ، على الرغم من أنه أشاد بالكتاب وأثنى على مؤلفه ومدّحه على شاكّة قوله : « لست أريد من هذا أن أقول : ان الكتاب الكريم أشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف ، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته والعمل به ، ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً ، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه ، (٢) .

ومع إنكار الشيخ محمد مصطفى المراغي للإنجاء العلمي في تفسير القرآن إلا أنه يحاول التوفيق - جريئاً على طريقة أستاذه محمد عبده في التوفيق بين الاسلام وبين الحضارة الغربية - يحاول التوفيق بين موقف المعارضين لهذا الاتجاه وبين موقف المؤيدين والداعين إليه . ولهذا لا يجد بأساً إن اتفق

(١) تفسير القرآن الكريم - الأجزاء العشرة الأولى - ، المقدمة ، ص ٩ - ١٤ .

(٢) الإسلام والطب الحديث ، ص ٢ .

ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها ، على شاكلة قوله : « يجب ألا نجر الآية الى العلوم كي نفسرها ، ولا العلوم الى الآية : ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها » (١) . ويفهم من هذا أن الشيخ المراغي يُنكر إخضاع الآيات القرآنية للنظريات العلمية وحسب ، أما إخضاعها للحقائق الثابتة والقواعد العلمية المستقرة فلا جرم أنه يُسوغ ذلك ولا بأس به ، مما جعل الطبيب عبد العزيز إسماعيل يعترف بفضل الشيخ المراغي ، لأنه أول من شجعه على نشر هذه المقالات في مجلة الأزهر تحت عنوان « الاسلام والطب الحديث » . وهكذا يتبين للقارئ الفرق بين موقف الشيخ محمود شلتوت من الاتجاه العلمي في تفسير القرآن وبين موقف الشيخ محمد مصطفى المراغي . وكلاهما كان شيخ الجامع الأزهر . فموقف الشيخ شلتوت يعتمد على الرفض القاطع الصريح لهذا الاتجاه ، بينما نجد موقف الشيخ المراغي توفيقياً ليس فيه حسم أو ركون الى موقف ثابت صريح .

انكار محمد عزة دروزة للتفسير العلمي

من يتصفح « التفسير الحديث » لمحمد عزة دروزة يجده ينكر استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، على شاكلة قوله في تفسير قول الله تعالى : (بلى قادرين على أن نسوي بنانه) (٢) : « ولقد قرأنا مقالاً أراد كاتبه أن يجعل صلة بين اختصاص البنان بالذكر وبين ما ظهر حديثاً من علم بصمات الأصابع وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس ، وتمشياً مع الفكرة التي سادت بعض الناس من استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الكلمات والآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه ، ومعجزات الله

(١) الإسلام والطب الحديث ، ص ٣ .

(٢) سورة القيامة ، الآية ٤ .

المشار إليها فيه . وفي هذا - في اعتقادنا - تحميلٌ لكلمات القرآن وآياته غير ما تتحمل ، وإخراجٌ له من نطاق قدسيته وغايته ، وتغريضٌ له للجدل والنقاش . ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه ، وأمر الله نبيه ﷺ بشرحه وتبيانهِ . والنظريات الحديثة لم تكن معلومة ولا مكشوفة . ولا يصحُّ لمسلم - مهما حسنت نيته - أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن ، (١) .

انكار أمين الخولي للتفسير العلمي

في كتاب « التفسير - معالم حياته » ، منهجه اليوم ، للشيخ أمين الخولي دراسة الاتجاه العلمي في التفسير . ونجد أمين الخولي يعرف التفسير العلمي بالتفسير الذي يحكمهم الاصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ، ويحتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها وقد وقع ذلك على رغم ما قرّر في ميادين علمية إسلامية مختلفة من قواعد فهم عبارة القرآن ، واتسع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً ، فشمّل إلى جانب العلوم الدينية اعتقادية وعملية ، وظاهرة وخفية ، سائر علوم الدنيا ويذكر أمين الخولي أن هذه النزعة استمرت ، وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن ، أو بيان صلاحية الإسلام للحياة . وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسير القرآن فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم ، وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر ، فأخرجت لنا مثل كتاب « كشف الأسرار النورانية القرآنية » (٢) .

ويمضي الأستاذ أمين الخولي فينكر هذا الاتجاه العلمي معتمداً على أقوال

(١) التفسير الحديث ، ٧/٢ .

(٢) انظر التفسير ، معالم حياته ، منهجه اليوم : ص ٣٩ - ٢١ .

الشاطبي وأدلته ، ومضيفاً إليها أدلة أخرى جديدة من عنده ، ومن عند بعض المحدثين ، على شاكلة قوله : « إذا كان الاتجاه إلى التفسير العلمي قديماً ، وكانت العناية به أكثر نوعاً ما في العصر المتأخر ، فإن المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضاً ، ولعله اليوم أقل رواجاً عند المثقفين . . . فأما المخالفة القديمة فيه فهي ما يبديه الأصولي الاندلسي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي ت ٧٩٠ هـ في كتابه « الموافقات » في أثناء أبحاثه عن القرآن إذ تكلم أولاً عن أن هذه الشريعة المباركة أمية . . . وإذا كان هذا هو الرأي القديم العهد في فهم القرآن فهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ، يأخذ كلّه باصطلاحات حادثة بعده بأزمة غير قصيرة ، فإنك لتضم إلى هذا البيان من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه ، فمنها :

١ - الناحية اللغوية ، في حياة الالفاظ وتدرّج دلالتها ؛ لو ملكنا منها ما لا يُدُّ لنا أن نملكه ، في تحديد هذا التدرّج ، وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة ؛ وعهد استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع المعجيب في فهم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معاني وإطلاقات لم تعرف لها ؛ ولم تستعمل فيها ؛ أو إن كانت تلك الالفاظ قد استعملت في شيء منها ، فباصطلاح حادث في الملة ؛ بعد نزول القرآن بأجيال . وسرى فيما يلي - من بيان عن التفسير اليوم ؛ وكيف يتناول - ما يكشف عن هذا الجانب كشفاً كافياً .

٢ - الناحية الأدبية أو البلاغية - إن شئت - والبلاغة - فيما يقال - : مطابقة الكلام لمقتضى الحال . فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمي ؛ كلاماً يوجه إلى من خطب به من الناس في ذلك العهد ؛ مراماً به تلك المعاني المذكورة مع أنها معانٍ من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد ما جازت آماداً فسيحة ؛ وجاهدت جهاداً طويلاً ، ارتقى به عقلها وعلمها !!! وهب هذه المعاني العلمية المدعاة كانت هي المعاني المرادة بالقرآن فهل فهمها

أهل العربية منه إذ ذاك وأدركوها ؟! وإذ كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلمية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور القرآن ، ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لختلف نظريات العلوم المفهمة لدقائقها !! وإن كانت لم تفهم منها ولم يدركها أصحاب اللغة الخالص من عبارتها كما هو الواقع فعلاً ، فكيف تكون معاني القرآن المرادة ؟! وكيف تكون تلك الالفاظ مفهمة لها ، وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال ؟!

٣ - وهناك الناحية الدينية ؛ أو الاعتقادية ؛ وهي التي تبين مهمة كتاب الدين ، وهل هو كتاب يتحدث الى عقول الناس وقواهم العامة عن مشكلات الكون ، وحقائق الوجود العلمية ؟؟ وكيف يساير ذلك حياتهم ، ويكون أصلاً ثابتاً ؛ تختم به الرسائل السماوية ، كما هو الشأن في القرآن ؛ مع ان هؤلاء المتدينين لا يقفون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محدودة ، ولا ينتهون عند مدى ما ؟! فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء عن القرآن على نحو ما سمعت آنفاً ، وهي جوامع لا يضبطها اليوم احد إلا تغير ضبطه لها بعد يسير من الزمن أو كثير ؛ وما ضبطه منها القدماء قد تغير عليهم فيما مضى ، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما تلا !! والحق البين ان كتاب الدين لا يعنى بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ، ولا يكفيهم مؤنته حتى يلتمسوه عنده ، ويعدوه مصدراً فيه .

وأما ما اتجهت اليه النوايا الطبية من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ، ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه ، أو صلاحيته للبقاء ... الخ فربما كان ضرره أكثر من نفعه ؛ على أنه كان لا بد لأصحاب هذه النوايا ومن لف لف لفهم من ان يتجهوا اليه ليدفعوا مناقضة الدين للعلم ، فلمله يكفي في هذا وفي ألا يكون في كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نوااميس الكون ونظم وجوده ؛ وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ؛ ومسايرة للعلم ، وخلاصاً

من النقد .. على اني حين أسمع بهذا القدر في سبيل ارضاء رغبات هؤلاء الطيبي النية ، لا أنسى أن أذكرهم بأن التناول الفني لحقائق الكون ومشاهده ، هو التناول الذي يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس ، ويوجههم لعامتهم وخصتهم ، وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم أيضاً - كما هي مهمة الدين والغاية من تلاوة كتابه بينهم جميعاً . وهذا التناول إنما يقوم على المشهود البادي من ناحية روعته في النفس ووقعه على الحواس ، وانفعال الناس به ، لا من ناحية دقائق قوانينه ومنضبط نواميسه في معادلات جبرية او ارقام حسابية ، او بيان جاف لخصائصه وحقائقه ... وبقيام هذا التناول على المشاهد ، والمذكر باديء الرأي ، والمؤثر في النفس المثير للانفعال ، لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلمية والخصائص الجبرية لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التي لا يراد من تناولها إلا إثارة الشعور بخلاها وجمالها ؛ ودلالاتها على عظمة القوة المدبرة لها المحفقة لنظامها ؛ ولو التزم في شيء من هذا تصحيح المقررات العلمية لأخل هذا الالتزام كثيراً بالأهداف الفنية الوجدانية ، التي يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها عن طريق التأمل المتدين ، والاعتبار النفسي العاطفي المريح قبل كل شيء آخر . ومن هنا قد يبدو في تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شيء من المقررات العلمية وإن أمكن التوفيق بينهما . ولا أحسب أن عليه بأساً بشيء من هذا ولا فيه ضير ... فخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبينون الصدق ؛ والإعجاز ؛ او الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمي خير لهم ان يقدرُوا مثل هذا الاعتبار ، فلا يتكلفون ما يتكلفون من ربط الكتاب بالعلم ؛ على أنهم إن كانوا لا بد فاعلين فحسبهم كما تقدم ، ألا يكون في القرآن نص صريح بصادم حقيقة علمية ، دون ان يمكن التوفيق بينه وبينها وبين هذا الأصل مما لا يسمح المقام فيه بأكثر مما قيل . وهناك نواح أخرى من النظر محدثة ، تؤيد الرأي القديم الذي بينه الشاطبي في كيفية فهم عبارة القرآن وتجعل من الخير ألا توجه العناية إلى مثل هذا الضرب من التفسير العلمي ، لأنه ليس بنبي

جدوى على القرآن نفسه ، والقرآن غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة ، ورياضة نفوس الناس جميعاً على اختلاف حظهم من العلوم الطبيعية والرياضية وما إليها^(١).

انكار الدكتور شوقي ضيف للتفسير العلمي

عرض الدكتور شوقي ضيف في مقدمة كتابه « سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة » لأولئك الذين فسروا القرآن الكريم وأتخذوه ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية . وقد استنكر هذا الاتجاه وحذر من خطورته على شاكلة قوله : « . . . وقد قلت الشيخ الإمام « محمد عبده » تفاسير كثيرة منها ما اهتدى بهديه ومنها ما خاض في مباحث علمية كنت ولا أزال أراها تجنب عن الجادة ، إذ القرآن فوق كل علم ، ومن الخطأ أن يتخذ ذريعة لإثبات نظريات علمية في الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية ، وهو لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون ، وما ذكر فيه من خلق السموات والأرض والأفلاك والكواكب إنما يراد به بيان حكمة الله وأن للوجود خالقاً أعلى يدبره وينظم قوانينه . ولا ريب في أن القرآن يدعو أتباعه دعوة عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية ، ولكن هذا شيء والتحول بالقرآن إلى كتاب « تستنبط » منه النظريات العلمية شيء آخر لا يتصل برسالته ولا بدعوته . إنه دين « لهداية البشر ، يزخر بما لا يحصى من قيم روحية واجتماعية وإنسانية ، وحسب المفسر أن يُعنى ببيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف وتعاليمه التي أضاءت المشارق والمغارب أضواء غامرة »^(٢).

ويفهم القارئ أن الدكتور شوقي ضيف يعتبر تفسير محمد عبده المثال

(١) التفسير - معالم حياته ، منهجه اليوم ، ص ١٩ - ٢٧ .

(٢) سورة الرحمن وسور قصار - عرض ودراسة - المقدمة ، ص ١٠ .

الصحيح الذي يجب على المسلمين أن يهتدوا بطريقته في التفسير . وكل من يتعمق ما وصلنا إليه عند دراستنا لمدرسة محمد عبده في التفسير يجد أن كلام الدكتور شوقي ضيف غير صحيح . وقول الدكتور شوقي ضيف « ومنها ما خاض في مباحث علمية . . . » مشعر بأن محمد عبده لم يخض في مباحث علمية . ولقد بينا أن محمد عبده كان يميل الى الاتجاه العلمي في بعض تفسيره حتى أنه تصدى للبحث في موضوعات أهمها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم . ومن أراد أن يتوثق في ذلك فليراجعه في موضعه .

موقفنا من هذه القضية

بعد هذا العرض للاتجاه العلمي في تفسير القرآن قديماً وحديثاً ، وموقف المنكرين والمعارضين لهذا الاتجاه قديماً وحديثاً أيضاً ، يجب عليّ أن أبين موقفي من هذه القضية سواء أكان تأييداً وتسويفاً أم رفضاً وإنكاراً فأقول : إنني أنكر نزعة التفسير العلمي للقرآن الكريم ولا أسوّغ إخضاع الآيات القرآنية للعلوم الكونية والطبيعية البتة ، ولا أوافق الذين يستخرجون النظريات العلمية من الآيات القرآنية ، لأن القرآن الكريم ليس كتاب علم مثل الكيمياء والذرة والهندسة والفلك والفيزياء وغير ذلك ، وإنما هو كتاب أنزله الله تعالى على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ليكون هدى ورحمة للناس . هو كتاب الاسلام الذي يشتمل على العقيدة الإسلامية التي ينبثق عنها نظام ينظم علاقة الانسان بخالقه « العبادات » وينظم علاقة الانسان بنفسه « المطاعم والملبوسات » وعلاقته بغيره من بني الانسان « المعاملات » . وحق يكون موقفي هذا من هذه القضية واضحاً ومعللاً وجدت أن أسجل هذه النقاط التي أعتبرها أدلتي في اتخاذ هذا الموقف :

١ - إن جعل الارتباط بين القرآن وبين الحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء هو خلط بين علم التفسير

وعلم إعجاز القرآن . وبهذا الصدد يقول الأستاذ محمود شاكر : « وغاية علم تفسير القرآن ، كما ينبغي أن يعلم ، إنما هي بيان معاني ألفاظه مفردة ، وجمله مجتمعة ، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المباني ، سواء في ذلك آيات الخبر والقصص ، وآيات الأدب ، وآيات الأحكام ، وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن . وهو أمر عن « إعجاز القرآن » بمعزل . أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي ، أو بقضايا الشعر جميعاً ، والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية ، وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن ، فهو علم « إعجاز القرآن » ، ثم « علم البلاغة » . ولا مناص لتكلم في « إعجاز القرآن » من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة ، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس ، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما :

أولهما : أن « إعجاز القرآن » كما يدل عليه لفظه وتاريخه ، وهو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته ، وعلى أنه رسول من الله يوحى إليه هذا القرآن ، وأن النبي ﷺ كان يعرف « إعجاز القرآن » من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب ، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي ، من نحو قوله تعالى : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) . (سورة هود : ١٣ ، ١٤) .

وقوله : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) . (سورة الاسراء : ٨٨ :)

إنما هو تحدٍ بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك . فما هو بتحدٍ بالإخبار بالغيب المكنون ، ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهرٍ

من تنزيله ، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ، ولا بشيء من المعاني مما لا يتصل بالنظم والبيان . . . (١) .

والآية (قل لئن أاجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) تسجل وتثبت عجز العرب المعاصرين للنبي عليه السلام عن معارضة القرآن والأتیان بسورةٍ من مثله . وبما أنهم عجزوا وثبت عجزهم - وهم سادة البيان وملوك الفصاحة - فالعرب اليوم أولى بالعجز . والأعاجم بالضرورة عاجزون .

فإعجاز القرآن قد ثبت وأستقر وصار فكرة مفروغاً منها لا تحتاج إلى إثبات . والقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن . إذن ، فجعل القرآن بما يحويه من أصول العلوم المختلفة دليلاً على إعجازه وصلاحيته للبقاء لا يستقيم مع ثبوت إعجازه في حياة النبي ﷺ .

ونحن نعلم أن معجزة موسى عليه السلام كانت العصا أمام السحرة الذين جمعهم فرعون ، وكانت معجزة عيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . والقرآن كان معجزة محمد عليه السلام الباقية ، إذ كان له معجزات غير القرآن لم يتحد الناس بها كخروج الماء من بين أصابعه عليه السلام ، وإطعام الجيش الكثير الزاد القليل .

وحتى تتم المعجزة وتكون قاطعة ومفحمة كانت من جنس ما يتفوق به الناس الذين يبعث إليهم الرسل عليهم السلام . فأهل مصر انتشر بينهم السحر ووصل إلى درجة عالية في الفن ، ووصل الطب إلى درجة متفوقة في العصر الذي كانت فيه معجزة المسيح عليه السلام . والعرب كانوا عبدة البيان

(١) أنظر كتاب الظاهرة القرآنية - تقديم ص ١٦ - ١٩

وسادة الفصاحة والبلاغة أكثر ما كانوا يعبدون الأوثان . فتخدام القرآن يحنس ما يتفوقون به . وكانوا أميين ، وكان الرسول عليه السلام كذلك وهو منهم . والعلوم التي يعرفها العرب ليست بشيء ، وأكثرها يعتمد على الملاحظة البسيطة الساذجة الفطرية . فإذا كان ذلك كذلك فإن جعل القرآن معجزاً لأنه يحوي بين تضاعيفه أصول العلوم المختلفة مصادم لواقع العرب الغير العلمي ، وبالتالي هو مصادرة لاعجاز القرآن ونسف له من الجذور .

٢ - من المعروف بداهة أن النبي ﷺ كان يفهم القرآن جملة وتفصيلاً بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان بدليل قوله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه) (١) .

ومن الطبيعي كذلك أن يفهم أصحاب النبي ﷺ القرآن في 'جملة' ، أي بالنسبة لظاهرة وأحكامه . وكان الواحد من الصحابة رضي الله عنهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله رجع إلى رسول الله ﷺ في تفسيرها ، فيبين له ما خفي عليه ، لأن وظيفته البيان ، كما أخبر الله تعالى عنه بذلك في كتابه حيث يقول : (.... وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (٢) . وكل من يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التي اشتملت عليها ، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . وإذا أمعنا النظر في هذا التفسير المأثور فإننا لا نجد فيه أي أصل من أصول العلوم المختلفة التي يتبجح بها أنصار وأصحاب الاتجاه العلمي في تفسير القرآن . وإذا كان النبي محمد عليه السلام لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى ، فهل يجوز - عقلاً أو سمعاً - أن يخفي الله عن

(١) سورة القيامة . الآيات ١٦ - ١٩

(٢) سورة النحل ، الآية ٤٤

نبيّه أصول هذه العلوم المختلفة كالهندسة والطب والفلك والكيمياء وغيرها لو كان القرآن يحتوي عليها ويتضمنها ؟! هذه واحدة . والثانية : أن هناك آيات في القرآن الكريم تبدأ بقوله تعالى (يسألونك) . ومن مثل ذلك قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (١) وقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج . . . الآية) (٢) . ففي الآية الأولى الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان ؛ سألو النبي عليه السلام عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله ، أي مما استأثر الله بعلمه . وقالوا: بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذي القرنين ، وعن الروح ؛ فإن أجاب عنها أو سكّت فليس بنبيّ ، وإلّا أجاب عن بعض وسكّت عن بعض فهو نبيّ ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح ، وهو مبهم في التوراة ، فقدموا على سؤالهم . والآية الثانية نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال وما فائدة محاقه وكاله ومخالفته لحال الشمس . قال ابن عباس وقتادة والربيع وغيرهم . وروي أن من سأل هو معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاري قالوا : يا رسول الله ما بال هلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يمتلئ ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدا ، لا يكون على حالة واحدة فنزلت . فكان الجواب : قل هي أي الأهلة مواقيت للناس . وهذه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ، إذ هي كونها مواقيت في الآجال والمعاملات والصوم والفطر ومدة الحمل والرضاع والنذور المعلقة بالأوقات وفضائل الصوم في الأيام التي لا تُعرف إلا بالأهلة . ويعرف بالأهلة أشهر الحج ومواقيته ، لأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى لفرض الحج لأشهر آخر .

فأنت ترى أن الله سبحانه أبهم أمر الروح على رسوله محمد عليه السلام

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥

(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٩

وعلى الخلق جميعاً ، لأن ذلك من أمر الله ، وهو مما استأثر الله بعلمه ، لأن فيه سر الخلق ، فلا يجوز لأحد أن يعرفه . كما أن الله سبحانه لم يبين لرسوله الكريم الحقيقة العلمية لزيادة الهلال ونقصانه ومحاقه وما يعتوره من تغييرات ، وإنما كان جوابه - سبحانه وتعالى - منصباً على المنافع العملية التي تحصل للناس من جراء هذه التغييرات التي تتعاور الهلال . ولو كان القرآن كتاب علم لكان النبي محمد عليه السلام هو أولى الأنبياء عليهم السلام وأولى الناس بتلقي الحقائق العلمية في هذه الآية وغيرها عن ربه سبحانه وتعالى بطريق الوحي .

٣ - القرآن الكريم ، كما يبدو لكل من يعمن النظر فيه ، كتاب الاسلام الذي بيّنت فيه العقيدة الاسلامية . وهذه العقيدة الاسلامية هي فكرة كلية شاملة عن الكون والانسان والحياة ينبثق عنها نظام من جنسها . وإن الله سبحانه وتعالى خلق في الانسان استعداداً فطرياً للايمان ، فيؤمن إيماناً فطرياً بالله الواجب الوجود . ولكن هذا الاستعداد الفطري لو ترك وحده في الميدان فقد ينحرف بالانسان عن الطريق الصحيح للايمان . ولذلك كانت حكمة الله في ربط هذا الايمان الفطري بالايمان العقلي . وكيف يكون هذا الايمان العقلي ؟ لا جدال في أن من يبحث بحثاً بسيطاً ومتواضعاً في الانسان والكون والحياة التي هي مكونات الوجود وحسب ، يتبين له ان الانسان محدود ؛ محدود في طوله وعرضه وتحصيله العلمي ومقدار رؤيته وعمره ونومه وأكله وشربه الى غير ذلك .

والكون عبارة عن أجرام ، وكل جرم محدود ، ومجموع المحدود محدود بالضرورة . والحياة محدودة لأن الانسان لا يدركها إلا بمفرده ، وإذا مات لم يعد يدرك الحياة . ومهما عاش الانسان فنهايته الموت . وإذا كانت مكونات الوجود ؛ الانسان والكون والحياة محدودة ، فهي تحمل الدليل على وجود الغير المحدود ، لأن الأشياء بأضدادها تتميز . وإذا كانت هذه المحدودات ناقصة

وعاجزة ومحتاجة الى غيرها ، فان هذا الغير المحدود أزلي وغير ناقص وغير عاجز وغير محتاج الى غيره . وهذا الأزلي الغير المحدود هو الله تعالى الواجب الوجود . فالخطوة الأولى إذن هي الايمان بالله الواجب الوجود، ويترتب على الايمان بالله الواجب الوجود فكرة مقتضاها أن هذا الخالق سبحانه لا يمكن ان يترك الناس هملاً بدون تنظيم ، ولذلك كان بعث الرسل عليهم السلام وكانت الرسالات السماوية . ومحمد ﷺ أخبر الناس وعرفهم أنه رسول الله الى الناس كافة .

وقد تحدى العرب بأن يأتوا بعشر سور مفتريات مثل القرآن، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فلم يستطيعوا وثبت عجزهم عن معارضة القرآن الذي نزل بلسانهم وعلى منوالهم . وهذا القرآن إما أن يكون من عند الله سبحانه ، أو من عند العرب ، أو من عند محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يمكن أن يكون من عند الأعاجم لان العرب عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ، فالأعاجم بالضرورة أعجز . فالقرآن ليس من عند العرب . أما محمد عليه السلام فكان يتلو الآية القرآنية ويقول الحديث في نفس الوقت . ومعروف أنه عليه السلام كان يصوغ الحديث . فلو كان القرآن من عند محمد عليه السلام لكان أسلوب الحديث هو نفس أسلوب القرآن . والمعروف أن القرآن يختلف عن أسلوب الحديث . ويدرك ذلك كل من عنده رفق من فهم في العربية وأساليب التعبير العربي .

إذن فالقرآن لا يمكن أن يكون من عند محمد عليه السلام، كما أنه لا يمكن أن يكون من العرب .

فالقرآن إذن من عند الله سبحانه وتعالى أنزله على رسوله محمد ﷺ بطريق الوحي .

هذه هي الطريقة الصحيحة لإثبات صدق القرآن وصلاحيته للحياة ، وليست طريقة إثبات نظريات علمية في القرآن الكريم .

فالقُرآن فكرٌ من عند الله سبحانه . والعلم يعتمد على الملاحظة والتجربة والاستنتاج . والعرب وسائر البشر قبل البعثة النبوية لم يكونوا بحاجة إلى العلوم لتنقذهم من الظلم والاستعباد بقدر ما كانوا بحاجة إلى فكرٍ يجمعهم ويوحدهم ونظام ينظم علاقاتهم . فالرقيُّ الفكري شيء والتفوق العلمي شيء آخر . وقد يكون تفوق علمي ولا يكون رقيُّ فكري ألبتة . والدليل على ذلك أن الولايات المتحدة الأميركية زعيمة المعسكر الرأسمالي والاتحاد السوفيتي زعيمة المعسكر الشيوعي قد وصلتا إلى قمة التفوق العلمي في عصرنا الحاضر . ومع ذلك فإن العالم يشنُّ تحت ظلم هذين النظامين الفاسدين . ففي الاتحاد السوفيتي تُداس كرامة الإنسان ، ويُقتل رمياً بالرصاص إذا سرق . وفي الولايات المتحدة الأميركية عشرون مليوناً من الزوج يُعاملون معاملة البهائم . والفكر الإسلامي هو الفكر المستنير الراقى الذي يرتفع بالإنسان إلى المستوى الذي أراده الله له . وهذا الفكر هو الذي هبَّ أمتنا ووضعها عند أول الطريق إلى الإبداع العلمي المادي .

٤ - إن القرآن الكريم يُشير كثيراً إلى أشياء في الكون مثل الشمس والقمر والأهليّة والنجوم والرياح والأمطار والبحر وما فيه من أسماك وحليّ والليل والنهار والنحل والشَّهْد والأنعام وتدرُّج خلق الجنين والأشجار والثمار . وحثَّ القرآنُ الإنسانَ على أن يتدبَّر خلق السموات والأرض في أكثر من آية ، وحرَّضه كذلك على التفكير في نفسه هو ، كل ذلك لتهيئة الإنسان إلى الإيمان عن طريق العقل بالخالق الواجب الوجود ، وليربط الإيمان بالله عن طريق الفطرة بالإيمان بالله عن طريق العقل . ولكن الله سبحانه وتعالى لم يطلق للعقل البشري العنان في بحث كل ما ورد في القرآن الكريم . لأن عقل الإنسان قاصر كما أسلفنا . وقد يضيع في متاهات إذا بحث بعض الموضوعات . وغير قليل من الأحكام الشرعية لا تخضع للعقل ، ولا يمكن أن يدرك كُنْهها . ولا يعني ذلك أن الله سبحانه قد ألغى عقل الإنسان وصادره . فللعقل ميدانه الذي يُبدع فيه مثل الاجتهاد .

ولا جدال في أن جعل القرآن معجزاً لأن آياته تشير إلى أصول العلوم له خطرٌ شديدٌ على إعجاز القرآن، وإن شئت فقل إنه إتيانٌ عليه من قواعده . فالعرب أميون . والقرآن الكريم تحدّي العرب بأن يأتوا بسورةٍ من مثله فلم يستطيعوا وقد سجّل القرآن عجزهم .

وإذا قلنا إن بعض الآيات القرآنية تحوي أصول العلوم الحديثة ، فمعنى ذلك أن القرآن الكريم تحدّي أناساً عاجزين ليس لهم حظ في العلوم بالمعنى الدقيق . ومن ثم فالتحدّي باطلٌ من أساسه . وبالتالي فإن صحة نبوة محمد عليه السلام باطلة . وهذه النتيجة المغايرة لواقع العرب وواقع مراد الله تعالى في القرآن إنما جاءت بسبب إقحام القرآن في ميدانٍ لا يمتُّ إليه بصلة . وهذا لا يأخذ به إلا كل جاهلٍ مكابرٍ بالمحسوس .

وقد يكون التقدم العلمي في أحوال كثيرة عاملاً مساعداً على الوصول إلى الإيمان بالخالق الواجب الوجود ، وقد يكون خلاف ذلك . ولكن هذا شيء ، وإخضاع الآيات القرآنية للعلوم المختلفة شيءٌ آخر وبخاصة للنظريات المتغيرة .

فبُعد الأرض عن الشمس ثلاثة وتسعون مليون ميلاً تقريباً . وهناك كوكب مثل عطارد قريب من الشمس ، وهناك كوكب مثل بلوتو بعيد جداً عن الشمس . ومن المعروف أنه لا توجد حياة على هذين الكوكبين . فمن الذي جعل بُعد الأرض عن الشمس هذا البُعد الذي أوجد الحياة على كوكب الأرض ؟ فلو كانت هذه المسافة بإرادة الشمس أو الأرض لكانت الشمس أو الأرض ذات إرادة . وبما أن هذه المسافة ثابتة لا تتغير ، فليس أمامنا إلا أن نقول إن الشمس والأرض وسائر الأجرام تخضع لناмос ثابت مفروض عليها من خارجها ، وهو ما نسميه إرادة الله وإبداعه وتنظيمه لهذا الكون .

وقد أثبت العلم الحديث أن قطر المجرة الأرضية مائة ألف سنة ضوئية . وهذه المجرة هي واحدة من آلاف المجرات في هذا الكون الرحيب . ومعنى

ذلك أن كوكب الأرض بالنسبة للكون مثل حبة رمل بالنسبة لصحراء شاسعة مترامية الأطراف .

ولا يمكن أن يكون هذا الكون الواسع إلا خاضعاً لمشئته خالق حكيم قدير أزلي هو الله سبحانه وتعالى .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يُصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول . وحسبنا أن القرآن هو الذي فتح النوافذ لعقول المؤمنين وحبَّب إليهم التدبُّر والتفكير والتأمُّل والبحث والنظر والدقَّة العلمية .

وحسبنا أن الذين كان كتابهم القرآن عاشوا مع العلم في وثامٍ ومودةٍ بينما تحوَّلت كتب أهل الملل الأخرى إلى حجر عثرة وعقبة كؤود أمام العلم وأهله في العصور الوسطى مما جعل أحد المفكرين الضالين أن يقول أخيراً: الدين أفيون الشعوب . وفي هذه العبارة قياس شمولي فاسد إذا جازت في ملة من الملل فإنها لا تنسحب أبداً على القرآن كتاب الاسلام .

مصادر البحث ومراجعته

- ١ - الاتجاهات الحديثة في الإسلام ، تأليف هـ. أ. ر. جيب Gibb ، ترجمة هاشم الحسيني . بيروت دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٦ م .
- ٢ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، تأليف الدكتور محمد محمد حسين . القاهرة ، المطبعة النموذجية ، ١٣٨٢ هـ . الطبعة الثانية .
- ٣ - الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٧٠ هـ .
- ٤ - إحياء علوم الدين ، تصنيف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي . مؤسسة الحلبي ، القاهرة . ١٩٦٨ م ، ١٣٨٧ هـ .
- ٥ - أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث « مظاهرها - أسبابها - علاجها » ، للدكتور عبد الحميد متولي ، الإسكندرية ، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م .
- ٦ - أسرار الماسونية أو السرّ المصون في شيعة الفرمايون ، للأب لويس شيخو . دار منشورات البصري ، ١٩٦٥ م ، ١٣٨٥ هـ .
- ٧ - أسرار الماسونية ، تأليف الجنرال التركي جواد رفعت آتليخان . ترجمه عن التركية وعلّق عليه نور الدين رضا الواعظ الهامي وسليمان محمد

- أمين القابلي كاتب عدل كركوك . كركوك ، ٣ رجب ١٣٧٦ هـ .
- ٨ - الإسلام والحضارة الغربية ، للدكتور محمد محمد حسين . بيروت ، دار الإرشاد ، ١٩٦٩ م .
- ٩ - الإسلام والطب الحديث ، لعبد العزيز إسماعيل . القاهرة ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، ١٩٥٩ م ، الطبعة الثانية .
- ١٠ - الإسلام والعقل ، للدكتور عبد الحليم محمود . القاهرة ، دار الكتب الحديثة .
- ١١ - الإسلام والعلم الحديث ، تأليف عبد الرزاق نوفل . دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، رمضان ١٣٧٧ هـ ، إبريل ١٩٥٨ م .
- ١٢ - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، تأليف الشيخ محمد عبده . مطبعة الموسوعات بمصر .
- ١٣ - اشتراكية الإسلام ، بقلم الدكتور مصطفى السباعي . دمشق ١٣٧٩ هـ ، الطبعة الثانية .
- ١٤ - أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٣٧٩ هـ ، ١٩٥٩ م .
- ١٥ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، لمصطفى صادق الرافعي . المكتبة الأهلية بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٢٦ م ، ١٣٤٥ هـ .
- ١٦ - الأفعى اليهودية في معازل الإسلام ، للأستاذ عبد الله التل . بيروت ، دار الإرشاد ، الطبعة الأولى ، ١٩٧١ م ، ١٣٩١ هـ .
- ١٧ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لقاضي القضاة ناصر الدين عبد الله ابن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشافعي . استانبول ، المطبعة العثمانية ، ١٣٠٥ هـ .

- ١٨ - البحر المحيـط ، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان الأندلسي . مطبعة السعادة بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٢٨ هـ .
- ١٩ - 'بحوث في تفسير القرآن' ، سورة العلق ، تأليف م. جمال الدين عياد . القاهرة ، دار الحمّامي للطباعة ، ١٩٦١ م ، ١٣٨٠ هـ .
- ٢٠ - البرهان في علوم القرآن ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٧ هـ ، ١٩٥٧ م .
- ٢١ - بين الدين والعلم ، لعبد الرزاق نوفل . القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى .
- ٢٢ - تاريخ الأُستاذ الإمام ، الشيخ محمد عبده ، تأليف محمد رشيد رضا . مطبعة المنار بمصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م .
- ٢٣ - تاريخ التفسير ، للشيخ قاسم القيسي . مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٦ م .
- ٢٤ - تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر ، للدكتورة نفوسة زكريّا سعيد . دار نشر الثقافة بالإسكندرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٤ م .
- ٢٥ - التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، تأليف الدكتور مصطفى الخالدي والدكتور عمر فروخ . المكتبة المصرية للطباعة والنشر ، صيدا ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧ م .
- ٢٦ - تجديد الفكر العربيّ للدكتور زكي نجيب محمود . دار الشروق ، بيروت ١٩٧١ م .
- ٢٧ - تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، للإمام العلامة عبد الحميد بن باديس . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م .

- ٢٨ - تفسير جزء عم مع مقدمة التفسير ، تأليف محمد المبارك عبد الله شيخ علماء السودان . مطبعة محمد علي صبيح ، القاهرة .
- ٢٩ - التفسير الحديث ، لمحمد عزّة دُرُوزَة . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .
- ٣٠ - التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، تأليف حنفي أحمد . دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ م .
- ٣١ - تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، بقلم السيد محمد رشيد رضا إلا تفسير سورة العصر المطّول فهو للأستاذ الإمام . مطبعة المنار ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٣ هـ .
- ٣٢ - تفسير القاسمي المسمّى بحسن التأويل ، تأليف علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٧ م .
- ٣٣ - تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار ، تأليف محمد رشيد رضا . دار المنار بمصر ، الطبعة الرابعة ، ١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م .
- ٣٤ - التفسير القرآني للقرآن ، للأستاذ عبد الكريم الخطيب . دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
- ٣٥ - تفسير القرآن الكريم ، جزء عم ، للأستاذ الإمام محمد عبده . الجمعية الخيرية الإسلامية ، مطبعة مصر ، الطبعة الثالثة ، ١٣٤١ هـ .
- ٣٦ - تفسير القرآن الكريم ، الأجزاء العشرة الأولى ، للإمام الأكبر محمود شلتوت . دار القلم ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ م .
- ٣٧ - التفسير ، معالم حياته - منهجه اليوم ، للأستاذ أمين الخولي . مصر ، ١٩٤٤ م .

- ٣٨ - التفسير والمفسرون ، تأليف الأستاذ محمد حسين الذهبي . دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ م .
- ٣٩ - تهافت الفكر المادي والتاريخي بين النظر والتطبيق ، للدكتور محمد البهي . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م .
- ٤٠ - جذور البلاء ، تأليف الأستاذ عبد الله التلي . دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م .
- ٤١ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الشيخ طنطاوي جوهري ، مصر ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٠ هـ .
- ٤٢ - جواهر القرآن ، للإمام أبي حامد بن محمد الغزالي . مكتبة الجندي ، القاهرة ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م .
- ٤٣ - حصوننا مهتدة من داخلها ، للدكتور محمد محمد حسين . دار الإرشاد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م .
- ٤٤ - حكم الإسلام في الاشتراكية ، للأستاذ عبد العزيز البدري . منشورات المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م .
- ٤٥ - الدولة الإسلامية ، للأستاذ تقي الدين النبهاني . القدس .
- ٤٦ - الدولة العثمانية والشرق العربي ، للدكتور محمد أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة .
- ٤٧ - الديمقراطية في الإسلام ، للأستاذ عباس محمود العقاد . دار المعارف بمصر ، ١٩٦٤ م .
- ٤٨ - رائد الفكر المصري ، الإمام محمد عبده ، تأليف الدكتور عثمان أمين . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٥ م .

- ٤٩ - 'روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني' ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادى . إدارة الطباعة المنيرية بمصر .
- ٥٠ - 'زعماء الإصلاح في العصر الحديث' ، تأليف الأستاذ أحمد أمين . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .
- ٥١ - 'سورة الرحمن وُسُورٍ قصار' ، عَرَضٌ ودراسة ، تأليف الدكتور شوقي ضيف . دار المغارف بمصر ، ١٣٩٠ هـ .
- ٥٢ - 'شبهات حول الاسلام' ، تأليف محمد قطب . الطبعة السادسة .
- ٥٣ - 'الشركات في الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي' ، للدكتور عبد العزيز عزّة الحياط . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ، عمّان ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٠ هـ ، ١٩٧١ م .
- ٥٤ - 'الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين' ، للدكتور سليمان دُنيا . دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٧٧ هـ ، ١٩٥٨ م .
- ٥٥ - 'طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد' ، للرحالة ك. عبد الرحمن الكواكبي . المطبعة الرخمانية بمصر ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١ م .
- ٥٦ - 'الظاهرة القرآنية' ، تأليف الأستاذ مالك بن نبي . ترجمة عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٨ م .
- ٥٧ - 'غرائب القرآن و رغائب الفرقان' ، تأليف نظام الدين الحسن بن محمد ابن الحسين القُسمي النيسابوري . تحقيق ومراجعة إبراهيم عطوة عوض ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م .
- ٥٨ - 'الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية' ، للأستاذ محمد المبارك . دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ م .

- ٥٩ - الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، تأليف الدكتور محمد البهي . الطبعة الثانية ، ١٩٦٠ م .
- ٦٠ - الفن القصصي في القرآن الكريم ، للدكتور محمد أحمد خلف الله . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٥ م .
- ٦١ - القرآن والعلم الحديث ، تأليف عبد الرزاق نوفل . دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، رمضان ١٣٧٨ هـ ، مارس ١٩٥٩ م .
- ٦٢ - كشف الأسرار النورانية القرآنية ، لمحمد بن أحمد الإسكندراني . المطبعة الوهبيّة ، القاهرة ، ١٢٩٧ هـ ، ١٨٧٧ م .
- ٦٣ - ما دلّ عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان ، تأليف السيد محمد شكري الآلوسي . المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩١ هـ ، ١٩٧٦ م .
- ٦٤ - 'معتزك الأقران في إعجاز القرآن' ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . تحقيق علي محمد البجاوي ، دار الفكر العربي بمصر .
- ٦٥ - مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الملقّب بفخر الدين الرازي . المطبعة العامرة ، استانبول ، نشر الشركة الصحافية العثمانية ، ١٣٠٨ هـ .
- ٦٦ - من 'زعماء الإصلاح' ، محمد عبده ، تأليف الأستاذ أحمد أمين . مؤسسة الخانجي بالقاهرة ، ١٩٦٠ م .
- ٦٧ - الموافقات في أصول الشريعة ، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي الأندلسي . مطبعة الشرق الأدنى بالموسكي ، القاهرة .
- ٦٨ - موجز تاريخ الشرق الأوسط ، من ظهور الإسلام إلى الوقت

الحاضر ، تأليف جورج كيوك . ترجمة عمر الاسكندري ، مركز كتب الشرق الأوسط ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٥٧ م .

٦٩ - النسخ في القرآن الكريم ، دراسة تشريعية تاريخية نقدية ،
للدكتور مصطفى زيد . دار الفكر العربي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ،
١٩٦٣ م .

الفهرس

الصفحة

٣

المقدمة

٦

تمهيد

الفصل الأول

٤١

اتجاه سلفي

٤١

١ - محاسن التأويل

٥٤

٢ - التفسير الحديث

٧١

٣ - التفسير القرآني للقرآن

الفصل الثاني

١٠١

اتجاه عقلي توفيقى يوفق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية

١٠٣

الشيخ محمد عبده

١٢٤

طريقته في التفسير

١٢٥

القرآن لا يتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن

١٢٦

يجل القرآن أن يكون فيه كلمة زائدة

١٢٨	تحكيم المذاهب النحوية في القرآن جراءة كبيرة على الله
١٢٨	وحدة القرآن وبلاغة عباراته
١٢٩	نزعة علمية في تفسير إعجاز القرآن
١٣١	قصص القرآن ليست تاريخاً بل للعبرة وبيان سنن الاجتماع
١٣٢	موقفه من مبهمات القرآن
١٤١	تأثره بالمعتزلة في تفسيره
١٤٢	حملته على التقليد والمقلدين
١٤٨	إنكاره السحر
١٤٨	إنكار بعض الأحاديث الصحيحة
١٥٦	موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس
١٦١	تأثره بابن تيمية في الحملة على البدع والأوهام
١٦٤	التوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية
١٦٨	جانب إصلاحي خلقي
١٧٦	إباحة ربا الفضل
١٨٣	إنكار تعدد الزوجات للمصريين
١٨٩	المساواة الأدبية بين الرجل والمرأة
١٩٣	فتوى لأهل الهند بالعمل بالقوانين الانجليزية

الفصل الثالث

٢٤٥	اتجاه علمي
٢٤٧	جذور قديمة للإتجاه العلمي في التفسير
٢٥١	الفخر الرازي والتفسير العلمي
٢٥١	البيضاوي والتفسير العلمي
٢٥٣	نظام الدين القسّمي النيسابوري والتفسير العلمي
٢٥٤	الزركشي والتفسير العلمي

الصفحة

٢٥٥

الجلال السيوطي والتفسير العلمي

٢٥٦

أبو الفضل المرسي والتفسير العلمي

٢٦٠

التفسير العلمي في العصر الحديث

٢٦٤

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي

٢٦٧

محمد جمال الدين القاسمي والتفسير العلمي

٢٦٩

محمود شكري الآلوسي والتفسير العلمي

٢٧٢

الشيخ طنطاوي جوهرى والتفسير العلمي

٢٧٧

عبد الحميد بن باديس والتفسير العلمي

٢٧٩

مصطفى صادق الرافعي والتفسير العلمي

٢٨١

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن

٢٨٥

عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي

٢٩١

الإسلام والطب الحديث

٢٩٣

بحوث في تفسير القرآن ، سورة العلق

٢٩٥

إنكار أبي حيان الأندلسي للتفسير العلمي

٢٩٧

إنكار الشاطبي للتفسير العلمي

٣٠٢

إنكار محمد رشيد رضا للتفسير العلمي

٣٠٣

إنكار الشيخ محمود شلتوت للتفسير العلمي

٣٠٧

إنكار الشيخ محمد مصطفى المراغي للتفسير العلمي

٣٠٨

إنكار محمد عزة دروزة للتفسير العلمي

٣٠٩

إنكار أمين الخولي للتفسير العلمي

٣١٣

إنكار الدكتور شوقي ضيف للتفسير العلمي

٣١٤

موقفنا من هذه القضية

٣٢٥

مصادر البحث ومراجعته

٣٣٣

الفهرس